الوجه الحجري

وليم جاردنر سميث

ترجمة: وائل عشري

رواية

أدب أمريكي حديث

مكتبة

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

الوجه الحجري

وليم جاردنر سميث

عنوان الكتاب: الوجه الحجري
The Stone Face
المؤلف: وليم جاردنر سميث
William Gardner Smith
ترجمة: وائل عشري
مراجعة لغوية: محمود شرف

المحروسة

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٣٠٨٧/ ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: 978-977-313-936-0

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2022

The Stone Face
Copyright ©1963, William Gardner Smith
All rights reserved

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

الوجه الحجري

وليم جاردنر سميث

ترجمة
وائل عشري

المحروسة

الطبعة الأولى 2022

مكتبة
t.me/soramnqraa

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سميث، وليم جاردنر، 1927 - 1974
الوجه الحجري: رواية/ وليم جاردنر سميث؛ ترجمة/ وائل عشري.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022
245 ص؛ 14.5×21.5 سم
تدمك 978-977-313-936-0
1 - القصص الامريكية
أ- عشري، وائل (مترجم)
ب- العنوان
823
رقم الإيداع 2022/23087

وليم جاردنر سميث

سيرة موجزة

وُلِد وليم جاردنر سميث William Gardner Smith (1927- 1974) ونشأ في ساوث فيلادلفيا؛ وهو أحد الأحياء العمالية السوداء، وتخلَّلت شبابَه المبكر حوادث عنف عِرقيٍّ: في الرابعة عشرة، تعرَّض للضرب على أيدي رجال شرطة، وفي التاسعة عشرة تعرَّض لاعتداء من قِبل مجموعة من البحَّارة البيض. بدأ سميث، الذي كان طالبًا بارزًا وقارئًا شغوفًا، في كتابة موضوعات صحفية لجريدة Pittsburgh Courier بِتسبرج كوريير، المملوكة لسود، حين كان طالبًا في المرحلة الثانوية. ثم شغل وظيفة في الجريدة بعد تخرُّجه في السادسة عشرة. جُنِّد عام 1946، وأُرسِل إلى ألمانيا؛ حيث أنهى روايته الأولى، التي تتناول علاقة غرامية بين امرأة ألمانية وجندي أمريكي أسود. ستُنشر الرواية، وعنوانها Last of the Conquerors "آخر الغُزاة"، بعد ذلك بعامين. في أعقاب

عودته إلى الولايات المتحدة، واصل سميث الإسهام في الكوريير، ودرس في جامعة تمبل، وقاد المظاهرات ضد عنف الشرطة، وأبدى اهتمامًا بالماركسية سرعان ما جذب انتباه مكتب التحقيقات الفيدرالي. عام 1949، تزوج Mary Sewell ماري سيويل. وفي عام 1950، نشر روايته الثانية Anger at Innocence "غضب من البراءة". بسبب شعوره بوطأة العنصرية والمكارثية؛ رحل سميث إلى باريس، حيث عمل في وكالة الأنباء الفرنسية، وتعرَّف على الكاتبينِ الأفريقيينِ الأمريكيينِ البارزينِ: ريتشارد رايت Richard Wright (1908- 1960)، وتشستر هايمز Ches-ter Himes (1909- 1984) اللذين عاشا في المنفى الباريسي منذ عام 1946 وبدايات الخمسينات على التوالي. نشر سميث روايته الثالثة South Street "شارع ساوث"، عام 1954، وموضوعها عودة راديكالي أسود من منفاه في إفريقيا إلى مسقط رأسه، فيلادلفيا. في عام 1956، رفضت حكومة الولايات المتحدة تجديد جواز سفره. انفصل سميث عن زوجته، وواصل الإقامة والعمل في باريس، وتعرَّف على زوجته الثانية Solange Royez سولانج رويه، وهي مُعلِّمة فرَّت والدتها من ألمانيا النازية. وفي عام 1963، صدرت The Stone Face "الوجه الحجري". بعد دعوته إلى المشاركة في إطلاق أولى محطات التليفزيون في غانا، انتقل سميث للإقامة في أكرا مع زوجته، ورضيعتيهما ميشيل. وُلِد ابنه كلود هناك. عقب انقلاب عسكري أسقط حكومة كوامي نكروما، اضطُرَّت الأسرة للعودة إلى باريس. في فرنسا، قابل سميث زوجته الثالثة Ira Reuben إيرا روبين، ووُلِدت طفلة أخرى، راشيل. عام 1967، زار سميث الولايات المتحدة كي يكتب كتابه الأخير، Return to Black America "عودة إلى أمريكا السوداء"، الذي نُشِر عام 1970. تُوفِي سميث بمرض السرطان عام 1974 في إحدى ضواحي باريس.

ملحوظة على الترجمة

الألفاظ المقبولة للإشارة إلى الجماعات العِرقية في الولايات المتحدة متغيرة، وكلمة Negro(s) زنجي/ زنجية/ زنوج، المستخدمة في "الوجه الحجري"، والتي كانت هي المفردة الشائعة للإشارة إلى الأفريقيين الأمريكيين؛ لم تعد مقبولة داخل المجتمع الأمريكي الأسود، وتُعتبر مسيئة.

احتفظتُ بالمسبَّات العِرقية، المتكررة في الرواية، كما هي دون ترجمة معانيها: "نيجر" / "نيجرز" للأفريقيين الأمريكيين. "كراكر" / "كراكرز" cracker(s) للأوروبيين الأمريكيين. "بيكو" bicot للجزائريين في فرنسا.

الحدث الذي يختتم الرواية (مذبحة باريس 1961، التي ارتكبتها الشرطة الفرنسية ضد متظاهرين/ات جزائريين/ات) وقع في 17 أكتوبر، وليس 1 أكتوبر كما يَرِد في الفصل الأخير. أُرجِّح أن يكون ذلك خطأ طباعيًّا، لكنني تركت التاريخ كما هو؛ لاستحالة التيقُّن من صحة ذلك الاستنتاج.

شكري وامتناني للصديق العزيز فادي عوض على مساعدتي في ضبط أسماء الشوارع، والأماكن، الواردة بالفرنسية في الرواية.

و. ع.

"كلُ مَن يبغض أخاه فهو قاتلُ نفسٍ."

رسالة يوحنا الأولى 3: 15

"كنتُ نزيلًا في أرضٍ غريبة."

سِفر الخروج 2: 22

الجزء الأول

الهارب

(I)

1

مال إلى الأمام على طرف مقعده، ذقنه في راحتيه، ومرفقاه فوق ركبتيه، يهتز بما لا يُلاحظ مع حركة القطار. كان الوقت مساءً، وفي الضوء الخافت وراء النافذة انفلتت الأراضي الزراعية الفرنسية المنبسطة، الخضراء والبنية. وجد شفتيه تكادان تنعقدان في صلاة، ليست من كلمات، ليست إلى ربٍّ ما، بل بشعور يمتد إلى الأرض، والسماء، إلى العالم عمومًا.

كان أصغر من الثلاثين بقليل، وزنجيًّا؛ اسمه سميان براون. له عين واحدة فقط؛ وتغطي عصابة سوداء محجر العين الأخرى. كان طويلًا ونحيفًا، له يدان عصبيتان، حساستان.

دردش الركاب الآخرون في المقصورة، لكن سميان لم ينضم إليهم. كان عقله بعيدًا عن القطار، في الخارج، في هواء الربيع، في باريس بالفعل.

رحلة طويلة، فكَّر سميان. أمريكا كانت وراءه، ماضيه وراءه، كان آمنًا. لن يكون العنف ضروريًّا، لن يكون القتل ضروريًّا. باريس. السكينة.

2

وقف، مُتحمِّسًا وخجولًا، في الطابور الطويل في انتظار تاكسي. شعر بذكرى خجله في الزحام، واستقام ظهره تلقائيًّا. رفع رأسه، وأبرز ذقنه. قرصان طويل القامة، نحيف، بشعر مفلفل، وعصابة سوداء. في طفولته، قبل العصابة-القناع الحامي، حاول سميان أن يتغلَّب على خجله بنشيد تنويمي: أنت أمير، أنت أمير، أنت أمير! بظهره مستقيمًا، وعينيه فخورتين ومرفوعتين، كان الخجل يتلاشى؛ كان يمشي كأمير، يشعر بشعور أمير. أحيانًا قال الناس: "يا له من طفل مغرور، يمشي كأنه يملك العالم!" كلمات مثل شفرة؛ لكنه يكون قد نجح في إخفاء خجله.

كانت أمسية دافئة في مايو 1960، والشوارع القريبة من محطة سان لازار ممتلئة بالناس. كان سميان رسامًا هاويًا؛ يرسم من أجل تسليته الخاصة، فتفقَّد وجوه المارة كي يكتشف الشخصيات التي تكشف عنها. تلك المرأة الفرنسية جافة، هزيلة الوجه - لم تُحَبَّ؛ وبالتالي لا تُحِبُّ، تعيسة، مُدمِّرة. هذا الرجل ذو الوجه الدائري المترهل، والعينين المذهولتين، تائه - في مدينة، في عالم، في كون لا يفهمه. تُمزِّقه مخاوفُ وطموحاتٌ تافهة. عالق، مثل معظم الرجال، في جحيم الروتين، لا يتوقف أبدًا كي يطرح هذه الأسئلة التي تؤدي إلى الجنون: من نحن؟ من أين أتينا؟ إلى أين نتجه، ولماذا؟ هذه الفتاة الصغيرة ذات الذراعين المتأرجحتين، والعينين المنطلقتين، والخدين المتوردين بالصحة، حيَّة؛ وجهها هو وجه تناغُم. وهؤلاء الرجال، السائرون نحوه جماعة،

بشعر مجعَّد، وبشرة ليست بيضاء بالضبط لكنها بالتأكيد ليست سوداء؟ عيونهم متجهِّمة، تعيسة، غاضبة، عيون عرفها سميان من شوارع هارلم. بناطيل واسعة، أحذية مهترئة، وقمصان بالية. نظروا إلى سميان بدون ابتسام، ومرَّ شيء يشبه الإدراك، على نحو غريب، بينه وبينهم. ثم مضوا متجاوزين إياه، واختفوا.

3

وجد سميان غرفة في الدور الرابع من فندق صغير في شارع تورنون. أراد ألَّا يدخل في صداقات لفترة. استكشف بولْڤارات الحي اللاتيني، وشوارعه الصغيرة المتعرِّجة. اكتشف المقاهي حيث لعب رجالٌ عجائزُ الورقَ طوال اليوم. أعجبه الضوء في سماء الربيع، خاصة في الغسق، حين يرشح اللون الأزرق عبر ضباب فضِّيٍّ.

ذات أصيل، بينما يجلس في الرومْري مارتينيكيز، جذب عينيه وجهٌ وضَّاء لامرأة شابة، داكنة الشعر، على بُعد عدة طاولات منه.

شعر سميان بالوحدة للمرة الأولى منذ وصوله. سيكون لطيفًا أن يتحدَّث مع المرأة، أن يجرِّب فرنسيته الصدئة التي تَعلَّمها في الجامعة. لكن خجله عاد مع خاطر التقرُّب من امرأة لا يعرفها، وبيضاء فوق هذا.

حدَّق سميان فيها. التفتت فجأة، وقابَلَت عيناها عينيه. شعر بالحرارة والحرج. نظرت إليه بعينين هادئتين، ثم حوَّلت عينيها وهي تبتسم ابتسامة خافتة.

تصارع الخجل والرغبة داخله. أسرع من تناول مشروبه كي يعطي نفسه الشجاعة، ثم وقف بغتة، وسار إلى طاولتها. وعلى شفتيه ابتسامة عبثية، متجمِّدة.

"عـذرًا،" قـال بفرنسـية متلعثمـة. "إنـه يـوم رائـع - أتسـاءل إن كنـتِ ستسـمحين لي بـأن أشـتري لـكِ مشروبًـا."

كان يرتعـش عـلى نحـو سـخيف. أنـت أمـير، قـال لنفسـه في يـأس، لكنـه كان كبـيرًا عـلى ذلـك؛ لم تَعُـد الفانتازيـا فعَّالـة.

اختلجـت الابتسـامة عـلى أطـراف فـم الفتـاة، وفي عينيهـا. ردَّت، بـدون أن ترفـع ناظريهـا إليـه: "شـكرًا، لكـن لا، مسـيو."

"ظننتُ ... لا أحاول أن أتودَّد إليكِ. إنه فقط يوم رائع ..."

"لا، مسيو."

شـعر سـميان بالإهانـة الشـديدة. كان متأكـدًا أن كل مَـن في شرفـة المقهـى، وفي الشـارع، يحملـق فيـه. كان وحيـدًا وعاريًـا عـلى خشـبة مسرح، تحـت بقعـة ضـوء مُتَّقـدة. بـدا أن النـادل يراقـب الأمـر مـن عتبـة المقهـى. انحنـى سـميان بتصلُّـب، ووجهـه ملتهـب مثـل شـعلة نـار، واسـتدار ليعـود إلى طاولتـه. في طريقـه، تعـثَّر في سـاق طاولـة، وأطـاح ببعـض الأكـواب والزجاجـات إلى الأرض، محدثًـا جلبـة. كتَمَـت الشـابةُ ضحكـةً.

حـين جلـس مـرة أخـرى، لعـن سـميان نفسـه. ببـطء، ضـد رغبتـه، أتـاه الخاطـر القديـم، الخبيـث، اسـتجابته الشرطيـة. العنصريـة. إنهـا حـاضرة في كل مـكان. إنهـا هنـا، في باريـس، أيضًـا. قلَّـب الفكـرة في عقلـه، دافعًـا إياهـا في نفسـه مثـل سـكين. شـعر بوجـع في محجـر عينـه المفقـودة. كـره الفتـاة في تلـك اللحظـة، بابتسـامتها الهازئـة. كـره كل الموجوديـن في الشرفـة، الذيـن ابتهجـوا لإذلالـه، كـما كان مـا يـزال متأكـدًا.

فجـأة، أشرق وجـه الشـابة وهـي تنظـر نحـو الشـارع. هبَّـت واقفـة. إفريقـيٌ طويـل القامـة، أسـود مثـل الفحـم، سـار مبتسـمًا في اتجاههـا. تَعانَقَـا، وقبَّـلا أحدهـما الآخـر. واصـل النـاس في الشرفـة أحاديثهـم، ورشـف مشروباتهـم، متجاهلـين هـذا المشـهد كـما تجاهلـوا مـا حـدث مـع سـميان.

غـادر الإفريقـي والشـابة الشرفـة متشـابكي الذراعـين. بينـما يتجـاوزان سـميان، الـذي لم يسـتطع أن يتجنَّـب التحديـق، نظـرت الفتـاة إليـه بابتسـامة أكـبر، هازئـة، وغمـزت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

4

وقـف سـميان أمـام حامـل اللوحـات عنـد نافـذة غرفته، ووضع لمسـات سريعـة بفرشـاته عـلى البورتريـه الـذي كان يعـرف أنـه لـن ينتهـي منـه أبـدًا. لقـد بـدأ البورتريـه مـرَّةً بعـد أخـرى. كان وجهًـا هائـلًا لرجـل مرسـوم بدرجـة مـن الخشـونة جعلتـه يبـدو كأنـه قُـدَّ مـن حجـر: الفـك مشـدود بإحـكام، الفـم خـط مضغـوط، بـه مـرارة، البـشرة لهـا شـحوب المـوت، العينـان فاترتـان، متعصِّبتـان، سـاديتان، وباردتـان. وجـه غـير بـشري، وجـه لا- رَجُـل، وجـه تَنافُـر، وجـه دمـار. بينـما حـدَّق في البورتريـه - إنـه وجـه كريـس، ومايـك، والبحَّـار - شـعر بعـذاب مشـاعره القديمـة، التـي لا يمكـن الفـرار منهـا: رعـب. تقـزُّز. خـوف. كراهيـة. رغبـة في القتـل. كان ذلـك الوجـه هـو مـا دعـاه إلى أن يقتـل، مـا كاد يُرسِـل بـه إلى الكـرسي الكهربـائي.

لتكن سكينة أوروبا دواءً لي ضد هذا الوجه، فكَّر.

نـزل إلى الطابـق السـفلي. كان أصيـلًا دافئًـا، مُشمسًـا. مـرَّ بامرأة سـوداء تمـشي بخطـو متمهِّـل، ويدهـا في يـد رجـل فرنـسي. عناويـن الصحـف تـصرخ: مسـلمون يثـيرون الشـغب في مدينـة الجزائـر. خمسـون قتيـلًا. رقـد متـشردٌ في مـصرف المجـاري، ذقنـه تُلطِّخـه قـاذورات ولحيـة قصـيرة، بشرتـه محروثـة مثـل حقـلٍ بفِعـل الشُّرب. المـوت والبـؤس يجوبـان الأرض، غـير أن شـمس هـذا الصيـف الباريـسي سـاطعة. والسُّـيَّاح، الذيـن يحملـون كاميـرات، كانـوا مَرِحـين. فكَّـر سـميان في البورتريـه، وفي أمريـكا. "الطفـل هـو أبـو الرجـل."

كان رجلٌ في منتصف العمر، له بشرة سمراء وشعر طويل مجعَّد، يدفع عربة مليئة بالفواكه والخضروات. بدا مثل جمع الرجال الذين رآهم سميان خارج محطة سان لازار حين وصل. هل من الممكن أن يكون هؤلاء الرجال جزائريين؟ بينما يتعرَّق تحت ثِقل العربة، نظر الرجل إلى سميان بعينين لم تكونا ودودتَيْن ولا غير ودودتَيْن، فقط متسائلتين. شعر سميان، لأسباب لم يفهمها تمامًا، بومضة مفاجئة من الذنب.

بينما واصل المشي، تذكَّر كيف عمل هو أيضًا، في الرابعة عشرة، بتوصيل الطلبات من متجر للخضراوات، دافعًا عربات طعام عبر شوارع فيلادلفيا. لقد ارتدى أحذية رياضية بها ثقوب، وقمصان قديمة جادَ بها فاعلو خير، وكلسونات ممزَّقة عند الركبتين. تذكَّر كيف حملقت فيه جماعات من البيض - وكيف حملق فيهم هو الآخر، متجهِّمًا، متحديًا، كارهًا ملابسهم اللطيفة، وفراغهم، وعيونهم الكسولة، الفضولية.

"مرحبًا، دادي أوه!"

كانت التحية، بصوت عميقٍ رنان، موجَّهةً إليه من رجل أسود يشبه جبلًا، بيضاوي الوجه، يجلس في شرفة مقهى التورنون.

"مرحبًا،" رد سميان.

"اجلس، يا رجل. دع الساقين تسترخيان. أرح المقعدة. استمتع بالموكب العابر. تناول مشروبًا. أنت جديد هنا، ألست كذلك؟"

جلس سميان إلى الطاولة، في مواجهة الشارع، ومدَّد ساقيه الطويلتين أمامه. "أنا هنا منذ أسبوعين."

ضحك الجبل ضحكة خافتة، دافئة، ودودة، تعالت من معدته العميقة ككهف. "يمكنني دائمًا أن أميِّزكم أيها الفتية الآتون للتَّوِّ من

الولايات،" قال. "تمشون في الشوارع مذهولين تمامًا، وقد حلقتم للتو، وترتدون بناطيلكم الواسعة المكوية جيدًا وملابسكم الأمريكية. اسمي بيب كارتر."

"سميان براون."

"سميان. اسم غريب. على أي حال، قومنا تقريبًا لديهم أغرب الأسماء الأولى في الوجود. ثم كيف حدث أن نُسمَّى جميعًا كارتر، أو براون، أو سميث، أو چونسون؟ البعض من مالكي العبيد الملاعين هؤلاء لا بُدَّ أنهم لعبوا كثيرًا بذيولهم! ماذا تشرب؟ بيرة؟ Garçon! Une bière! يسرني أن أراك هنا، يا سميان. يروق لي أن أرى الفتية يخرجون من الحضيض. ضحية واحدة أقل. أتمنى لو استطعنا أن ننقل السكان السود جميعهم إلى خارج الولايات. كم تخطط للإقامة في أوروبا؟"

"سنة على الأقل."مكتبة سُر مَن قرأ

ضحك بيب. "إن بقيت سنة، لن تعود أبدًا."

"كم أقمت هنا؟"

"عشر سنوات. وحين أتيت إلى هنا قصدت أن أبقى شهرين."

قهقه بيب. كان مزاجه الطيب داعيًا، والذكاء يطل من عينيه الضيقتين، الماكرتين، المرحتين. كان في نحو الأربعين، وكان، بلا ريب، أضخمَ رجل رآه سميان على الإطلاق. تجاوز طوله الستَّ أقدام بكثير، وبدا كأنه على نفس الضخامة عرضيًا، لكنه لم يكن مترهلًا. بدا أن ذراعيه الهائلتين وصدره على وشك الانفجار والبروز من تيشيرته الأبيض الخفيف. وشعره الخشن مقصوص تقريبًا حتى فروة الرأس؛ وهو ما أبرز دائرية وجهه.

"عشر سنوات،" زمجر بيب بنبرة انتصار. "رأيتهم يأتون ورأيتهم يمضون، كما قد يقول جيبون العجوز. إنها مدينة عظيمة، إن لم

تضعف. إن كنت تستطيع الصمود أمام الشرب، والجنس، والطعام الطيب، والنبيذ." تنهَّد. "الأشياء التي رأيتها! فتيات أمريكيات صغيرات، لطيفات كالحوريات، تخرَّجن للتو من بارنارد كوليدج، يهبطن إلى الحضيض بمجرد أن تختفي الكوابح. رأيت كراكرز يصيرون من محبِّي الزنوج - على الأقل، بينما يقيمون هنا. رأيت فتية من عائلات شهيرة وثرية يتحوَّلون إلى متشردين لأنهم لم يستطيعوا الابتعاد عن النساء والخمر. كذلك رأيت متشردين يتحولون إلى أشخاص محترمين. باريس مُحفِّز ... تكسرك أو تصنعك. قل لي، ما الذي أتى بك أنت إلى الجانب الآخر من المحيط؟"

نظر سميان إلى العملاق الأسود، بابتسامة صغيرة، وعلى غير توقُّع أخبر الغريب ما لم يخبر أحدًا آخر. "غادرت كي أمنع نفسي من قتل رجل."

نظر بيب إليه بدهشة. حين رأى أن سميان لم يكن يمزح؛ أجال نظره إلى أعلى، ورفع ذراعيه نحو السماء. "أووبس!" قال. "لن أتفوَّه بكلمة أخرى. هذه هي نوعية الأشياء التي لا أطرح أسئلة بشأنها. تعلَّمت ذلك الدرس في مدرسة هارلم عن كيف تبقى على قيد الحياة."

استمتع سميان بمراقبة وجه بيب المعبِّر. كان من الواضح أن الرجل على راحته تمامًا في باريس. عشر سنوات. كم سيبقى هو، سميان، حقًّا؟ هل سيعود إلى أمريكا بعد ذلك؟

"لماذا أتيت إلى فرنسا؟" سأل سميان.

"أنا؟ أتيت هنا كي أخرج من الحضيض. هؤلاء الناس وتَحامُلهم كانوا على وشك أن يجعلوني نحيفًا! لهذا، ذات يوم قلت ببساطة: 'طيب، يا قدماي، لنتحرك، ليس هذا بمكان مناسب لي.' أنت وأنا، لسنا الوحيدين. ثمة جيل ضائع جديد هنا، الكثير من القطط الداكنة

من الولايات موجودون هنا في باريس، أو في كوبنهاجن، أو أمستردام، أو روما، أو ميونيخ، أو برشلونة، أتوا إلى هنا كي يخرجوا من تحت ذلك الضغط، هل تعرف ما أعني؟ ولن يعودوا أبدًا. في بعض الأيام حين تسير في شارع، ترى الكثير جدًّا من الزنوج الأمريكيين حتى تظن أنك عدت إلى هارلم."

سحب سميان نَفَسًا من سيجارته، وجفل لمرأى فتاة مديدة القامة، طويلة الساقين، بنظارات داكنة، وشعر أسود قصير، ومشية وقحة، تعبر الشارع في اتجاههما. ما هزَّه بشدة كان تألق الفتاة الحسناء، التي لا بُدَّ كانت في بدايات عشريناتها؛ هالة من الطاقة المشتعلة، مجال كهربائي من نوع ما كان يحيط بها، وجهها وساقاها العاريتان توهَّجت صحَّةً. كانت واعية تمامًا بجسدها الجميل، وتبالغ في حركاته مثل طفل يلهو بلعبة جديدة. بدت كأنها ترقص بينما تتحرك نحو باب المقهى؛ ثم رأت بيب وابتسمت. اختفت داخل التورنون.

ابتسم سميان برقَّة. "لديك أصدقاء لطاف، يا بيب."

ضحك بيب ضحكة مكتومة. "ستقابلها. اسمها ماريا، إنها بولندية، أتت هنا في رحلة من بولندا لتحاول أن تدخل مجال السينما وتصير بريچيت باردو أخرى. لها بالتأكيد قوام بريچيت نفسه. الجميع يحاول معها، لكن الزهر لا يلعب. تجلس مع مجموعة من اللاجئين البولنديين داخل المقهى. إنهم أصدقاء لعائلتها، ويراقبونها مثل صقور."

جلسا بعدها في صمت، يشربان بيرتهما، ويراقبان الناس يمرون بهما. شعر سميان أنه اجتاز طقس عبوره الآن، لقد أصبحت هذه مدينته. التوتر القديم مثل سُمٍّ بدأ بالفعل في التسرب خارجه، وكان بوسعه أن يشعر بنفسه تقوى وتكتمل. سوف يصير رجلًا جديدًا. تساءل ماذا سيكون ذلك الرجل.

قال بيب: "ماذا كنت تعمل في الولايات؟"

"كنت مراسلًا صحافيًا."

"توجد مشكلة هنا ... أن تكسب قُوتَكَ. هل لديك أفكار؟"

"لقد ادَّخرتُ بعض المال. كذلك سوف أكتب مقالات لمجلة اسمها He-Man. تعرف: جنس، رياضة، جنس، سباقات سيارات، جنس، مسدسات وجنس. يعتقد المحرر أنني لا بُدَّ سأجد الكثير من الموضوعات كي أكتبها له في باري المرحة ... وأنت؟"

"لديَّ مكتبة صغيرة، متجر صغير للكتب. ستراه لاحقًا. الآن، هيا إلى الداخل. لتقابل بعض الناس في المقهى."

5

كانت ماريا وراء الباب مباشرة. تلعب على آلة البينبول بحماس شديد، وخصرها يهتز بينما تدق بأصابعها على الآلة. لم تُولِ سميان أي اهتمام.

المقهى ذاته كان دَفقةً زاعقة من الأخضر، والأصفر، والأحمر. كان مزدحمًا، صاخبًا، ممتلئًا بالدخان، وبه جداريات ضخمة لحدائق لوكسمبورج. بدا أن بيب يعرف الجميع. توقفا أمام مجموعة من الطاولات حيث جلس ثمانية أو تسعة شباب وشابات، نحو نصفهم من الأمريكيين.

"أقدِّم لكم سميان، لاجئ آخر،" قال بيب.

صافح سميان الجميع. كانت ملابسهم غير رسمية، وأغلبهم في احتياج إلى قَصٍّ شعورهم؛ وجوهم لطيفة، رغم أن عيون البعض

حمـراء قليـلًا بسـبب قِلَّـة النـوم أو الإفـراط في الـشرب. كانـوا جميعهـم بيضًـا.

"اجلـس، انضـمَّ إلينـا،" قـال رجـلٌ اسـمه لُـو Lou. لـه بـشرة زيتونيـة اللـون، وعينـان ذكيتـان. كان يلعـب شـطرنج مـع فتـاة.

"أنـا مـن نيـو يـورك،" أخـبر سـميان. "أعـزف چـاز بالترامبيـت هنـا. باريـس هـي حالـة مـن الحيويـة المعطَّلـة. أود فعـلًا أن أؤلـف موسـيقى. سـأعود إلى نيـو يـورك خـلال عـام، أو نحـو هـذا، وأسـتقر لأقـوم بعمـل جـاد."

كان رجـل آخـر، كلايـد، لـه وجـه أحمـر وشـعر وشـارب بلـون أشـقر تـرابي، يزعـق في زوجتـه، چينكـس، بلكنـة جنوبيـة ثقيلـة. "اسـتمري، واصـلي، دمِّـري نفسـكِ إن راق لـكِ ذلـك. لكـن لا تعـودي إلى البيـت بأمـراض تصيبينـني بهـا!"

كان لچينكـس، وهـي نيـو يوركيـة، وجـه جميـل عـلى نحـو قـاسٍ، وعينـان رماديتـان صغيرتـان، ضيقتـان، هسـتيريتان، وشَـعر طويـل ربطتـه كذيـل حصـان يهـدر مثـل سـوط حـول كتفيهـا.

"حبي، كُفَّ عن الذعر في العلن. ثم إن الأطفال بجوارنا، يا حلو."

حدَّقـت ابنتهـما، چـين، ذات الأعـوام السـتة، فيهـما بصمـت، ثـم تركـت والديهـا، وأتـت كي تقـف أمـام سـميان، ونظـرت إليـه بشـطارة هادئـة.

"ما الذي حدث لعينك؟" سألت.

"كانت أضحية."

"ما هي الأضحية؟"

"قربان. أعطيتها في مقابل شيء آخر."

"ما الذي حصلت عليه في المقابل؟"

"البقية بأكملها."

جذبت ماريا، الفتاة البولندية، عين سميان، وهي تخبط ردفها بقوة على جانب لعبة البينبول. دارت، غاضبة من الآلة، وسارت في اتجاه نهاية المقهى. توقَّفَت حين ناداها بيب.

"ماريا، تعالي قابلي شخصًا جديدًا ... سميان. لقد وصل إلى المدينة منذ فترة وجيزة."

وقفت أمام طاولة سميان، الذي قام، ومدَّ يده. حملقت فيه على نحو غريب، وبدا أنها مترددة بشأن شيء ما، ولم تصافحه. كانت اللحظة طويلة، وشعر سميان بالسخف ويده ممدودة في الهواء. في النهاية تورَّد وجهها، كأنما من الغضب، وصافحته، وبدون كلمة واحدة التفتت بغتة وسارت مبتعدة.

ذُهِل سميان. صفَّر بيب بصوت منخفض، ثم تبسَّم، وعيناه الماكرتان تضيقان. "يا رجل، تخبِّئ أمورًا عن بيب العجوز! ماذا فعلتَ لها؟"

ضحك سميان، وهو مندهش ما زال، وهزَّ رأسه. "عليَّ اللعنة إن كنت أعرف. لم أرها في حياتي من قبل."

6

كانت ماريا تلعب على آلة البينبول حين عاد سميان إلى مقهى التورنون في الأصيل التالي. كانت مجموعة من البرازيليين قابلهم سميان في الآليانس فرانسيز يعزفون على الجيتار، ويغنون في آخر المقهى. توقف سميان بجوار ماريا وقال: "بونجور".

رفعت عينيها، وطالعته من وراء النظارات المصقولة، ثم خفضتهما إلى الآلة مرة أخرى بدون أن تقول شيئًا. كانت ترتدي فستانًا أسود يلتصق بجسدها، وفتن سميان الخَطُّ الطويل المقوَّس بين خصرها وإبطيها. التمعت بشرتها مثل الفسفور.

"لماذا لم تريدي أن تصافحيني بالأمس؟"

هزَّت كتفيها في ضيق. بدون أن ترفع عينيها، قالت: "السبب هو أنك مغرور جدًّا."

"مغرور؟" عكست ابتسامته تنـدُّرًا ودهشة. "كيف لكِ أن تقولي هذا؟ أنتِ لا تعرفينني حتى."

"أعرفك جيدًا well بما يكفي،" تحدَّثَت بلكنة سلافية ثقيلة، جعلت well تبدو كأنها waahhll. بَدَت مُحرَجة، كأنها أدركت أن ما تقوله لن يكون له معنى بالنسبة لأي أحد سواها. "رأيتك عدة مرات في الشارع. تمشي ورأسك مرفوع إلى أعلى، مثل ملك. دائمًا أقول لنفسي: 'لِمَ يمشي هكذا، بدون حتى أن يرى الآخرين، كأنه أفضل من كل أحد آخر؟' وأفكِّر: 'ها، ها هو واحد من هؤلاء الرجال المغرورين.'"

توَرَّد وجهها، وهي ترمي الآلة بنظرة غاضبة. ضايقتها ضحكة سميان. "لا يعجبني الرجال المغرورون،" قالت بنبرة تحدٍّ.

"لست مغرورًا، لديَّ تشنج في رقبتي."

"عفوًا؟ تشنك؟ ما هذا؟"

"مرض ملكي. لا عليكِ. هل تتناولين مشروبًا معي؟"

ضربت الآلة براحة يدها المفتوحة بغضب. "Merde! أخسر مرة أخرى! دائمًا، دائمًا أخسر. لا أعرف لماذا ألعب. نعم، سآخذ ذلك المشروب."

جلسا إلى طاولة في المؤخرة. لوَّح سميان لكارلوس، وللبرازيليين الآخرين.

"سآخذ فودكا،" قالت ماريا.

صفَّر سميان. "في الأصيل!"

"أنا بولندية!" قالت ماريا بنبرة انتصار. أحضر النادل المشروبات. "لن أبقى طويلًا،" قالت ماريا. "يجب أن أذهب كي أقابل الأم الباريسية."

"ما معنى هذا، الأم الباريسية؟"

"زوجة الأب الباريسي. إنه لاجئ بولندي، صديق لعائلتي في وارسو، يعتني بي بينما أنا في باريس. أجلس معه هنا أحيانًا؛ هو طويل، وله وجه صارم جدًّا. يعطيني نقودًا كي أعيش هنا، وعمي في وارسو يعطي نقودًا لأقاربه هناك."

"لستِ لاجئة؟"

"لا."

"هل ستعودين؟"

"لا أعرف بعد. وأنت؟"

"لا أعرف بعد."

كانا يجلسان على جانبين متقابلين من الطاولة، هي على المقعد الذي تغطيه الوسائد، هو على الكرسي وظهره في اتجاه الباب. مالت على الطاولة، تفحَّصته، وقالت: "ماذا يحدث لعينك؟"

قال: "من الأفضل أن يكون لكِ واحدة فقط. تساعد على التركيز، مثل نظارة مُكبِّرة. وهذا أفضل لرؤية الفتيات البولنديات الجميلات."

أشرق وجهها. "تعتقد أنني جميلة؟"

كانت مسرورة مثل طفلة. قال: "أعتقد أنكِ رائعة."

تجهَّمَت ماريا. "لم تتصرَّف طبقًا لهذا! تمشي برأسك مرفوعة هكذا، ولا ترى أحدًا في الشارع!"

شعرت بالحنق من ضحكه الهادر. "كم عمركِ؟" قال سميان.

"أنا في الرابعة والعشرين. لماذا؟"

"من نواحٍ عديدة، تُذكِّرينني بطفلة."

"جيد أن تكون طفلًا." فكَّر سميان أنه سمع مقدارًا ضئيلًا من التحدي في صوتها.

أراد أن يرى عينيها. "لمَ تخبِّئين عينيك وراء نظارات داكنة؟"

هزت كتفيها، وهي تنظر إلى الباب خلفه. "يتعيَّن عليَّ ذلك. عينان ضعيفتان. أصير عمياء."

قالت هذا ببساطة شديدة، وعلى نحو عَرَضِيّ تمامًا، لدرجة أن سميان لم يكن متأكدًا أنه سمع ما قالته على نحو صحيح.

"عمياء؟"

نظرت إليه مرة أخرى، وقد تضايَقَت على نحو مبهم. كان من الواضح أن ذلك شيء لم تود أن تفكر فيه. "إنها قصة طويلة. على أي حال، الأمر غير مؤكَّد. لم يستطع الأطباء في بولندا أن يفعلوا شيئًا، لكنهم قالوا ربما يستطيع الأخصائيون في فرنسا أن ينقذوا عينيَّ. أتناول علاجًا. بعد بضعة شهور سأجري عملية. ربما يمكن إنقاذهما. لا أحد يعرف."

تأثَّر. رأت وجهه، وضحكت. "لا تتصرف كأنها جنازة بالفعل. الأمر غير مؤكَّد. إضافة إلى أن ما يهم هو الحاضر. أريد أن أعيش في الحاضر. تفهمني؟ أريد أن أعيش."

"ماذا تقصدين بـ أعيش؟"

"أستمتع بنفسي. لا أقلق بخصوص الأمور. أفعل كل الأشياء التي أريد دائمًا أن أفعلها - أضحك، أغني، أرقص، أرى الأضواء البراقة. التفاهات، أريد تفاهات الحياة لمرة، هل تفهمني؟ ربما يبدو هذا سيئًا. لكنه ليس سيئًا."

رشفت القودكا، وفكَّرت للحظة، وقطَّبت. "أقول لك شيئًا. الناس من أمثالي، صغار السن في بولندا، لم نحصل على الكثير من التفاهات. أولًا الحرب، ولا أستطيع أن أصف لك تلك الحرب، حرب رهيبة، حرب همجية. حرب إبادة، هل تفهم؟ أبي وأمي موتى، أصدقاء موتى، كل شيء حطام. وبعد الحرب من الضروري بناء كل شيء من لا شيء. نحن فقراء، كل شيء بارد ورمادي. تقول الحكومة: 'علينا أن نضحي الآن، نبني من أجل المستقبل.' لا أنتقد الحكومة، لا أصنع سياسة، هل تفهم؟ لكن نحن، صغار السن، تعبنا من التضحية. هو ضعف، ربما. لكن الصغار يتعبون، يريدون أن يلهوا قليلًا، يريدون أن يحصلوا على طفولتهم. لا يمكن أن تكون الحياة رمادية دائمًا، لا بُدَّ أن يحصل المرء على ألوان من وقت إلى آخر."

توقَّفَت، والتقطت أنفاسها: "الأطباء إذًا يقولون لي: 'سوف تصبحين عمياء، أنتِ عمياء ربما خلال عامين، أو ثلاثة.' أقول: 'طيب، تمام، أكون عمياء، لكنني أولًا أرى. أولًا، أرى ألوانًا في الحياة، شيئًا ما خلاف الرمادي.' لهذا آتي إلى باريس. أريد أن ألهو مثل طفلة، ألعب مثل طفلة لفترة. أن أصير ممثِّلة ربما؛ لهذا أذهب إلى مدرسة الدراما. أزور بلادًا أخرى. أرى ألوانًا ساطعة، أرقص، أغني، أضحك. ألعب حتى على آلة البينبول، هل ترى؟ لم تكن لدينا تفاهات مثل آلة البينبول حين كنت طفلة."

رأى سميان للمرة الأولى، وهو ينظر إليها الآن، شيئًا أكثر من دمية جميلة، فارغة الرأس. صدمه التناقُض الاستثنائي بين كيف بدت ظاهريًا

وما شعرت به وعاشته. دور الطفلة ذاك كان قناعًا؛ ثمة كوابيس داخل رأسها. فكّر في كوابيسه السابقة هو أيضًا، في بورتريه الوجه في غرفته. لسنوات كان ذلك الوجه في مركز أحلامه جميعها. أحيانًا طفا الوجه ببساطة في الهواء. أحيانًا جثم فوق أجساد أناس كان سميان يعرفهم: جيران، مدرِّسون، وأحيانًا إخوانه وأبوه حتى. بينما يمشي في حقل حلم ذات نهار لطيف، كان يرى الوجه يظهر فجأة من وراء حجر، أو يلوح عبر فروع شجرة. أحيانًا كان يظهر محترقًا في السماء، شمسًا مرعبة.

قالت ماريا: "أنت أمريكي، لا؟"

"بلى."

"الكثير من الأضواء الساطعة هناك، بعيدًا عن اللون الرمادي. الكثير من الراحة، الكثير من البيوت الكبيرة والسيارات الكبيرة، نعم؟"

"نعم."

"لماذا غادرت إذًا؟"

"كي أفِرَّ من اللون الرمادي."

"أنت تمزح."

"لا."

(II)

1

حين كان سميان صبيًّا في فيلادلفيا، في الشارع العاشر بالقرب من شارع ساوث، حيث كان الأطفال يصيحون وهم يجرون مرتدين سراويل كبيرة عليهم، والزبالة تتعفن في الشارع، كانت "المطاردة" هي اللعبة التي أثارته أكثر من أي شيء آخر.

المطاردة: لعبة، رياضة، تسلية لأمسيات الصيف الخانقة حين تميل الشمس، حمراء، فوق الأسطح، ويلوح الملل مهدِّدًا مع اقتراب الليل. كانت كرة، وهي مفتاح للعبة، تُلقى بكسل مرارًا في الشارع بين الصبية المتعرِّقين. وقد جلس الكبار على الدرج الرخامي المغسول، يتبادلون النميمة ويهشون الناموس والذباب. مرَّت عربات الترام البالية بضجيجها. زعقت الراديوهات بنتائج البيسبول؛ ببرنامج چاك بيني؛ بذا مارش أوف تايم؛ بموسيقى چاز؛ أو بجوقة إنجيل إلدير چونسون في أيام الأحد. على الأرصفة، وقفت الفتيات، بفتور، يراقبن الفتية.

جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا، مضت الكرة، بينما يُشعل الهواء الخانق ما هو أكثر من البَشرة. تحدَّث الكبار عن المشكلة العِرقية، عن قومنا وقومهم. ذكرى خافتة، حية ما تزال، للأغلال الأخرى، الفعلية. تحرَّكَت الفتيات، وهنَّ يراقبن الفتية. تبادلن نظرات، وكلمات، وابتسامات قلقة. رأى الفتية الابتسامات والتململ. همست الفتيات، قهقهن؛ رأوهنَّ الفتية يهمسن، سمعوهنَّ يقهقهن؛ ثم فجأة يبدأ الأمر: التكثف التدريجي للتوتر، العرق المرتعش على الأيدي، دقات القلوب المتسارعة، انسداد الحلوق الساخن. لم يكن أحدٌ يقول شيئًا. في الظاهر، لا يتغير شيء. لكن الكهرباء كانت هناك في هواء الصيف الرطب، وكلهم عرفوا أن المطاردة على وشك أن تبدأ.

سيبدو أن الكرة الملقاة تطفو في الهواء. ستندفع فتاة من الرصيف إلى الشارع، تقفز بيد مشرعة في الهواء، وتلقف الكرة في مسارها. ضاحكة، تقف حينها بين مجموعتي الأولاد، وهي تحمل الكرة في يدها، وتمد اليد نحوهم، وتغيظهم. "تعالوا خذوها، تعالوا خذوها." في تلك الأثناء، تكون الفتيات الأخريات قد عَدَوْنَ إلى نهاية الشارع، وراء الأولاد بكثير. يقول جريسل، أو چو، أو سنيكس: "طيب، طيب، سارا، أعطِنا الكرة." تضحك سارا. "تعال خذها مني، إن كنت كبيرًا بما يكفي!"

ينظر الأولاد إلى أحدهم الآخر، يهزون أكتافهم، يتبسمون، ويبدؤون في الإطباق على الفتاة. ترفع هي الكرة بإغراء على بُعد ذراع. يقتربون، ويقتربون أكثر، وحين يصيرون قريبين جدًّا، تعوي سارا مبتهجة، وتلقي الكرة بكل قوتها على امتداد الشارع، إلى الفتيات الأخريات. بعدها، تندفع سارا، وهي تضحك منتصرة، عبر صفوف الأولاد، وتجري كي تلحق بالأخريات.

"إن كنتم تريدون الكرة، تعالوا خذوها!" تهتف الفتيات.

ينظر الأولاد إلى أحدهم الآخر. "لننل منهن،" يقول أحدهم.

بدون استعجال، وبخَطوٍ مُتمهِّل، يتواثب الأولاد عبر الشارع في اتجاه الفتيات. صارخات من المتعة والخوف، تطلق الفتيات سيقانهن للريح، ويجرين إلى الناصية، ويدخلن في شارع ساوث. لقد بدأت المطاردة.

إلى أي مدى ركضوا؟ لأميال كما بدا دائمًا لسميان. حول نواصٍ، عبر ميادين، خلال أزقَّة، على امتداد شوارع كبيرة وصغيرة. إلى أسفل سلالم محطات مترو الأنفاق، وإلى أعلى للغسق مرة أخرى. ركضوا حتى لا يعود بمقدورهم التنفُّس، حتى تألمت عضلاتهم، والتصقت القمصان التي برَّدها العرق بأجسادهم؛ وواصلوا الجري، حتى تأوَّهَت سيقانهم، وخفَّت رؤوسهم، ركضوا إلى أن يأتي "الانتعاش"، إلى أن يلتقطوا أنفاسهم ويكون بمقدورهم التنفُّس مرة أخرى. كان البيض يلتفتون، يحملقون فيهم، ويهزون رؤوسهم. أطلق سائقو السيارات المسبَّات، وهم يستخدمون فرامل صاخبة. نظر رجال الشرطة شذرًا، مرتابين: نيجرز يركضون ... لا بُدَّ أنهم سرقوا شيئًا.

من وقت إلى آخر، كانت الفتيات، حين لا يعود بمقدورهن احتمال المزيد من الركض؛ يُبطِئن حركتهن ويمشين. وكذلك فعل الأولاد. هدفهم، الآن، لم يَعُد اللحاق بالفتيات، بل الاحتفاظ بهنَّ في مدى الرؤية، الاحتفاظ بالمسافة بينهم ثابتة. قهقهت الفتيات، وتهامسن مرة أخرى في تواطؤ مستثار، وهنَّ يلقين بنظراتهن في قلق وراءهن كي يتأكَّدن أن الأولاد لا يقتربون خلسةً. ولد إلى ولد: "رييتي هذه لها ساقان رائعتان!" ولد إلى ولد: "انظر إلى مؤخِّرة سارا الكبيرة اللطيفة التي تتماوج مثل الچيلي!"

هكذا اجتازوا المدينة، الأحياء الزنجية والأحياء البيضاء، مرُّوا بإيطاليين، وبولنديين، وإيرلنديين، ويهود، وأنجلو ساكسونيين. ركضوا

على مدى أعراق، وجنسيات، وطبقات. انساب العَرق من أجسادهم الغضَّة. قمصان قديمة متَّسخة تتدلى من بناطيل قديمة مُتَّسِخة. عيونهم لمعت، بطونهم كانت أفرانًا.

في النهاية، كانوا يَبلغون مشارف المدينة، الأرض الخراب التي لا نهاية لها؛ ساحات خالية يغطيها عشب ملتوٍ وتملؤها الأحجار، والعلب، والزجاجات، والأوراق، ونفايات أخرى. هنا، على الحافة، تردَّدَت الفتيات، دائخاتٍ ومرعوباتٍ؛ راغبات في الصياح طلبًا للعون، في أن يَكُنَّ آمِنات في البيت، في أحضان الأمهات. أَجَلْن عيونًا ضربها الرعب على الأولاد المقتربين، الذين ناقضت ابتساماتهم المتجمدة سيقانهم المرتعشة، ودق قلوبهم الذي لا يمكن تحمله. تقدَّم الأولاد بلا هوادة.

مُنعطفات، في حلم، اندفعت الفتيات إلى العشب، راكضات وصارخات، كأنما من أجل الحياة العزيزة الآن، يقعن، ينهضن، يركضن مرة أخرى. كذلك ركض الأولاد، الثيران المتثاقلة ... لم يعودوا يتحدثون ويمزحون، لم يعودوا يحاولون مجرد إبقاء الفتيات في مدى الرؤية، بل صاروا يركضون بجدية، يركضون كي ينصبوا فخًا، ويقبضوا، ويأخذوا. في الغسق سريع التلاشي، سرعان ما ضاقت المسافة بين الجانبين. صرخت الفتيات بكل قوتهن طلبًا للعون، لكن لم يكن هناك أحد ليسمع؛ تدحرجت صرخاتهن على امتداد الأرض الخراب وساحاتها، وعاليًا إلى السماء التي يزداد ظلامها. وثب أبرز الأولاد وأعاق أقرب الفتيات، موقعًا إيَّاها بخشونة على الأرض. واحدة بعد أخرى، شعرت كل فتاة بأيدٍ جائعة تمسك بها، وتقبض عليها، وتُلقيها على العشب. لم يكن هناك من الفتيات ما يكفي كل الأولاد. لا يهم: يمكن لولدين أن يأخذا فتاة واحدة.

ما تبع ذلك دائمًا، وإن لم يكن اغتصابًا على وجه الدقة، بدا دائمًا كاغتصابٍ بالنسبة لسميان. لقد ركلت الفتيات، وخدشن، وسدَّدن اللكمات، وعضضن. أحكم الأولاد الإمساك بهن، رفع الأولاد ثيابهن بالقوة، ودفعوا سراويلهن إلى أسفل. منهكات، ومغلوبات، أُخِذت الفتيات واحدة بعد أخرى. هبوط الليل، وأصوات غريبة في صمت العشب المتشابك. العَرَق يمتزج بالعرق. وأخيرًا ينتهي الأمر. رقدوا جميعًا، أولاد وبنات، على ظهورهم بين العلب والأحجار، يدخِّنون السجائر ويحدِّقون بذهول في السماء التي تملؤها النجوم. كم دام استلقاؤهم هناك، صامتين وأحياء؟ لنصف ساعة، ساعة ربما. ثم ببطء كانت الفتيات ينهضن، ينفضن تنانيرهن، ينظرن إلى إحداهما الأخرى بخجل، ويَسِرن مبتعدات في مجموعة واحدة من أجل الرحلة الطويلة إلى البيت. بعدها بقليل، ينهض الأولاد ويتبعونهنَّ.

2

طفل بعينين متسائلتين، يتكئ على نافذة غرفة النوم، ناظرًا إلى سماء الليل، ويتساءل: أين ينتهي الفضاء؟ لا ينتهي أبدًا. لكن هذا مستحيل! متى بدأ الزمن؟ لم يبدأ قَطُّ، ولن ينتهي أبدًا. لكن ذلك مستحيل! من أين أتى الناس؟ لماذا؟

كانت الحساسية لعنةً وسَمَت عالم طفولة سميان، الذي كان عالمًا عنيفًا.

الأسرة الكبيرة محشورة في بيت من خمس غرف. الجد، الجدة، بابا، ماما، عمَّات، أعمام، وخمسة أخوة وأخوات. عائلة من الشَّغِّيلة، وخدم المنازل. كان يوجد القليل من الهواء في ذلك البيت، والقليل من العواطف. القَدَر كان مُحصِّل الإيجار، مُحصِّل التأمينات، الخباز، اللَّبَّان، فني الثلاجات، بائع الأثاث، البقال. كان سميان صبيَّ التوصيلات عند

بقَّال ومساعِدَه العام بعد المدرسة، مقابل ثلاثة دولارات وخمسين سنتًا كل أسبوع. كان الأمر ممتعًا إن حوَّلته إلى لعبة: التوصيلات مهام سرية، والعلب الصفيح جنود صفَّهم في تشكيلة قتالية فوق الأرفف. في أيام السبت، أحبَّ أن يتفقد الكتب في المكتبة العامة، أو حتى أن يستمع أحيانًا إلى الاسطوانات في غرفة الموسيقى في مكتبة ميدان لوجان.

نام الأطفال الستة على سريرين في غرفة واحدة. كانوا بنتين وأربعة أولاد؛ لهذا وُضِع سميان، وهو أصغرهم، في السرير مع البنتين. أحيانًا أثناء الليل، استكشفت يداه العصبيتان جسد أخته الكُبرى. لم تتحرك قطُّ، لكنه ظنَّ دائمًا أنها كانت فقط تتظاهر بالنوم. نام كل طفل في ملابسه الداخلية، واستيقظوا مرتين أو ثلاثًا كل ليلة لنفض البق عن الملاءات.

في صباحات الشتاء، استيقظ الأولاد مبكرًا كي ينظفوا، ويشعلوا موقد المطبخ، ولتقوية النار في سخان القبو. كانوا يغلون ماءً بالملح على موقد المطبخ، ويضيفون رقائق الشوفان ليصنعوا إفطارهم قبل الذهاب إلى المدرسة. الشتاء كان وقتَ المخاطر. كانت غرف نومهم تُدفَّأ بمواقد كيروسين متهالكة على أرجل واهية؛ كانت المواقد تتوهَّج حمراء أثناء الليل؛ أربع مرات في طفولة سميان سقطت المواقد، أربع مرات فَحَّ الكيروسين الملتهب على امتداد الأرضية وأمسك بالأثاث والحائط. كانت معجزةً أن أحدًا منهم لم يُصب إصابة خطيرة. والفئران سكنت القبو، فئران عملاقة كانت تدخل من مواسير المجاري المكسورة. أحيانًا غزت المنزل نفسه، وكانت مصائد الفئران وسمومها في كل مكان. حين كانوا صغارًا جدًّا، اندفع فأر إلى السرير وعض يد أصغر أخوات سميان. كان غريبًا أنها لم تستيقظ.

العنف كان في الشوارع وفي المدارس. شجارات فردية، حروب عصابات، حروب عرقية. عنف لا يمكن تفسيره، عنف بلا هدف. أمام كل هذا، اهتز سميان.

"هيا! هيا! ارفع قبضتك!"

"مرحبًا، سميان، ارتَدِ بدلة وقابل الفتية جميعهم على الناصية الليلة، ستكون هناك حفلة رقص."

لم يَودَّ أن يذهب. كانت هناك دائمًا مشاكل في حفلات الرقص. بالطبع لم يكن في مقدوره أن يدع الآخرين يظنُّون أنه خائف؛ اضطرَّ أن يذهب.

لكنه سأل، محاولًا أن يبدو عفويًّا: "تعتقد أن النورثسايدرز سيحاولون اقتحام الحفل؟"

"مَن يهتم؟ ما الأمر، أنت خائف؟"

"مَن، أنا؟ خائف؟ اللعنة، لا!"

"سنوسِع مؤخراتهم ضربًا إن أتوا."

وبالطبع أتوا. حدثت أعمال شغب، سُحِبت سكاكين وأُصيب البعض، وقُتِلوا حتى في هرج شتائم وصرخات مجنونة. أُوقع سميان على ظهره بكرسي، وداسته أقدام الفارِّين حينما وصلت عربات الشرطة. لم يعرف كيف تمكَّن من بلوغ البيت.

نظَّفت عمته جُرح رأسه. رقد في الغرفة المظلمة غير قادر على النوم، وفي وقت متأخر من الليل قام من الفِراش وذهب كي يقف عند النافذة. كانت ثمة سكينة هناك في الأعالي، في تلك السماء التي تملؤها النجوم. ما أراده كان أن ينال تلك السكينة. لكن ذلك كان مستحيلًا. فالعالم كان هناك، وكان عنيفًا وقاسيًا. الزنابير تقتل العناكب،

والعناكب تقتل الذباب. ذلك كان القانون. لقد جعل العالم الحساسيةَ لَعنةً؛ وكان على المرء أن يعيش في نطاق القانون.

صلَّى للسماء بصوت خافت: "اجعليني قويًّا، اجعليني رجلًا. اجعليني محترمًا من الآخرين، اجعليني شجاعًا وخشنًا. لا أريد أن أكون رقيقًا؛ أريد أن أكون قويًّا. سأقدِّم أضحية، خذي أضحية مقابل ذلك. سأعطي أي شيء، سأضحي بأي شيء، كي أكون قويًّا ومحترمًا، كي أكون رجلًا."

في اليوم التالي، قالت جدته: "اذهب إلى المتجر الإيطالي في شارع رييد، واشترِ لنا صلصة سباجيتي."

شعر سميان بالرعب. كان البولنديون والإيطاليون يعيشون في تلك المنطقة، وكانوا في حرب مع الزنوج.

"سميان، ماذا تنتظر؟ هل تسمعني؟"

شعر بالخزي. "إنهم البولنديون، يا جدتي. إنهم في حرب مع الأولاد الملوَّنين."

"لستَ خائفًا من أولاد بيض، أليس كذلك؟"

"لا."

"لا يمكن لحفيد لي أن يخاف ولدًا أبيض. اذهب كي تشتري تلك الصلصة."

شقَّ طريقه نحو شارع رييد بأبطأ ما يمكن. توقَّف عند كل واجهة متجر، ركل كل حجر رآه. لكنه عرف أنه كان ببساطة يؤجِّل وصوله: عرف أنه خائف، وشعر بالغضب الشديد من نفسه. "لا يمكن لحفيدٍ لي أن يخاف ..." أي أضحية يمكنه أن يقدِّمها كي يكتسب الخشونة؟ "سأعطي ... - إصبع قدم،" اقترح بتردُّد، وهو يرفع نظره إلى السماء.

لم تُعطِ السماء أي إشارة بقبولها الصفقة، وداخَله شكٌّ في أن إصبع قدم ستكون كافية. إضافة إلى أن ذلك سيؤلم، بتر إصبع قدم. تجهَّم.

كان في شارع ريد الآن، وأمامه، على ناصية، رأى مجموعة من الأولاد، معظمهم بولنديون. كان معهم صبي طويل اسمه كريس؛ قائد العصابة، وأكثر الفتية خشونة في منطقتهم. كانت لديه شهرة راسخة بكراهية الزنوج. ابتلع سميان ريقه بصعوبة. أراد أن يعبر إلى الناحية الأخرى من الشارع، لكن شيئًا ما داخله، جوهر عميق من كبرياء، جعله يبقى على الرصيف. بدا أن الجمع لم يلاحظه، واستمرَّ سميان بحذر على طريقه، ماشيًا بالقرب من حافة الرصيف على قدر المستطاع.

"اسمع، يا نيجر!"

أراد أن يجري لكن عضلاته تجمَّدت.

"تعال هنا، يا نيجر."

شعر أن شخصًا شجاعًا عليه أن يقول شيئًا مُتحدِّيًا، يعيد إلقاء كلمة نيجر في وجوههم. لكن لسانه كان مشلولًا.

تشوَّه إحساسه بالزمن: كل شيء كان في حركة بطيئة. وقف الأولاد من حوله، ورآهم على نحوٍ ضبابي، القائد، كريس، واقف أمام سميان، يتفحَّصه بابتسامة واهية باردة. تلاعب كريس بمطواة مُسنَّنة. كل شيء كان ضبابيًا، وفجأة اكتسب وجه كريس وضوحًا مرعبًا. كان له وجه بارد، على نحو غير إنساني، بعينين ساديَّتين، بليدتين، وفم نحيل، وفكٍّ مُطبَق بإحكام، وبشرة لها شحوب الموت. كان وجه كريس خاليًا تمامًا من المشاعر؛ لقد نمَّ عن روح من حجر. أدرك كريس فجأة أن سميان يحملق في وجهه، واحمرَّت بشرته شاحبة البياض.

"إلى أي شيء تنظر، يا نيجر؟"

لم يقل سميان شيئًا.

"هـذا النيجـر لا يحـب الـكلام. أمسِـكوا بـه." قيَّـد الصبيـة سـميان، وثنـوا ذراعيـه وراءه.

قـال كريـس: "هـذا النيجـر لا يعجبـه وجهـي. قـل لي إنـه وجـه جميـل، يـا نيجـر. قـل لي إنـه وجـه أجمـل مـن وجـه أمـك."

اسـتمرَّ سـميان في التحديـق، وقـد نوَّمتـه عينـا معذِّبـه الزرقـاوان البليدتـان. لتلـك اللحظـة، كان رعبـه مـن الخطـر أقـل مـن رعبـه مـن بـرودة العينـين، والفـك الحديـدي. مـن لديـه هـذا الوجه لا يشـعر بمشـاعر إنسـانية، لا تعاطُـف، لا سـخاء، لا دهشـة، لا حـب! كان الوجـه وجـه كراهيـة: كراهيـة وإنـكار - لـكل شيء، للحيـاة ذاتهـا. ذلـك كان الوجـه الرهيـب للرجـل الضِّـدِّ، للتنافُـر، لغيـاب التناغـم مـع الكـون. أي أهـوال مرعبـة تمكَّنَـت مـن تحويـل وجـه بـشري إلى ذلـك؟

وضـع كريـس شـفرة السـكين عـلى عنـق سـميان، وقـال بغضـب مفاجـئ: "رُدَّ عـليَّ، يـا نيجـر، أو سـأعميك!"

اجتاحـه الرعـب. كاد أن يفقـد الوعـي. أجـبر نفسـه عـلى فتـح فمـه، أجـبر نفسـه عـلى قـول: "نعـم."

اشـتعلت العينـان الراكدتـان في عينيـه. "نعـم مـاذا؟" ومـض كل شيء آخـر، لم يكـن واضحًـا؛ فقـط ذلـك الوجـه كان موجـودًا في الكـون، يـبرق بمتعـة التدمـير.

"نعم، هو وجه جميل."

"أجمل من وجه مامتك!"

"نعم."

"قُلها!"

"أجمل من وجه أمي."

"وجه ماما، يا نيجر!"

"أجمل ... من وجه ماما."

"أجمل من وجه مامتك العفنة، الخائبة، مصاصة القضيب. قُلها!"

التمع وجهه. صار أكثر بريقًا، نجمة شيطانية، تشتعل بالكراهية والشر. أغلق سميان عينيه ضدهما. خارت ساقاه، لكن رفعه الفتية. ترنَّح العالم.

"قلها!"

فتح فمه، لكن لم تخرج كلمات. كان بالكاد يستطيع أن يتنفس. فتح عينيه ونظر متوسلًا في الوجه الحجري.

"قلها، يا نيجر، أُخبرك مرَّةً أخرى."

أغلق سميان عينيه ثانية، وسقط في خدرٍ من نوع ما. أيها الرب العزيز، أيها الرب العزيز، أيها الرب العزيز، هتف داخله. لكن الصلاة قاطعتها ومضة صارخة للون ساطع، تبعها على الفور ألم ملتهب. لم يكن بمقدوره أن يسمع نفسه يصرخ. "يا يسوع، لقد أعميته!" هتف صبي. صرخ سميان بعلو صوته، وهو يسقط على الرصيف، والظلام يحيق به، ويداه تتشبَّثان بالمكان الذي كانت لديه فيه عين.

3

عصابة سوداء. "مؤقَّتًا فقط،" قال الطبيب لأمه. "يمكنكِ لاحقًا شراء عين زجاجية لتوضع في المحجر."

لكن سميان لم يُرِد العين الزجاجية قَطُّ.

بعد الخروج من المستشفى، وهو يمشي في الشارع العاشر: "يا للعجب! انظروا إلى سميان!"

"هلا! تبدو مثل شخص في فيلم، يا سميان!"

"تبدو مثل قائد حرب!"

"تبدو مثل قرصان!"

قائد حرب؟ قرصان؟ حدَّق سميان في نفسه في المرآة راضيًا.

انبهرت الفتيات. "سميان، تبدو ... خشنًا. تبدو ... غامضًا، رومانسيًّا."

خشن؟ غامض؟ رومانسي؟ واجه سميان المرآة، وصرخ بالأوامر لتابعين غير مرئيِّين: "أيها النقيب، اجعل رجالك يتمركزون فوق ذلك التل. أنت، أيها العقيد، احمِ المؤخِّرة. سأقود أنا الهجوم الرئيسي." بثَّ الشجاعة في قوات متعثِّرة: "إلى الأمام! لِنُرِهم كيف يكون الموت مثل الرجال!" أخذه عقله إلى بلاد بعيدة، حيث دخل قاعات رقص ومطاعم غريبة. كان الجميع في رهبة من رجل الغموض!

"هذه العين،" أخبر سميان فتيةَ الحي، "هي هبة للآلهة. أعطيتهم العين؛ أعطوني أشياء أخرى."

نظر إليه الفتية نظرة تَشكُّك. "من قبيل؟"

"القوة، الشجاعة، الإقدام -"

"ها!"

كان أحد الأولاد يلهو بمطواة. للحظة مُرعِبَة رأى سميان وجه كريس أمامه. قال: "أقرِضني المطواة."

بينما يحمل المطواة مثل خنجر في يده اليمنى، رفع سميان راحة يسراه. راقب الجميع في ذهول وهو يرفع المطواة عاليًا فوق الراحة المفتوحة. "ماذا ستفعل بحق الجحيم؟" تنفَّس بعمق، فكَّر في كريس

وأنـزل المطـواة بقـوة في راحتـه. شـهق الأولاد؛ صرخـت الفتيـات. ارتعشـت المطـواة في راحـة اليـد. لم يجفـل. للحظـة، تـرك الجمـع يحـدِّق في المطـواة المنتصبـة، ثـم انتزعهـا بقسـوة مـن يـده.

"يا للعجب!" همس صبي بإعجاب.

أسرعـت الفتيـات نحـوه. "سـميان، أنـت مجنـون!" تـرك نفسـه يؤخـذ بعيـدًا، سـمح ليـده، المغطَّـاة الآن بالدمـاء، بـأن تُغسـل، بـأن تُـرشَّ باليـود، وتُضمَّـد. "يـا للعجـب! يـا للعجـب!" ردَّد الصبـي.

ابتسم سميان. لقد كان رجلًا.

(III)

1

ذهب سميان، ذات يوم، إلى مكتبة بيب لكتب اللغة الإنجليزية، وهي متجر صغير في شارع مسيو لو برنس. كانت النافذة مزيَّنة بشكل جيد، والمتجر يضم أحدث الكتب الأمريكية والإنجليزية، إضافة إلى هنري ميلر والكتب الأخرى التي كانت ما تزال ممنوعةً في الولايات المتحدة. دلَّت امرأة فرنسية شابة، تقف وراء الكاونتر، سميان على الدَّرَج المؤدي إلى شقة بيب في الطابق الثاني. ملأ جسد بيب الضخم المدخل بأكمله. "ادخُل، يا رجل، كنا على وشك فتح زجاجة vin rouge."

قدَّم سميان إلى خمسة زنوج آخرين في غرفة المعيشة الكبيرة، المريحة: مُغنِّيَتَيْ چاز، جيرتي وماتيلدا، وثلاثة رجال، داج، وهارولد، وبينسون. "هارولد هو أحد أفضل المؤلِّفين الكلاسيكيين الموجودين،" قال بيب، "وبينسون روائي."

"**كنت** روائيًا،" قال بينسون. بدا في نحو الخامسة والأربعين، رجل وسيم، بسوالف في طريقها إلى المشيب، وتعبير ساخر في عينيه البنيتين، الفاتحتين.

"چيمس بينسون؟" قال سميان. "لقد قرأت بعض كتبك. قوية جدًّا. وبها الكثير من المرارة."

كان ثمة شيء حزين في عيني بينسون، وجهه وحركاته أعطت انطباعًا بفتور الهِمَّة. شرب بعضًا من النبيذ الأحمر. "لن يكون هناك المزيد من الكتب. ليس لديَّ المزيد كي أقوله لهؤلاء الناس. قلتُ كل ما لديَّ. أنا صحفي الآن. أكتب خراءً من باريس للبلاك ديسباتش. قلت لبيب أن يتوقَّف عن هراء الروائي ذلك."

"متى كتبت آخر كتبك؟"

"منذ عشرة أعوام. ليس لديَّ المزيد كي أقوله لهؤلاء الناس."

تبسَّم بيب، وهو يناول سميان كأس نبيذ. "انظُر إلى تلك الشخصية هنالك ... تلك الشخصية الكئيبة، الشبيهة بالفأر، في الركن؟ إنه أحد رجال الحكومة!"

كان داج، وهو أصغر قليلًا من سميان، يشبه فأرًا بالفعل. كان وجهه العَظميُّ بارزًا إلى الأمام، وله عينان هائلتان، ساخطتان، وأذنان ضخمتان.

رمى بيب بنظرة متوجِّعة، وحانقة. "أخبرك دائمًا، لا ينبغي أن تقول أشياءَ كهذه للناس. ربما يأخذونك على محمل الجد." تحدَّث بنبر جنوبي ثقيل.

"إنني جاد بالفعل. هل تعمل لدى الحكومة أم لا؟"

"أنا كاتب بسيط في السفارة. ذلك ليس الأمر نفسه؟"

"مَن يدفع لك؟"

قطّب داج، ونظر إلى الأرض. "تعرف مَن يدفع لي." ابتسم سميان. كان داج رجلًا بسيطًا تمامًا.

"بالضبط. أنت إذًا من رجال الحكومة. أنت عميل حكومي."

ضحك بينسون ضحكة ماكرة، وهو ينظر إلى وجه داج المحني. غمزت جيرتي، التي كانت تقارب بيب في الضخامة، وقالت مُلطِّفةً الجو: "هذا على ما يرام، يا داج، لا تدعهم يحبطونك، هل تسمع؟ دافع عن حقوقك؛ أنا في صفِّك".

شرب سميان من الكأس. كان لطيفًا أن يكون في هذه الشقة مع زنوج أمريكيين آخرين. سيبحث بعد فترة عن مكان، وينتقل من غرفة الفندق. لديه ما يكفي من الوقت. وقف في النافذة، ورأى في الشارع بالأسفل إفريقيًّا يسير على مهلٍ، وذراعه حول فتاة. أتى بينسون ووقف بجواره.

"يخبرني بيب أنك أيضًا صحفي."

"أكتب أشياءَ غبية لمجلة غبية."

"سنكتب خراءً سويًّا إذًا."

"الكتب التي كتبتها لم تكن خراءً."

"ذلك حين كنت صغير السن وساخطًا. لا بُدَّ أن تؤمن بشيء ما كي تكون ساخطًا."

"توقَّفت عن كتابة الكتب حين غادرت الولايات؟"

"هذا صحيح."

"إن كنت قد بقيت هناك، هل تعتقد أنك كنت ستواصل الكتابة؟"

"ربما."

"وما زلت لا تريد العودة؟"

ضحك بينسون. "بيتهوفن العجوز. كان أصمَّ، كما تعرف. بعض الناس يقولون إنه ربما لم يكن ليؤلف كل تلك الموسيقى العظيمة إن لم يكن أصمَّ." أضاف بينسون، بعد لحظة صمت: "بالنسبة لي، أريد أن أحتفظ بقدرتي على السمع."

2

في يوم السبت التالي، مرَّ بيب على سميان في فندقه. كانا سيقابلان فتاتين سويديَّتَيْن للعشاء. اضطر بيب إلى أن يحني رأسه كي يعبر عتبة الباب؛ بدا أن قوامه، الشبيه بجبل، يملأ الغرفة. نظر بيب في رسومات سميان.

قال سميان: "أعجبني بينسون. قرأتُ إحدى رواياته حين كنت صغيرًا، كتاب رائع. من العار أنه توقَّف عن الكتابة."

"نعم. إنه لا يحب التحدث كثيرًا في الأمر. يقول إنه شعر فجأة بميل إلى الصمت. إنه قِطٌّ غريب، ناسك من نوع ما. يختفي في شقته مع الفتاة التي يتصادف أن يعيش معها. إنه يكره حقًّا كل الفتيات اللاتي يعيش معهن، حتى أثناء معيشته معهن؛ لأنهن بيضاوات. إنه رجل يشعر بالمرارة، ولم يعد يؤمن بالكثير، ولا بنفسه حتى. إنه واحد من فتيتنا، رغم ذلك."

لاحظ سميان أن بيب أحيانًا ما يُسقِط تمامًا نبر الحديث الزنجي. إنه "يرتدي" طريقة الحديث وقتما يريد. حدَّق بيب في اللوحة على الحامل: الوجه غير الإنساني الذي بدأ سميان في رسمه مرة أخرى. لاحت العينان الباردتان من اللوحة بقسوة هادئة.

"ما هذا؟"

"إنه الرجل الذي أخبرتك عنه. الرجل الذي كدت أن أقتله."

"لا يبدو حقيقيًا. يبدو أنه قُدَّ من صخر ... أو من شمع. مَن هو؟"

"هذه قصة طويلة، طويلة جدًا، يا بيب."

نظر بيب إلى سميان بعينين تُمثِّلان الخوف، وانفلت عائدًا إلى النبر الزنجي. "يا رجل، أنت واحد من هؤلاء الناس الانفعاليين! أنت منهم، حملة البنادق، رافعو السكاكين، رماة الزجاجات! لا بُدَّ أن أراقب خطواتي معك!"

استقلَّا سيارة أجرة إلى الشانزليزيه، حيث كانا سيقابلان الفتاتين السويديتين. مال بيب إلى الخلف مرتاحًا، وهو ينفخ غليونه، وقد ضاقت عيناه بينما يفكر. يحدث داخل هذا الرأس أكثر ممَّا قد يستنتج المرء من مزاحه اللطيف، فكَّر سميان. جلس على راحته بأقصى ما يستطيع فيما تركه له بيب من المقعد، وراقب الناس، ومقاهي السين، وأشجاره، وجسوره تنفلت. أدهشه أن يجد نفسه مسترخيًا، وهادئًا. أحيانًا يحلم في باريس أنه عاد إلى فيلادلفيا، ولا يستطيع الفرار. ببطء، بينما يعود الوعي، يتلاشى الرعب. نعم، الأمر على ما يرام؛ هو في باريس.

غير أن ردود الأفعال القديمة تموت بصعوبة. كان يشعر بعدم ارتياح غامض، باستعداد للشجار بينما يغادران التاكسي، ويسيران إلى المقهى حيث انتظرتهما الفتاتان. قبَّل بيب ماريكا على الخد؛ وصافح سميان إنجريد. كانا قد قابلا الفتاتين في اليوم السابق - جميلتان، فارغتا الرأس، لكنهما مَرِحَتان.

أكلوا في ليز إيل ، وهو مطعم مريح في شارع ماربوف، بالقرب من الشانزليزيه. دجاج مشوي على أسياخ. أشخاص يتحدثون بمرح. نُدُل مهذبون. تذكَّر سميان أنه حينما تذهب، ببشرة سوداء، إلى أحد

المطاعم الأنيقة في فيلادلفيا، يعترض النُّدُل طريقك ليقولوا: "آسفون، لا توجد طاولات."

بعد العشاء، أخذهما بيب إلى ملهى خاص في الضفة اليسرى. كان ملهى صغيرًا مضاءً، إضاءة معتمة، بشموع، حيث يمكن الرقص على اسطوانات لاتينية أمريكية، وچاز. وهم في طريقهم إلى الداخل، كانت فتاة فرنسية في ثوب ضيق تعاني مع التفافات رقصة التويست.

"لا يوجد شيء مثل هذا في ستوكهولم،" قالت إنجريد، وهي تقطِّب. "الرجال هناك مضجرون ... ولا يهتمُّون بالفتيات. إنها أكثر الأماكن إثارة للضجر في العالم."

"الرجال هناك شُقرٌ أكثر ممَّا ينبغي،" قالت ماريكا.

ضحك بيب. "أنتِ نفسكِ شقراء جدًّا."

"الأمر مختلف مع النساء."

ضغط جسد إنجريد مقتربًا من سميان بينما يرقصان على أنغام موسيقى بلوز بطيئة. كان لها وجه جميل، بارد، وغير شخصي؛ ورغم هذا، كان من الممتع الرقص مع امرأة مرة أخرى. تحدَّث سميان بأدب، وهزت هي رأسها وابتسمت - تجيد الاستماع.

عادا إلى الطاولة. أتى مدير الملهى، وتحدث مع بيب، الذي بدا أن الجميع في باريس يعرفونه. ثم فُتِح باب الملهى، ودخل أربعة رجال، كلهم أمريكيون. أزعج ضحكهم المخمور، الصاخب، وأصواتهم العالية، جوَّ السكينة في المكان. أجلسهم المدير إلى طاولة مجاورة لطاولة سميان، ونادى أحدهم بعجرفة على نادل: "شمبانيا. شمبانيا لي ولأصدقائي. معنا الكثير من المال، أحضِر الشمبانيا."

كانوا، بدون شك، رجال أعمال في إجازة، يفعلون "باريس أثناء الليل". شعر سميان أنه أقل أمريكية من أي وقت مضى. هل الزنوج

أُمَّة هكذا مختلفة داخل الأُمَّة التي هي أمريكا؟ لقد انكسر المزاج العام في الملهى بالنسبة لسميان؛ صار عقله مثبتًا على الرجال الأربعة القريبين منه، المنخرطين في ذلك الجهد الأمريكي البائس: محاولة أن يستمتعوا. شربوا، زعقوا، قالوا نكتًا غير مضحكة، ضحكوا الضحكات المتوترة الصادرة عن دافع عصبي قهري. ثم وقعت عيونهم على سميان، وبيب، والفتاتين السويديتين.

ابتسم الرجال الأربعة. "مرحبًا، أنتم من الولايات، أيها الولدان؟"

لم يكن هناك ردٌّ.

"ما الأمر؟ أنا فقط أُظهر بعض الود. من الجيد مقابلة أمريكيين آخرين هنا، هذا كل ما في الأمر. يسأم المرء هذه الضفادع اللعينة."

قال بيب: "يا رجل، لسنا ولدَيْن. أنا كبير بما يكفي أن أكون زوجَ أمِّكَ."

ضحك الرجل بعصبية. "من أين أنت في الولايات؟ أنا نفسي من يوتا، أنا وأصدقائي هؤلاء هنا في رحلة قصيرة، لكننا متلهِّفون على العودة. غير أني أراهن أنكما أيها الولدان يعجبكما المكان هنا. لم يكن الأمر قَطُّ طيبًا هكذا بالنسبة لكما، ها، كل هؤلاء الشقراوات وما إلى ذلك. ها ها ها."

ملأ صوته العالي الحجرة، وسكت رواد الملهى الآخرون. ثم قال سميان: "هذا صحيح، لم يكن الأمر من قبل طيبًا هكذا لأننا بعيدون عنكم."

"ماذا فعلت؟ لِمَ أنتم سريعو الغضب هكذا طوال الوقت؟"

قال أحد أصدقائه: "اترك الأمر، يا چيم. هيا، اشرب الشمبانيا. هؤلاء الأولاد أكبر في بناطيلهم القصيرة هنا حيث يتركهم الضفادع ينطلقون كيفما شاؤوا." أشار بإصبع إلى سميان. "لديَّ نصيحة واحدة

لك، يا ولد. لتبقَ هنا. لقد صرتم وقحين منذ أتيتم هنا، لكننا بكل تأكيد سنغيِّر ذلك إن عدتم إلى الديار!"

كان النادل والمدير يراقبان المشهد من بعيد، والآن، حينما نهض سميان وبيب عن طاولتهما، واتَّجها نحو الرجال الأربعة، تدخَّل المدير.

"أنا آسف،" قال للرجال البيض. "عليَّ أن أطلب منكم أن تغادروا." أصيبوا بالدهشة. قال أحدهم: "ما هذا؟ أنت مجنون أم ماذا؟ تطرد رجالًا بيضًا من أجل نيجرز؟"

قال المدير بإنجليزية لا تشوبها شائبة: "فضلًا غادروا، أو سأتصل بالشرطة. ثمة أشياء يتعيَّن عليكم تركها حين تأتون إلى فرنسا. على الأقل حين تأتون إلى ملهاي."

"كنا فقط نقول لهذين الولدين -"

أشار المدير إلى عِدَّة نُدُل؛ فتوجَّهوا إلى الأمريكيين. قال الرجل المدعو چيم: "طيب، طيب. هيا بنا، أيها الأصدقاء." نظر إلى المدير، وهزَّ رأسه. "لا بُدَّ أنك لست في تمام عقلك، أيها السيد." عند الباب، التفت أحد الرجال، وزعق في سميان وبيب: "تذكَّرا ما أخبرتكما به، يا ولدان. من الأفضل لكما البقاء هنا مع مُحِبِّي النيجرز هؤلاء؛ لأنه سيكون هناك الكثير من الدروس المؤلمة لتتعلموها مرة أخرى في الولايات."

أُغلِق الباب. نظر رواد الملهى إلى سميان وبيب مع ابتسامات ارتياح. هزَّ المدير رأسه. "آسف، بيب. مواطنوكَ ... ردود أفعالهم بغيضة أحيانًا."

ضحك بيب. "ألا أعرف ذلك! ما زال أمام هؤلاء الناس طريق طويل كي يقطعوه، والكثير كي يتعلموه."

"تناوَلْ مشروبًا،" قال المدير. ابتسم. "ماذا عن بعض الشمبانيا؟ شمبانياتهم."

قالت ماريكا: "ما لا أستطيع فهمه هو ما كان سبب كل هذا؟ ما الذي حدث؟"

"إنها قصة طويلة، يا بيبي،" قال بيب، "لا أعتقد أنهم قصدوا فعلًا أن يكونوا على هذا النحو. إنهم فقط يفتحون أفواههم، ولا يستطيعون تجنُّب وضع أقدامهم فيها."

كان الوقت متأخرًا حين غادروا الملهى. ضحك بيب وهم يسيرون في الشارع. "ربما لم يقصدوا ضررًا، هؤلاء البيض، لكن من المؤكد أنه شعور طيب أحيانًا أن يكون الحذاء في القدم الأخرى."

"نعم."

رأوا، على الناصية، شرطيًّا يضرب رجلًا بهراوة، ورغم أنه سقط على الرصيف، فقد واصل الشرطي النزول بعصاه الطويلة البيضاء على الرجل، الذي حاول بلا جدوى أن يحمي رأسه من الضربات بذراعيه. كان الرجل يصرخ بلغة لم يستطع سميان فهمها. راقب سميان الضرب إلى أن توقَّفَت عربة دورية، وألقى شرطيَّان بالرجل المضروب في الخلف، وابتعدا بالسيارة.

"ما كان ذلك؟" سأل سميان.

قال بيب: "ذلك الرجل كان غالبًا عربيًّا."

"عربي؟"

"نعم. ثمة حرب دائرة في الجزائر، ألا تتذكر؟"

"أوه. نعم."

3

"چو لويس، تعال هنا."

كانت أمسية ربيعية في فيلادلفيا. وكان سميان يتقدَّم في العالم حينئذ، التحق بجامعة ولاية بنسلڤانيا في منحة دراسية، ودرس الصحافة، وصار أوَّلَ مُراسِل زنجي في المدينة يعمل في جريدة "بيضاء". في ذلك المساء، كان قد زار أصدقاءً بيضًا، زملاء دراسة سابقين في الجامعة، في حي سكني لطيف. بعدها، ذهب إلى محطة الباص، حيث زوج عجوز كان ينتظر هناك بالفعل. مرَّت عربة دورية، توقَّفَت، ثم تراجعت، وألقت بنورها الفاحص عليه. مال رجل شرطة خارج النافذة، وأشار إليه.

لم يتحرك سميان؛ تظاهر أنه لم يرَ الشرطي. كان يعرف لماذا ينادونه: كان زنجيًّا "خارج مكانه" في حي أبيض. بدأ الحنق، الموجود دائمًا تحت السطح مباشرة، يتعالى داخله. عرف ما يمكن أن يتوقع.

"مرحبًا، چو لويس، تعال هنا."

لم يتحرك. رأى، بطرف عينه، أن هناك شرطيين في العربة. نظر الزوج الأبيض إليه بتوجُّس، كما لو كان مجرمًا خطيرًا تطارده الشرطة. لعن أحد رجُلَي الشرطة، وخرج من السيارة، وسار نحوه.

"ألم تسمعني أناديك؟"

"اسمي ليس چو لويس."

"أوه، أنت واحدٌ من السيئين! ماذا تفعل في هذا الحي في هذا الوقت من الليل، يا ولد؟"

"لست ولدًا. عمري في مثل عمرك."

"هل كنتَ تفعل أمرًا مؤذيًا؟ هل كنت تسرق شيئًا، يا ولد؟"

احتدم غضبه. "كنت أبحث عن أختك!"

شحب وجه الشرطي، انفجرت يمناه المفتوحة على وجنة سميان. لم يكن لدى سميان الوقت كي يفكر حتى: قفزت قبضته من جانبه، وهوت على ذقن الشرطي. سقط رجل الشرطة؛ لجزء من الثانية كانت هناك دهشة مذهولة، ثم: "أيها الأسود المتنـ -"، ومدَّ يده كي يتناول مسدسه. قفز رجل الشرطة الثاني من العربة. "لا، يا مايك، ليس هذا!" هتف. أشار بمسدسه هو إلى سميان مع ابتسامة. "طيب، يا چو لويس، ادخل السيارة."

انطلقا بالسيارة. جلس سميان في الخلف، بدون أن يقول شيئًا. صفَّر مايك. "لديك قبضة لطيفة، يا چو لويس. ما يعجبني هو، نيجر متحمِّس. ما رأيك في هذا، يا چيف؟" "نعم،" قال الشرطي الآخر، "نحب النيجرز المتحمِّسين".

أخذاه إلى قسم الشرطة. كان رجال الشرطة يجلسون في تراخٍ في كل مكان، على أطراف الطاولات أو على المقاعد، وبعضهم يلعب الورق. كانوا مسترخين، يدخنون، ويلقون نكات بذيئة، وقد خلعوا معاطفهم، وشمَّروا أكمام قمصانهم. دفع مايك سميان نحو مكتب الرقيب. "مقاومة القبض عليه، والتعدي على ضابط، أيها الرقيب." سجَّله الرقيب. قال مايك: "قبل أن تخزِّنه، نود أن نُجري حوارًا خاصًّا قصيرًا معه." "بالتأكيد،" قال الرقيب، ونهض. "سأخرج لشراء سجائر. وسأعود خلال ساعة أو نحو ذلك،" أعلن. نظر مايك إلى سميان وابتسم. "شخص رائع، هذا الرقيب. يفهم كل شيء."

قاد مايك وچيف سميان إلى حجرة خلفية. قال بعض رجال الشرطة المسترخين، ممَّن لم يكونوا يلعبون الورق: "ما الموضوع؟"

"هذا الرجل ملاكم،" قال چيف. " چو لويس. أوقع مايك في جولة واحدة."

صفَّر رجال الشرطة بهدوء، وجاؤوا كي يشاهدوا. ابتسم مايك، وهو يخلع سترته. "لديَّ فكٌّ من زجاج إن أخذتني على النحو الصحيح. چو لويس هذا أخذني على نحو صحيح، أليس كذلك، يا ولد؟" ضحك، وهو يهز رأسه. "طيب، يا چو لويس، اخلع ملابسك."

لم يتحرك سميان. لم يكن ليسهِّل الأمور عليهم. كان مرعوبًا؛ كره نفسه لأنه شعر بالرعب.

تحرَّك مايك إلى الأمام، وضربه على وجهه بقبضته. تداعى سميان بتأثير الضربة. "لست قويًّا جدًّا هنا، أليس كذلك، يا چو لويس!" شخر أحد رجال الشرطة تقزُّزًا. "وقع من اللكمة الأولى. النيجرز جبناء!" قال چيف: "طيب، الآن، عليك أن تكون عادلًا. مايك وقع هو الآخر من اللكمة الأولى." أوقف مايك، وچيف، وشرطيٌّ آخر، سميان على قدميه، وبدؤوا في ضربه بطريقة منهجية. حاول أن يحمي محجر عينه بيديه، غير أن شرطيين آخرين أتيا، وأوثقا ذراعيه خلفه. ضربه مايك بقوة على بطنه وحقويه؛ تلوَّى وجه سميان، وغاب عن الوعي.

حين أفاق، كان عاريًا على الأرضية الخشبية. ومايك وچيف يمسكان بخرطوم مطاطي، بينما جلس رجال الشرطة الآخرون على طاولة، يدخِّنون ويراقبونه.

انحنى مايك عليه، وابتسم. "أفضل الآن، يا چو لويس؟"

تألَّم جسده بأكمله، وبالكاد أمكنه أن يرى بعينه الواحدة.

قال مايك: "سأخبرك لماذا يعجبني النيجرز المتحمِّسون، يا چو لويس. لأنه من الممتع جدًّا إعادتهم إلى أماكنهم. هل تعرف ما أقصد؟ هذه هي بلد الرجل الأبيض، يا ولد؛ لا نريد مؤخِّرتكَ السوداء هنا كي تلوِّث المكان على أي حال، لكن طالما أنت هنا فعليك أن تتأكَّد تمامًا أنك ستبقى في مكانك. الآن، هل تعرف مَن أنا؟ أنا مُعلِّمك. أنا

كبير الملائكة الخصوصي المرسَل خصيصًا كي يعتني بك، يبقيك بعيدًا عن الأذى وما شابه. وأنا رجل مسؤول، وسوف أؤدي ذلك الدور. لديَّ عنوانك. سأمر كي أراك من وقت إلى آخر. سأُبقي شخصيًّا عيني عليك. وفي أي وقت تسيء التصرف؛ سآتي بك إلى هنا من أجل جرعة دواء مرة أخرى. بنفسي. إنه زواج من نوع ما، تعرف، بيني وبينك."

رفع مايك الخرطوم وسقط بثقلٍ لا يمكن تخيُّله على بطن سميان. التف حول نفسه مع صرخة مكتومة. هوى الخرطوم مرَّةً بعد مرة. استمرَّ مايك في الحديث بصوت منخفض، مهدئ، بمتعة مهموسة، وفجأة، وهو يرى، في ومضة، الفم القاسي والعينين الساديتين، فكَّر سميان: إنه الوجه نفسه! وجه كريس! استمرَّ الوهم للحظة فقط. ردته ضربة من الخرطوم مثل مطواة. لطمه الخرطوم بقوة في أسفل عنقه. انهالت الخراطيم من كل مكان، بينما تواصل صوت مايك البعيد، عديم النغم، المهدئ على نحو غريب: "هل ترى، يا ولد، الخراطيم لا تترك أثرًا. لا أقصد أن يصيبك أذى. أريد أن أبقيك خارج المشاكل. أنا مَلاكُك الحارس؛ نحن متزوجان من الآن، أنا وأنت." ثم صار العالَمُ أسودَ مرة أخرى.

الملاك الحارس مايك. اشترى سميان مسدسًا من صديقٍ خَدَم في الجيش. لكن مايك لم يأتِ إلى بيته. لم ير مايك مرَّةً أخرى قطُّ.

(IV)

1

توقَّف موكب من عشر سيارات في أرض خلاء في الغابة إلى الجنوب من باريس. كان كارلوس، وهو أحد أصدقاء بيب البرازيليين، قد اقترح الرحلة، قائلًا إن عليهم أن يأخذوا نبيذًا، وبيرة، وطعامًا إلى بقعة في وادي شِفْروز، يمكنهم منها أن يُشرفوا على الغابة بأكملها. "يمكننا أن نشوي لحم حُملان على نار في الهواء الطَّلق، ونستمع إلى عزف الجيتار حتى الصباح!" فتنتهم فكرة كارلوس؛ فغادروا باريس بحماس شديد. أتى أغلب الأمريكيين في مجموعة التورنون، وكذلك البرازيليين والآخرين، من الحي. كانوا نحو أربعين شخصًا إجمالًا، وقد بدؤوا الآن في التجمُّع خارج السيارات، وشرعوا في تسلُّق التل.

أمسك سميان بِيَدِ ماريا، وحمل صندوق نبيذ فوق كتفه. انزلقت صخور تحت أقدامهم. وراءهم، تنفَّس بيب بصعوبة، وهو يدفع جسده الهائل إلى أعلى التل. بلغوا أخيرًا الهضبة الصغيرة على القمة، حيث كان مَن وصلوا بالفعل يبحثون عن خشب للنيران. ارتمت ماريا

على بطانية، وذهب سميان كي يبحث عن أخشاب. بلغ بيب القمة أخيرًا، وهو يئزُّ مثل مُحرِّك، والفتاة السويدية، ماريكا، بجانبه. تهاوى بيب على بطانية. "هذا ليس صوابًا، هذا ليس صوابًا،" قال. "بعض الناس يحملون أوزانًا أكثر بكثير من الآخرين. هذا ليس صوابًا."

شعر سميان بالابتهاج من الهواء والمنظر. لم تتحرَّك ماريا، بل استلقت على ظهرها، مُحدِّقةً في السماء بطريقة حزينة ومُلغِزة. كلَّما نظر إليها، منذ لقائهما الأول، تغمره رغبة جسَديَّة قوية. لم يكن ذلك بسبب جسدها فقط - لقد رأى أجسادًا أخرى رائعة - بل بسبب شغف متلاطم، رصين، شعر بوجوده تحت صمتها المعتاد. هذه المرأة كانت بركانًا نائمًا، مختلفة تمامًا عن النساء الأخريات اللاتي عرفهن. فجأة، بدون أن يعطي خجله الوقت كي يفرض نفسه، انحنى سميان وقبَّلها على الخد. لم تتحرك، بل استلقت على ظهرها، محدِّقةً في السماء بطريقة حزينة ومُلغزة.

سرعان ما اتَّقدَت ناران في الأرض الخلاء، وتقلَّب حملانِ على أسياخ فوقهما ببطء. جلسوا في دائرة ضخمة حول النيران. كانت الشمس قد غابت تمامًا الآن، ونسيم الليل منعش ونقيٌّ. في الأسفل امتدَّت الغابة، وعلى مبعدة كان بمقدورهم رؤية الطريق السريع بأضواء السيارات، ووراء ذلك، في الأفق، أنوار باريس. استلقى سميان على ظهره، وماريا بجواره. مرَّر البرازيليون زجاجة بوچوليه على الجميع، وهم يهتفون: "الجولة الأولى."

بدؤوا جميعًا في شرب النبيذ، وشرع بيب، وهو أفضل حكَّاء سمعه سميان على الإطلاق، في إلقاء النكت. كان هارولد، المؤلف الموسيقي الذي قابله سميان في مكتبة بيب، يحملق بأسى في النار.

"فيمَ تفكِّر، يا هارولد؟" سأل سميان.

كانت ثمة تقطيبة على وجه هارولد؛ حوَّل عينيه الناعمتين، ذواتَيْ اللون البني السائل، إلى سميان، وقال: "أفكِّر في بيانو." كان له صوت مخملي، به رنَّة الغرب الأوسط. "انظُر، من الصعب بما يكفي أن تجد شقَّةً في باريس، أليس كذلك؟ لكن وقتما أتمكَّن من العثور على واحدة؛ أشعر بالسعادة وكل هذا، لكنني أعرف أن الأمر لن ينجح؛ لأنني سأطرح السؤال القاتل: هل يمكنني أن أضع بيانو في الشقة؟ والجواب دائمًا لا. مالكات الشُّقَق يَقُلن لا، الجيران يقولون لا. مطلوب مني أن أؤلِّف كونشرتو بيانو لكن لا يمكن أن يكون لديَّ بيانو. لا يشعر أحد بالشفقة على الموسيقيين في هذه المدينة؛ لهذا، عليَّ أن أعود إلى ڤيينا مرة أخرى. ذهابًا وإيابًا، إلى ڤيينا، حيث يسمحون ببيانو."

"أين داج؟" سأل سميان.

أشار بيب إلى بطانية حيث استلقى داج يتحدث مع فتاة لها وجه جميل، وصغير السن جدًّا. "ها هو هناك، يهمس بأكاذيب في أذن فتاته الفرنسية الغافلة."

"لم أره معها من قبل قطُّ."

"إنه يخبِّئها، يا رجل؛ لأنها ناعمة ولذيذة، ويخشى إن رأيناه معها أن نظن أنه هو أيضًا ناعم ولذيذ." ضحك بيب. "بالنسبة لي، أنا أنتظر فتاة أحلامي."

قال بينسون: "يُذكِّرني بالقطِّ الذي قضى حياته بأكملها باحثًا عن المرأة المثالية كي يتزوَّجها. قضى خمسين عامًا في السفر لكل بلد من بلاد العالم، ولم يجد المرأة على الإطلاق. تقدَّم في العمر. وفي النهاية، في قرية صغيرة بالقرب من مدينته، رأى المرأة المثالية تسحب ماءً من بئر. أسرع إليها: 'يا حبي، لقد قضيت حياتي بأكملها بحثًا عن المرأة

المثاليـة؛ والآن وجدتهـا، إنهـا أنـتِ، هـل تتزوجينني؟' فقالـت: 'آسـفة، إننـي أبحـث عـن الرجـل المثـالي.'"

كانـت الموسـيقى فاتنـة، وقامت إحـدى الفتيـات البرازيليـات، وبدأت في الرقـص. انحنـى سـميان، وقبّـل ماريـا بخفّـةٍ عـلى الفـم. واصَلَـت التحديـق في السـماء، وقالـت: "مـا الـذي تريـده منـي؟"

فاجأه السؤال. قال برقّة: "أريدك."

ابتسـمت ابتسـامة خافتـة، وصمتـت مرة أخـرى. كان النبيذ في رأسـيهما، وبـدأ الجميـع في الغنـاء مـع البرازيليـين. هتـف كارلـوس بـأن أحـد الحملان طُهِـي، وبـدأ في قطـع شرائـح لحـمٍ، ومناولتهـا. رقصـت المـرأة البرازيليـة عـلى نحـوٍ محمـوم، وتوقّفـوا جميعًـا عـن الـكلام، وتابعوهـا. انتقـل عـدة أزواج إلى داخـل الغابـة. دارت المـرأة الراقصـة حـول النـيران، والتمـع رأسـها في وهـج النـار، وصـار جسـدها جامحًـا. راقـب سـميان الوجـوه حـول النـار، وجـوه تـتراوح بـين الأبيـض والبنـي والأسـود، مـن إسـكندناڤيا إلى إفريقيـا.

عـاد سـميان وماريـا إلى باريـس بالسـيارة مـع زوجٍ آخـر قبـل الفجـر بقليـل. بقـي أغلـب الآخريـن، ومـن الطريـق السريـع كان بمقـدور سـميان أن يـرى وهـج النـيران عـلى خلفيـة السـماء. كان صامتًـا ومتوتـرًا أثنـاء الطريـق، وشـاعرًا تمامًـا بوجـود ماريـا. أراد أن ينـام معهـا، لكنـه لم يسـتطع أن يسـبر أغـوار صمتهـا المسـتغرق في الفكـر. جعلتـه كبريـاؤه، وخبراتـه العِرقيّـة كلهـا، يخـشى الرفـض إن فاتحهـا مبـاشرة. غـير أن كل مـا كان أمينًـا فيـه جعلـه يرفـض دائمًـا أي مقاربـة خـلاف الـمُباشِرة.

نـزل سـميان وماريـا بالقـرب مـن فندقـه. "هـل تسـكنين بالقـرب مـن هنـا؟" سـأل سـميان.

"بعد الناصية مباشرة. في فندق."

"لا تذهبي إلى سكنكِ. ابقي معي."

"نعم."

كان يمكنه أن يقبِّلها امتنانًا على تلك البساطة الجميلة، النادرة. ها هي، والشكر للرب، امرأة لا تلعب ألعابًا.

حين لمس جسدها، في الفِراش، ارتعشت بعُنفٍ أرعبه. همست مرة أخرى: "ماذا تريد مني؟ ماذا تريد؟"

2

ناما حتى بدايات الأصيل، ثم تناولا الغداء في مطعم ماركو، على ناصية شارع كاثْر ڤون. وذهبا بعدها للتمشِّي في حدائق لوكسمبورج.

"أشعر ... أنني أفضل،" قالت، وهي تنظر إليه مع ابتسامة خجولة.

ضحك برقة. "وأنا كذلك."

"لكن فاتني درس التمثيل. ذلك أمر جاد."

دندنت بمرح، وهي تتمايل بجسدها الطويل، اللَّدِن، بينما تمشي، ووجهها مشرق في الشمس. لم يستطع أن يصدق أنها ستصير عمياء؛ ستكون عمليتها ناجحة.

"في أي شيء تفكر؟" سألَت.

"في كيف يتمايل جسدك."

"أفضل من جسد بريچيت؟"

"بكثير."

ضحكَت. "كل الرجال يكذبون."

عادا إلى غرفة سميان في الفندق في نهايات الأصيل. التفتت ماريا إلى سميان، بابتسامة، وقالت: "نشتري شقة إذًا. على أي حال، هذه

الغرفة ليست كبيرة بما يسعنا نحن الاثنين." ضحكت بسرور. "أُرعِبك، أليس كذلك؟ تفكر: 'آها، مَن هذه المرأة التي تريد أن توقع بي؟' نعم، أنتم الرجال، كلكم سواء، هكذا تقول لي خالتي. تخافون على حريتكم الثمينة. عليَّ أن أتركك الآن. لا بُدَّ أن أذهب كي أرى أمي الباريسية."

"متى سأراكِ ثانية؟ هل تأتين إلى هنا الليلة؟"

"الليلة؟" تهكَّمَت. "آه، لكن ذلك مبكر جدًّا، لا؟ هل أنت متأكد أنك مستعد لمثل هذه العلاقات الدائمة؟ لا، سوف نحمي حريتك. سأعود بعد، قُلْ، شهر واحد."

"تعالي الليلة، يا ماريا."

"ربما. لكن سأتأخر. سنذهب إلى أُنْجان كي نلعب الروليت. إن أتيت، لن أكون هنا قبل الرابعة أو الخامسة صباحًا. سيعطيك ذلك الكثير من الحرية. تشاو، سميان."

حين انصرفت، بدت الغرفة خالية. جلس إلى الطاولة، وحاول أن ينتهي من مقال للمجلة، لكنه شعر بالتململ، ونزل لتناول بيرة لدى ليب. أكل بمفرده. ذهب ليشاهد فيلمًا بعد العشاء، لكنه لم يستطع أن يُخرج ماريا من أفكاره.

صادف هارولد، الذي قال: "تعال معي، سأستمع إلى موسيقى في أحد المقاهي."

"أي مقهى؟"

"تعال معي، سوف ترى."

قاده هارولد إلى مقهى صغير، رثٍّ، يمتلئ برجالٍ لهم شَعر مُجعَّد داكن، ويرتدون ملابس واسعة، غير مكويَّة. "جزائريون، عرب،" قال هارولد. من فونوغراف، أتت موسيقى عربية لها عاطفة الفلامنكو،

وحزنـه. حملـق العـرب بـدون تعبـير في المتطفلـين، لكـن السـاقي، وكان جزائريًّـا أيضًـا، ابتسـم لهارولـد، ومـدَّ يـده.

"مرحبًا! لم نَرَك منذ وقت طويل،" قال.

"كنت في ڤيينا. مشاكل بيانو مرة أخرى. أقدم لك سميان."

شربـا كونيـاك عنـد البـار، وهـما ينصتـان إلى الموسـيقى. كان الجزائريون يلعبـون الدومينـو، أو يحدقـون فقـط أمامهـم. شربـوا جميعًـا قهـوة. كان سـميان يعـرف أن هنـاك نصـف مليـون جزائـري في فرنسـا، لكنـه لم يذهـب قـطُّ إلى مقهـى مـن مقاهيهـم. فكـر مـرة أخـرى في الليلـة التـي رأى فيهـا شرطيًّـا يعامـل رجـلًا بوحشـية، وعرَّفـه بيـب بالتعليـق المقتضـب: "كان غالبًـا عربيًّـا."

"لا توجد نساء،" قال سميان.

قـال هارولـد: "النسـاء في الديـار مـع عائلاتهـن، في الجزائـر. يـأتي الرجال هنـا كي يجـدوا عمـلًا، ويرسـلوا نقـودًا إلى الديـار. النـاس فقـراء جـدًّا في الجزائـر."

غـادرا المقهـى في الثانيـة صباحًـا، وذهـب هارولـد إلى بيتـه. ذهـب سـميان إلى بـار يفتـح طـوال الليـل في شـارع مسـيو لـو برنـس حيـث يوجـد عـازف جيتـار إسـباني. جلـس عنـد البـار، وطلـب بـيرة. بجـواره كانـت هنـاك فتـاة شـقراء تقـرأ جريـدة هولنديـة.

"هـل يمكنـك أن تعطينـي نـارًا؟" ابتسـمت الفتـاة ورفعـت سـيجارتها. أشـعل عـود ثقـاب.

"كيف عرفتِ أنني أتحدث الإنجليزية؟" سأل.

"ملابسك مثل الأمريكيين."

أي ضيق، فكَّر سميان. يجب أن أشتري ملابس جديدة. أنهت الفتاة الهولندية مشروبها، ابتسمت له مرة أخرى، وغادرت البار. تناول سميان بيرة أخرى، وحين خرج، كانت الساعة هي الثالثة صباحًا.

كان زوجان يشتبكان بالقرب من حائط. تعرَّف سميان على الفتاة الهولندية، التي كان رجلٌ ثقيل البنية قد دفعها إلى الحائط. كانت تبكي، ووقعت عيناها على سميان.

"ساعِدني! بحق الرب، ساعِدني، سوف يقتلني!" هتَفَت. تَردَّد سميان للحظة، ثم تحرك في اتجاههما، وأمسك بالرجل من كتفه، "هذه خطيبتي، اتركها وشأنها،" قال سميان بالفرنسية.

التفت الرجل حانقًا، عيناه تبرقان، ودفع سميان. "انصرف، واهتم بشؤونك الخاصَّة!"

أخذ سميان خطوة إلى الأمام، وضرب الرجل على الفَكِّ. التفت الرجل، واشتبك مع سميان، محاولًا أن يُسقِطه على الرصيف. رأى سميان الفتاة تجري بكعبها العالي إلى نهاية الشارع، ثم تختفي. تراجع، ثم هوى بقوة، فضرب الرجل على الوجه مباشرة، مُسيلًا هذه المرة الدم من شفته. زعق الرجل في لغة حَلقيَّة عرف سميان أنها العربية، وأدرك أن الرجل جزائريٌّ.

هجم الرجل مرة أخرى، ونطح سميان بقوة على ذقنه؛ سقطا مشتبكين على الأرض. ثم فُتِح باب البار، وأمسك رجال آخرون بسميان، وهم يلعنون بالعربية. كان سميان واعيًا، على نحو خافت، بالصياح وبصراخ نساء، ثم فجأة امتلأ الشارع برجال شرطة يلوِّحون ببنادق. "ارفعوا أيديكم! ارفعوا أيديكم!" أمر رجال الشرطة، وهم يدفعون العرب بخشونة. قال أحد الضباط: "حسنًا، الآن، ما سبب كل هذا؟"

تقدَّم واحد من نُدُل البار، وكان يعرف سميان: "رأيت الموضوع بأكمله. هؤلاء العرب هاجموا الأمريكي."

"حسنًا،" قال الضابط، "الجميع في العربة."

دخل العرب وسميان في مؤخرة عربة الدورية مع رجال الشرطة. جلسوا على مقعدين خشبيين في مواجهة أحدهم الآخر. من وقت إلى آخر، كان أحد رجال الشرطة يسبُّ أحد الجزائريين، ويصفعه على الوجه. حملق العرب مباشرة أمامهم، بتجهُّم. كان سميان محرجًا، ومرتبكًا. لم يكن قد أدرك أن الرجل جزائري. والفتاة الهولندية فرَّت.

استمرَّ رجال الشرطة في التعامل مع العرب بخشونة، لكنهم لم يلمسوا سميان. في القسم، دفعوا الجزائريين عبر الباب. نظر رقيب المكتب إليهم، وتنهَّد.

"ماذا حدث؟" سأل.

"البيكو هؤلاء هاجموا المسيو،" قال أحد رجال الشرطة.

نظر الرقيب إلى سميان. "هل تريد توجيه اتهامات؟"

"لا."

"اشرح ما حدث، يا مسيو."

حاول الرجل الذي تعارك معه سميان أن يتحدث، لكن أحد رجال الشرطة صفعه على الوجه. قال الرقيب للرجل: "لتهدأ!" ثم التفت إلى سميان. "تفضَّل، يا مسيو." استخدم الرقيب صيغة التبسُّط في الحديث مع الجزائري، لكنه استعمل الصيغة المهذبة لمخاطبة سميان.

شعر سميان بعدم ارتياح شديد. قال: "كان هذا الرجل مع فتاة، ولا أعرف، أظن أنني تدخَّلتُ حين لم يكن عليَّ أن أفعل. ثم بدأ شجار، هذا كل ما في الأمر."

قال الرجل الذي تشاجر مع سميان: "أيها الرقيب، هل يمكنني أن أتحدث؟ هل يمكنني أن أفسِّر شيئًا؟"

تجهَّم الرقيب، ونظر في أوراقه. "هيا،" قال بدون اكتراث.

"أيها الرقيب، كنت أمسك بالفتاة كي أمنعها من الفرار. اسمها ثيرا. إنني أعرفها. أعرف أن هذا الرجل ليس خطيبها لأنها فتاتي أنا. أتت إلى غرفتي عدَّة مرات، وأخذتها إلى بارات، أنفقت نقودًا عليها. لقد كانت فتاتي. لكن استمع، أيها الرقيب، أعمل بجد لأحصل على مالي، تعرف كيف الحال بالنسبة لنا هنا، لا أعمل من أجلي أنا، كما تفهم؛ أرسل المال إلى أسرتي في الجزائر."

"ادخل في الموضوع."

"حسنًا. ليلة الجمعة الماضية، أخذتُ الفتاة إلى غرفتي في يوم الراتب، ولم أكن قد أرسلت نقودي بعدُ إلى أسرتي. وحين استيقظت في الصباح، كانت الفتاة قد مضت، وراتبي مضى! أيها الرقيب، تعرف كيف سيكون حال أسرتي في الجزائر لشهر كامل بدون النقود التي أرسلها إليهم؟ لديَّ ثلاثة أطفال، لديَّ زوجة، وأم، وأخوات وبنات عم كثيرات، يعشن على المال الذي أرسله لهنَّ كل شهر. وهذه العاهرة تغادر مع راتبي الشهري! هكذا، الليلة، بينما أسير في الشارع، رأيتها. أرادت أن تهرب. دفعتها باتجاه حائط، وقلت: 'انظري، أيتها العاهرة القذرة، أين نقودي! أريد نقودي!' بكت، قائلة إنها ستُحضر لي النقود في وقت آخر، لكنني لم أُرد أن أتركها تبتعد عن ناظري. ثم يأتي هذا الرجل، ويتدخل في شأن لا يخصه، ويكذب قائلًا إنها خطيبته. يدفعني ذلك نحو الجنون. Voilà."

"هذا هو كل ما لديك؟"

"لكن، أيها الرقيب، تدرك كيف هو الحال في الجزائر، بدون راتب لشهر كامل؟ هل تدرك؟"

قال الرقيب: "اسمع. بالنسبة لي، لا أشعر بأي شفقة من أجلك. إن كنت تقول الحقيقة، فأنت تستحق ما حدث لأخذك تلك الفتاة

إلى مسكنك. ليس لديك أي حق في مضايقة السياح في هذا البلد، كان ينبغي أن تظل في الجزائر حيث تنتمي." التفت إلى رجال الشرطة. "احبسوه. والآخرين، كذلك. ستفيدهم ليلة في الحبس."

قال أحد رجال الشرطة: "والأمريكي كذلك؟"

"لا، المسيو لا."

نظر سميان إلى الجزائريين، ملتَمِسًا عفوهم. لم يَردُّوا نظرته.

احتجَّ لدى الرقيب، "لكنني لا أوجِّه أي اتهامات. لم أعرف أن راتبه سُرِق. لا ينبغي أن يُحبسوا، الموضوع بأكمله خطأ مني."

تجهَّم الرقيب. "اسمع، هل تقول لنا كيف ندير بلدنا؟"

"لا ..."

"طيب، لتخرج من هنا."

قاد رجل شرطة سميان إلى المدخل. التفت سميان ونظر إلى الجزائريين، الذين كانوا يُدفعون بخشونة عبر باب في الخلف. وضع رجل الشرطة ذراعه على كتف سميان، وقال: "أنت لا تفهم. لا تعرف كيف هم. العرب. دائمًا يسرقون، يتشاجرون، يجرحون الناس، يقتلون. إنهم وباء؛ أنت أجنبي، ليس في مقدورك أن تعرف. ليلة واحدة في الحبس تعني أنهم أفلتوا بسهولة."

هام سميان في الشوارع قبل أن يذهب إلى مسكنه في الفجر. لم تأتِ ماريا، لكنه كان مسرورًا الآن أن يكون بمفرده. استلقى مستيقظًا لوقت طويل.

3

قبلها بعدة شهور فقط، في فيلادلفيا، كان سميان قد غادر مكتب الجريدة في وقت متأخر، وقالت شارلوت، وهي إحدى المراسلات الصغيرات: "هل تمانع في الذهاب معي إلى مترو الأنفاق؟ لا أحب المشي بمفردي أثناء الليل."

حدَّق البعض بينما يمرَّان. لم تلاحظ شارلوت ذلك. كانت جديدة في الجريدة، وكانت تخبر سميان كم تجد العمل الصحفي مثيرًا. لم يستطع سميان أن يتجنب الحنق عليها، مثلما كان يحنق على كل الأصدقاء البيض الآمنين تمامًا في عالمهم الخاص إلى حدٍّ أن يصيروا عميانًا بشأن تحذيرات العاصفة، التي لا حصر لها، والتي يكتشفها الزنجي بحدَّة. لم يكن بمقدور شارلوت أن ترى الكراهية والتهديدات في العيون التي رأته معها. "إنه ما حلمتُ دائمًا أن أكون،" قالت. "ربما مصدر ذلك هو الأفكار الرومانسية عن العمل الصحفي التي تأتيك من الأفلام." كانت لها ضحكة مُعدية، وكانت مُحبَّبة، غير أن سميان تضايق لأنها تستمتع بالحياة، استمتاعًا تامًّا، بين الأمَّة التي جعلت الحياة صعبة جدًّا بالنسبة له.

"شكرًا،" قالت حينما وصلا إلى المترو. "هل لديك دقيقة؟ دعني أشتري لك مشروبًا." هزَّ سميان رأسه، وذهبا إلى بار. أردفت شارلوت: "لكن ما يعجبني حقًّا هو كتابة التحقيقات. أقوم ببعض الكتابات المستقلة. ربما تقرؤها في يوم من هذه الأيام."

كانت هناك مجموعة من البحَّارة البيض على طاولة في البار. نظروا إلى سميان وشارلوت، وتهامسوا فيما بينهم. لم تكن عيونهم ودودة. "بالتأكيد،" قال سميان. "رغم أنني لم أقُم أنا نفسي بالكثير من العمل لمجلات. الشيء الأساسي بالنسبة للمجلات هو كتابة نوادر. املئي مقالكِ بالكثير من النوادر، لا شيء خلاف النوادر." وقف اثنان

مـن البحـارة، وتحـرَّكا في اتجـاه البـاب وراء سـميان. "نعـم، النـوادر،" قالـت شـارلوت. "مقـال المجلـة يشـبه سلسـلة مـن الخـرز: كل خـرزة هـي نـادرة، والسلسـلة هـي الفكـرة التـي تربطهـا." بينـما يمـران بهـما، اسـتدار أحـد البحـارة فجـأة، وضرب سـميان عـلى الفـك بـكل قوَّتـه. صرخـت شـارلوت. اندفـع بقيـة البحـارة، وهـم يسـبُّون، ويهجمـون عـلى سـميان. اشـتعل الحنـق مـع الألم في رأس سـميان، وبينـما ينظـر إلى أقـرب البحَّـارة، عـادت الهلوسـات: ذلـك هـو الوجـه الحجـري! إنـه كريس-مايـك. قفـز، متحـرِّرًا مـن البحـارة، وسـحب المسـدس الـذي صـار يحملـه دائمًـا. نظـر إليهـم، وإلى وجوههـم المرعوبـة عـلى نحـو مفاجـئ، وابتسـم، وضغـط عـلى الزنـاد.

عَلِـق المسـدس. حـدَّق فيـه البحـارة، والسـاقي، والزبائـن جميعهـم، في دهشـة. "لنخـرج مـن هنـا،" همسـت شـارلوت. جـرت نحـو البـاب بينـما تراجـع سـميان بسرعـة، والمسـدَّس مصـوَّب نحـو البحـارة، وخـرج مـن البـار.

في الشـارع جـرى كـما لم يَجـرِ مـن قبـل. قفـز داخـل بـاص يتحـرك. بالـكاد اسـتطاع أن يتنفـس. كان واهنًـا إلى حـدٍّ أنـه كاد يتهاوى، وارتعشـت يـده بعنـف وهـو يدفـع. حملـق فيـه مُحصِّـل التذاكـر بفضـول. نـزل سـميان مـن البـاص قبـل محطتـه. سـار في شـارع صغـير مظلـم، أخـرج المسـدس مـن جيبـه، مسـحه جيـدًا بمنديلـه، ورمـاه في بلوعـة. وقـف في الشـارع للحظـة، يرتجـف. كـدت أن أرتكـب جريمـة قتـل.

في الفِـراش تلـك الليلـة أجـبر نفسـه عـلى أن يكـون هادئًـا. لكـن الوجـه – وجـه مايـك، وجـه كريـس، وجـه البحـار – لم يغـادر أفـكاره. "إنـك تفقـد اتِّزانـك،" أخـبر نفسـه. جريمـة قتـل في بـار، ثـم الكـرسي الكهربـائي، يـا لهـا مـن طريقـة سـخيفة لإنهـاء حياتـك! أن تمـوت مـن أجـل قضيـة، سـيكون ذلـك أمـرًا مختلفًـا. لكـن شـجارًا في بـار!

قال لنفسه ببطء ووضوح: سوف أقتل رجلًا ذات يوم. في لحظة غضب، إذلال، لحظة وهم، لحظة هلوسة. لا! ليس هذا الهدر، ألّا يقتل نفسه عبر فعله غير العقلاني!

سوف يبتعد، سيغادر أمريكا. إلى أين يذهب؟ أي مكان. أوروبا، على سبيل المثال. فرنسا.

نام سميان نومًا متقطعًا، واعيًا بأصوات الشارع الباريسي. في الرابعة عصرًا، نهض وذهب إلى بار. طلب بيرة، ثم أخرى. لم يشعر برغبة في الأكل، وبدأ في الهيام بدون هدف على امتداد بولْڤار سان جرمان. كان يمر بالقرب من مترو أوديون حين سمع صوتًا يزعق بإنجليزية ثقيلة اللكنة: "هلا! ما هو شعور أن تكون رجلًا أبيض؟"

عرف سميان على نحوٍ ما أن الكلمات موجَّهة إليه، وحين التفت رأى أربعة جزائريين يجلسون إلى إحدى طاولات مقهى أوديون. مرتبكًا ومستكينًا، اتجه سميان إليهم.

"اجلس،" قال أحد الرجال، وهو يتفحَّص سميان بابتسامةٍ هازئة ممرورة. حدَّق رجلان من البقية في سميان بعداء صريح، بينما نظر الرابع، الذي بدا أصغرهم، بفضول، بتعاطُفٍ حتى. "ماذا تشرب؟"

"قهوة،" ردَّ سميان.

طلب الرجل الذي يتحدث الإنجليزية القهوة، ثم التفت إلى سميان. "طيب؟ كيف تشعر؟"

هزَّ سميان كتفه. "لم أكن أعرف."

مال الرجل نحو سميان، وقال بغضب: "لم تكن تعرف! اسمع، كنت مع الفرنسيين الأحرار أثناء الحرب. حصلت على وسام. كنت في البحرية لفترة، وذهبت إلى الولايات. من أين أنت؟"

"فيلادلفيا."

"نعم، ذهبت إلى فيلادلفيا. بالتيمور، كذلك. نيو يورك. ذهبت مع الفرنسيين الأحرار، صدَّقت الأشياء التي كانوا يقولونها أثناء الحرب، تعرف؛ أن بعدها سيكون العالم مختلفًا، أنها حرب من أجل الديمقراطية، أننا جميعًا نقاتل من أجل الديمقراطية والحرية. كلمات كبيرة. غبي، ها؟ لطيفة، الولايات. رأيت كيف يعاملون أناسًا مثلك هناك، القوم السود. ذهبت إلى الأحياء التي يعيش فيها الزنوج، كان لديَّ أصدقاء زنوج. لا بأس بالطريقة التي يعاملون بها القوم السود، أليس كذلك؟ ماذا كانت الكلمة التي استخدموها؟ نيجرز. ذلك هو ما أسموكم، أليس كذلك؟ نيجرز! نعم، رأيت. وهل تعرف ... في الولايات، يعتبروننني أبيض، أنا وأمثالي من الناس! لكنني لم أنخدع، ذهبت إلى الأحياء السوداء على أي حال."

ضحك، ثم أكمل. "طيب، كيف تشعر الآن؟ لا بأس، ها؟ هنا في فرنسا، في أرض الأحرار. بعيدًا جدًّا عن الأمور هناك في الولايات، ها؟ يمكنك أن تذهب إلى أي مكان، تفعل أي شيء. هذا عظيم. أتذكَّر كيف كان الحال هناك. إنْ تشاجر رجل أبيض مع رجل أسود، فالرجل الأسود مذنب، والرجل الأبيض بريء. فقط هكذا. أتذكَّر. كيف تشعر وقد عُكِست الأدوار، ها؟ كيف تشعر وأنت الرجل الأبيض على سبيل التغيير؟"

هزَّ سميان رأسه، وهو يريد أن ينهض ويبتعد، لكن الجزائري لم يتوان: "نحن النيجرز هنا! هل تعرف ما يسمِّينا الفرنسيون - bicot, melon, raton, nor'af. ذلك يعني نيجر بالفرنسية. ألست خائفًا أن نسرقك؟ ألا تروِّعك ملابسنا غير المكوية، وروائح أجسادنا؟ لا، لكن حقًّا، أريد أن أطرح عليك سؤالًا جادًا - هل كنت لتترك ابنتك تتزوج واحدًا منَّا؟"

أوقف ضحكه القاسي سَيلَ الكلمات فجأة. ثم قال بتعب: "الأمر على ما يرام. لم تكن تعرف، ربما. الأمر على ما يرام. لكن فكِّر في المرة القادمة."

"نعم."

"لا تدع مرة قادمة تحدث."

"لن تكون هناك مرة قادمة."

"طيب. انصرف. انصرف. لا نريدك معنا. انصرف."

"دعونا ... نتناول مشروبًا."

"لا، لا، انصرف."

تَردَّد، لكنهم كانوا قد أغلقوا الباب في وجهه. وقف. "أراكم في الجوار،" قال.

بينما يسير مبتعدًا، هتف الجزائري: "هل تسمع؟ لا توجد مرة قادمة، أيها الرجل الأبيض!"

مكتبة
t.me/soramnqraa

(V)

1

حلم سميان أنه كان يُبحِر في المحيط، وعبر الماء كي يزور القوم، قومهم وقومنا. آباء وأمهات لمداعبات رقيقة، خشنة، بعيدة. أرض الميلاد. ما إن صار هناك حتى أصبح مفلسًا؛ لم يَعُد معه ما يكفي من المال كي يعود إلى باريس.

"هذا رائع،" قالت أمه، "ستظل معنا لفترة أطول. وإن عملت بجدٍّ؛ ستدَّخر خلال عدة سنوات ما يكفي من المال كي تقوم بالرحلة وتعود إلى فرنسا."

التفَّ حول نفسه مثل جنين على الأرض، وانتحب كأن قلبه سينفجر، بينما يربت على كتفه إخوته الثلاث، وأخته، وبنات وأبناء عمومته، وعماته وأعمامه، ويقولون: "يمكنك أن تذهب لرؤية فرانسيس، صاحبتك القديمة. لم تتزوَّج بعدُ، ربما تقبلك." انتحب مثل طفل، مثل الموسيقى العربية.

كلمات، ينطق بها رجل عجوز، عجوز، ذو لحية: "يا بني، حيثما توجد عنصرية، حيثما يوجد قمع، فأي شخص يعيش متواطئًا في ظلهما هو مذنب وملعون إلى الأبد!"

انتحب إلى أن جاء الأطباء، وحملوه إلى قسم الشرطة. ابتسم كريس، وهو يزيح ذَرَّة غبار عن زيِّه. "الفرنسيون هؤلاء قذرون،" قال مُهدئًا. "إضافة إلى أنهم مُحبُّون للنيجرز. ألست مسرورًا أنك عُدتَ بيننا؟" صرخ محجر العين بينما يسيل حامضٌ.

تقلَّب بين النوم واليقظة. قال أبوه: "من غير المسموح لابن من أبنائي أن ..."

كيف كان أبوه؟ في أمسيات الصيف الدافئة حين تكون المعنويات عالية، كان أبوه رجلًا طويلًا عريضًا، ببشرة سوداء، وعينين ضيقتين، وندبة خشنة على خده. صموت وشرس. "أخبِرنا كيف كان الحال، يا بابا." قصص عن الأيام الخالية، كيف كانت. كيف ثار مع العبيد، ثار مع دِنمارك فيسي، وجابرييل، ونات تيرنر، كيف حارب الكراكرز، ورأى الدم يسيل، رأى أشقاءه يسقطون، لكنه قاتَل رغم كل هذا. لن أسمح لأي من الأقوام البيض أن يقهرونا! قتل. شغب. كان عليهم أن يشكِّلوا الكو كلوكس كلان كي يقهرونا، يا بني. كان عليهم أن يخبِّئوا وجوههم وراء أقنعة، كان عليهم أن يأتوا متسللين أثناء الليل، مُسلَّحين بالبنادق، بينما نحن هناك عراة بأيادينا العزلاء، يا بني. ورغم ذلك لم يستطيعوا أن يقهرونا، يا بني. لا أحد يستطيع أن يقهرنا.

"أخبِرنا كيف كان الحال، يا بابا." في ليالي الشتاء الباردة حين تكون المعنويات منخفضة، كان بابا رجلًا ضئيلًا، بعينين رقيقتين، موجوعتين. خيزران ينحني في الريح. ملون من الزمن القديم، برأس محنيٍّ، وأسنان بيضاء مبتسمة، ولثة حمراء، ذليل، يبتسم رغم الذل، كي

ينجو. كيف كان الحال، يا بابا؟ الغناء من أجل السيد، الغناء كي ينام السيد. الانتظار والمراقبة. كي تنجو.

"يا أولاد،" قال الوالد، وهو يميل إلى الخلف بفعل مشروبٍ يحرق الحلق، وينظر بعينين عجوزتين نحو السقف، "كنت أركب باصًا في الجنوب، أركب باصًا أثناء قوانين چيم كرو، وكنت صغيرًا حينها، وكنت فخورًا. ولم تكن هناك مقاعد في قسم الملوَّنين؛ لهذا وقفت في الحد بين قسم الملوَّنين وقسم البيض، وركب رجل أبيض فأخذ المقعد في القسم الأبيض بجوار المكان الذي كنت أقف فيه. نظر إليَّ. كانت عيناه متعبتين، وفيهما دم. نظر إليَّ، وقال: 'يا نيجر، ما الذي تفعله بوقوفك هنا في القسم الأبيض؟' قلت: 'أيها السيد، أنا لا أقف في القسم الأبيض، أنا أقف في الحدِّ بينهما.' 'ارجع خطوة إلى الخلف،' قال الرجل الأبيض؛ ففعلت. كانت عينا الرجل متعبتين، وفيهما دم. نظر إليَّ، ورأيت الدم والإرهاق، رأيت الألم والرعب، ورآني أنظر، ومدَّ يده في جيبه، وأخرج علبة سجائر، 'يا نيجر،' قال: 'افتح لي علبة السجائر هذه.' مدَّ يده بالسجائر نحوي. كان الباص هادئًا؛ كان الكل ينظر كي يرى إن كنت سأفتح العلبة. نظرت إلى السجائر ولم أتحرك. كنتُ صغيرًا، حينئذ، وكنت فخورًا، وقرَّرت أن الوقت حان كي أموت. احمرَّ وجه الرجل. 'يا نيجر، هل تسمع رجلًا أبيض يقول لك أن تفعل شيئًا؟ افتح هذه السجائر!' لم أتحرك. رأيت البيض والملوَّنين ينظرون، منتظرين. في المرآة، رأيت سائق الباص يتبسَّم، ويفلت يده إلى وراء كي يتلمس مقبض مسدسه، منتظرًا.

"حينها، كانت هناك امرأة ملوَّنة، عجوز جدًّا، لها عينان فخورتان، ووجه فخور، تجلس على المقعد أمامي مباشرة. نظرت إليَّ بابتسامة، وقالت بهدوء: 'يا بُنيَّ، افتح للرجل علبة سجائره. هيَّا.' لاطفتني برقَّة. كنت غاضبًا بجنون، لكنني فعلت ما قالت. ابتسم الرجل الأبيض. 'هذا نيجر جيد.' بدا البيض في الباص غريبين، وتجهَّم سائق

الباص قليلًا. ونظرت السيدة العجوز إليَّ، وربتت على يدي، وغمزت، وفجأة عرفت. كان القوم السود في الباص قد عقدوا العزم، وعيونهم ملؤها الغضب؛ كانوا غاضبين مرة أخرى، لكنهم نظروا إليَّ، وابتسموا، وغمزوا. لقد عرفوا. وتابع باص چيم كرو القديم ذلك طريقه."

حين عملت أمه كخادمة لدى بيضٍ في شارع تشسنت، اعتادت أن تقيم لديهم، وتعود إلى البيت فقط في أيام الثلاثاء، يوم إجازتها. دائمًا ما تطلَّع سميان إلى ذلك اليوم. وذات ثلاثاء، لم تعد إلى البيت. حاول أن يتحلَّى بالشجاعة، لكنه لم يستطع أن يتحمَّل، وبكى. قال بابا: "من غير المسموح لابن من أبنائي أن يبكي." لكن بابا كان حزينًا هو أيضًا. عادت إلى البيت يوم الأربعاء بدلًا عن ذلك، وشرحت: "انظروا، يوم الثلاثاء كان يوم التصويت، والسيدة ديلاني (كانت تلك هي السيدة البيضاء الثرية التي عملت لديها)، السيدة ديلاني سألتني: 'سارا، هل ستصوِّتين؟' 'نعم يا سيدتي،' قلت. 'لمِن ستصوِّتين، يا سارا؟' فقلت: 'بالطبع سأصوِّت للسيد روزفلت، يا سيدة ديلاني، لقد فعل الكثير من أجل قومي.' بدت السيدة ديلاني غاضبة جدًّا. قالت: 'طيب، اسمعي يا سارا، أنا والسيد ديلاني، نحن لا نحب روزفلت، ولا نريد له أن يحصل على أصوات؛ لهذا لن تصوِّتي اليوم. ستعملين، هل تسمعينني، لن يكون لديكِ وقت كي تذهبي إلى صناديق الاقتراع، وترتكبي أي حماقة. ينبغي ألَّا يُعطى الملوَّنون حق التصويت على أي حال!'"

استمع سميان، مذهولًا. استمع، وعيناه كبيرتان فاغرتان، مندهشتان. ثم أقسم بشرفه: "ماما، حين أكبر، سوف أغيِّر الأمور، سيكون عندي الكثير من المال، وسأغيِّر الأمور كي لا يكون عليكِ أبدًا أن تتلقَّي أوامر من أي شخص أبيض بعدها. هل تسمعينني؟"

"مرحبًا، أيها الرجل الأبيض،" قال أخوه، وهو يدفع بمعول في التربة. كان كل إخوته هناك.

أما هو، سميان، فكان يرتدي توكسيدو، وبابيون، ووضع قرنفلة حمراء في طية الصدر. ارتدى إخوته أسمالًا، وفاحت منهم رائحة العَرَق اليابس. جميعهم عميان، وحدقاتهم مرفوعة إلى أعلى، وفقط بياض عيونهم ظاهر. بلا حراك، عميان، لكن بدا أنهم جميعًا يرونه.

رأى وجهه في المرآة، وجه زومبي شاحب. له عينان اثنتان مرة أخرى. ضرب الإخوة بالمعاول، عملوا في الأرض، عرقوا، وتنفسوا بمشقة.

كان أحد أشقائه مربوطًا بحبل مشنقة في شجرة بفنائهم. دار نمرٌ حول الشقيق. راقب الشقيق في افتتان مرعوب. كشف النمر عن مخالبه، وهسهس، ووثب. هتف الشقيق لسميان: "مُت معي!"

2

ذات يوم في التورنون، سأل سميان راؤول وهنري، وهما طالبان فرنسيان يعرفهما: "هل توجد عنصرية في فرنسا؟"

قال راؤول بسرعة: "بالطبع لا. لا يؤمن الفرنسيون بالنظريات العنصرية؛ الجميع يعرف ذلك. يشعر الأفارقة كأنهم في موطنهم هنا. الفرنسيون لا يفهمون العنصرية. لماذا تسأل؟"

"ماذا عن العرب؟"

تردَّد راؤول، وتجهَّم. ثم قال بصوته الناعم: "هذا أمر مختلف. الفرنسيون لا يحبون العرب، لكنها ليست عنصرية. العرب كذلك لا يحبوننا. نحن مختلفون."

"إنه اختلاف، حيث أنتم في القمة وهم في القاع."

"هذه صدفة تاريخية."

"هي دائمًا صدفة تاريخية في البداية. لِمَ تقول إنكم مختلفون؟"

لـوَّح راؤول بيديـه، بـلا حـول ولا قـوة. "هـم قـوم منغلقـون. ليـس في اسـتطاعتك أن تعرفهـم حقًّـا. يتجهمـون حـين تضحـك؛ لا تعـرف أبـدًا في أي شيء يفكـرون. وإن أدرت ظهـرك، فمـن الـوارد أن يغـرزوا سـكينًا فيـه."

"سمعت هذا النوع من الآراء من قبل."

"الأمر مختلف. أؤكد لك أنها ليست عنصرية."

هـزَّ هـنري رأسـه. "توقَّـف، يـا راؤول. هـذا هـراء. الفرنسـيون عنصريون حـين يتعلـق الأمـر بالجزائريـين، لا شـك في هذا."

برقت عينا راؤول. "كيف يمكنك أن تقول ذلك؟"

هـزَّ هـنري كتفيـه. "لِـمَ تحـاول أن تقـول شـيئًا مختلفًـا؟ الفرنسـيون متحاملـون، لا يعتـبرون الجزائريـين بـشرًا. خصوصًـا الطبقـات الوسـطى."

"الأفضل ألَّا نبدأ حرب الطبقات مرة أخرى."

"هل سبق أن دعوت عربيًّا إلى بيتك؟"

"كثير من الناس لم أَدعُهم قطُّ إلى بيتي!"

"هـل لديـك أي أصدقـاء مـن العـرب؟ هـل تأخـذ حتـى بعـين الاعتبـار إمكانيـة أن تجـري محادثـة جـادة مـع عـربي؟ ألا تسـتاء حـين يجلـس عـربي إلى طاولـة بجانبـك في مقهـى، أو بجـوارك في البـاص؟ إن كنـت تؤجـر غرفـة في شـقتك، هـل تفكـر جديًّـا حتـى في تأجيرهـا لعـربي؟ لا، إنهـا عنصريـة. يـا راؤول. لنواجـه الأمـر."

"ليسـت عنصريـة. هـم مختلفـون. لم أكـن لأؤجـر غرفـة لعـربي؛ لأنـه غالبًـا سـيسرق الشـقة بأكملهـا حـين أكـون في الخـارج. هـذه حقيقـة. لكنهـا ليـس عنصريـة."

كتم سميان ابتسامة، ولم يَقُل شيئًا.

الجزء الثاني

الرجل الأبيض

(I)

1

سار الرجل الطويل، المتين، ذو الرأس المائلة إلى الصَّلَع، على الممشى في اتجاه سميان وماريا. كانا يجلسان على دكة في حدائق لوكمسبورج. توقَّف الرجل المتين على بُعد ياردتين أمامهما، وحملق. شعر سميان بنفسه يتوتَّر فجأة. رفع ناظريه إلى الوجه الأحمر المصمِّم للرجل، لكن الرجل لم يتحرك.

لم يبدُ أن ماريا لاحَظَت شيئًا. استمر سميان في التحديق، لكن الرجل لم يتحرَّك أو يغير من اتجاه نظرته. ابن الحرام الوقح، فكَّر سميان. ألم يَرَ رجلًا أسود وامرأة بيضاء من قبل؟ هذه باريس، يا رجل! هبَّ سميان واقفًا.

"ما الأمر يا رجل، هل ترى شيئًا لا يعجبك؟"

"Bitte?" قال الرجل، مشدوهًا. "عفوًا؟ أنا آسف. صعب أن يفهم الإنجليزية. أنت يكون أمريكيًّا؟ أنا أرماني."

ألماني. طيب، يعرف الجميع أفكارهم العرقية! ومع هذا، فإن حقيقة أن الرجل لم يكن أمريكيًّا هدَّأت سميان قليلًا.

"فيمَ تحملق؟"

"أُحَملِق؟ آه، أنا آسف. أنا فقط - امرأتُكَ لها وجه لافت. النظارات وكل شيء، مع العظم، انظُر. أنا رسَّام. أنا انبهرت. سامحني. لم أقصد أن أحملق." ابتسم، انحنى بتصلُّب، التفت، وسار مبتعدًا.

جلس سميان، ويداه ترتعشان. شعر بالسخف؛ الرجل رسام! كانت ماريا تنظر إليه بدهشة.

"لماذا تحدثت معه بخشونة هكذا؟ لم يفعل شيئًا."

هزَّ سميان كتفيه بعصبية. لم تفهم.

"فقط كان يحملق بشدَّة."

ضحكت. "يحملق؟ لكن هذا لا يضر أحدًا. بل الحقيقة أن فيه الكثير من الإطراء. ليس سببًا للغضب."

كان حانقًا على نفسه، لكنه كان أشدَّ حنقًا عليها لأنها لم تفهم.

"لا. فقط في الولايات. الأمر معقَّد ..."

لا، لم يكن باستطاعتها أن تفهم. كثيرًا ما شعر أنه بعيد عنها جدًّا شعوريًّا، ودفعها الآن عامدًا إلى مكان أبعد في ذلك العالم الأبيض الغريب عنه. لقد غيَّرت الحادثة مع الجزائريين موقفه من الحياة في باريس - كان أكثر وعيًا بالمسافة بينه وبين بقية البيض من حوله، بما فيهم الفرنسيين. لقد عادت الأحقاد المدفونة؛ علت جدران منسيَّة مرة أخرى بينه وبين العالم.

2

كان الهـواء سـاخنًا ومتربًـا تحـت الأشـجار في الحديقـة حـين سـارت ماريـا وسـميان. أثارتـه الجِسِّـيَّةُ المتمهِّلـة في مشـيتها. كانـت تحملق بحسـدٍ أسـيان في الأطفـال الذيـن يلهـون بالكـرة، ويلعبـون الإبحـار بالقـوارب. لكنهـا كانـت أكـثر مـن طفلـة، فكَّـر سـميان. كانـت موشـورًا مـن أمزجـة متقلبـة. كثـيرًا مـا كانـت تـئنُّ أثنـاء نومهـا، وتتحـدث بالبولنديـة. وتـصرخ أحيانًـا، ثـم تسـتيقظ.

"هل أنتِ على ما يرام، ماريا؟"

"هل النور مضاء؟" كانت تقول مرعوبة.

"لا." ضغـط عـلى الـزر. أغمضـت عينيهـا، وبكـت في ارتيـاح، ورأسـها عـلى كتفـه. أدرك سـميان أنهـا ظنَّـت، للحظـة، أنهـا عميـاء.

هـل كانـت حقًّـا ذاتًـا باسـتطاعته أن يمسـك بهـا، أن يدركهـا؟ في فعـل الحـب؟ كان دائمًـا خجـولًا؛ حتـى في أيـام المطـاردة، نـادرًا مـا فقـد الوعـي بنفسـه. لكـن لم يكـن لـدى ماريـا أي خجـل، أو موانـع مـن هـذا النـوع. أعطـى جسـدها نفسـه تمامًـا، وكانـت لحـرارة شـغفها القـدرة عـلى فـكِّ جمـود سـميان، وإذابـة العضـلات المتجمـدة. هـذه المرأة-الطفلـة الرائعـة التـي لم تفهمـه، ولم يفهمهـا.

3

تَغدَّيـا، ثـم أخـذا قيلولـة مبكـرًا في الأصيـل. اسـتيقظ سـميان قبـل ماريا، ارتـدى ملابسـه، وخـرج ليتنـاول فنجـان قهـوة ويشـتري جريـدة. حـين عاد، كانـت ماريـا تجلـس في الفِـراش، وهـي تزفـر دخـان سـيجارة بغضـب

شديد. ساقاها مُغطّيان، ووسطها وثدياها عاريان، وعيناها الداكنتان، الهشتان، تحدّقان في الحائط أمامها مباشرة.

"استيقظتِ أخيرًا؟" قال سميان بمرح. "مرحبًا."

لم تردَّ، ولم تَوَدَّ أن تنظر إليه.

"ما الأمر؟" قال سميان.

"أنت واحد من هؤلاء الرجال!"

"واحد من أي رجال؟"

"تعرف أي نوع من الرجال! مَن عليهم دائمًا إغواء الخادمات في الفنادق!"

صُعِق سميان وأراد أن يضحك، لكن كان الغضب والألم قد ارتسما على وجهها إلى درجة أن قلبه لم يطاوعه. "يا روحي السلافية العذبة،" قال، "لنبدأ من البداية. أي رجل؟ أي خادمة؟ عن أي شيء نتحدَّث؟"

نظرت إليه، كأن بدايات شكٍّ بدأت تلتمع في عقلها. "سمعتُ الخادمة. قابَلَت رجلًا في الرَّدهة، أدركتُ أنه أنت، ضحكا وبدآ في التهامس معًا، ثم ذهبا سويًّا إلى الغرفة الخالية في الردهة. أعرف أنه أنت! لا تكذب. أردت أن أذهب، وأفتح الباب عنوة، وأخمِّش عينيها، وعينيك أيضًا، لكنني أكثر فخرًا من أن أفعل ذلك؛ لهذا، جلست هنا، أدخن، وأنتظر. منذ خمس دقائق خرجا، وتهامَسَا، وضحكا ثانية. وانتظرتُ. والآن، ها أنت. تتظاهر أنك بريء!"

ضحك سميان فعلًا هذه المرة. نظرت إليه، وتجهَّمَت، وهي ما تزال غير متأكدة. "لم أرَ الخادمة على الإطلاق. كنت في الأسفل، أشتري جريدة، وأشرب قهوة."

"لا أصدقك!"

"هـا هـي الجريـدة." رفـع نسـخة مـن الأوبزرڤـر اللندنيـة. سـحَقَت ماريـا، وهـي مـا تـزال متجهِّمـةً، سـيجارتها في المنفضـة، ثـم حملقـت ثانيـة في الحائـط. في النهايـة، أزاحـت الأغطيـة، وسـارت نحـو المغسـلة. بينـما تمـر بـه، ابتسـمت بخجـل، وقبَّلتـه بخفَّـة عـلى الفـم.

اسـتلقى سـميان عـلى امتـداد السريـر، وتمـلَّى في سـاقيها الطويلتـين، وفي ثدييهـا الناهديـن. كانـت بشرتهـا برونزيـة، ناعمـة الملمـس، ليسـت شـمعيَّةً مثـل بـشرة إنجريـد، الفتـاة السـويدية. وهـي عاريـة، دائمًـا مـا حركـت ماريـا فيـه شـعورًا رقيقًـا، حاميًـا.

قـال: "والآن فـسِّري لي، mon trésor [يـا كنـزي]. أيـن سـمعتِ عـن 'مثـل هـؤلاء الرجـال' الذيـن ينامـون مـع الخادمـات في الفنـادق؟"

"قرأت عنهم."

"أين؟"

"في ... روايات فرنسية قرأتها في بولندا."

ضحـك. كان يعشـقها. أراد فجـأة أن يقبِّلهـا، أن يرتبـط، أن يضـع نفسـه تحـت سـطوتها. لكنـه كان يخافهـا. عـرف أنـه مـن الممكـن أن يصـير، بـكل يـسر، عبـدًا لذلـك الوجـه المتجهـم، وذلـك الجسـد الطويـل غـير المكـترث. كان متأكـدًا أنـه سـيفقدها ذات يـوم لعـالم آخـر.

ضحـك، وقـال: "وتفكريـن أننـي مثـل النـاس في تلـك الروايـات؟ أنـا؟ لسـت فرنسـيًّا!"

رفعـت سـاقًا كي تغسـل قدمًـا في المغسـلة. "لا، لكنـك تعيـش في باريـس. أنـت واحـد مـن هـؤلاء الرجـال الباريسـيين. مثقـف. نسـاء كثـيرات فيـما سـبق."

تفحَّـص وجههـا المتحـرك في المـرآة. كانـت مليئـة بالمتناقضـات. خجولـة حـين تكـون في صحبـة، لكـن راق لهـا في أيـام الصيـف السـاخنة أن ترتـدي

ثوبًا رقيقًا فقط، بدون ملابس تحتية. حينما رفع سميان حاجبًا، كانت تهز كتفيها وتقول: "الجو مفرط السخونة؛ أريد أن أكون مرتاحة." كانت حريصة مع المال، لكن في كازينو قمار أُنْجان كان تلقي بمئات الآلاف من فرنكات أمها الباريسية على جولة من عجلة الروليت. لم يأخذ تطلعاتها إلى أن تكون ممثلة مأخذ الجد، إلى أن ذهب كي يراها في "عرس الدم" للوركا. صُدِم وهو يراها بدون نظاراتها في دور الخطيبة، مرتدية زيًّا إسبانيًّا. كانت صاعقة، ومُقنِعة.

الآن، تفحَّصَت نفسها، بدون رضا، في المرآة. نسيت تمامًا اتهامها بشأن الخادمة.

قال بوقار زائف: "الآن، يا ماريا، أريد الحقيقة. نِمتِ مع كم رجل؟"

تجهَّمَت. "نِمتُ معهم؟ عشاق؟" التفتت، ونظرت إليه، وكالعادة لم يستطع أن يحدد ماذا كان وراء الغشاء فوق عينيها. "رجلان، يا سميان. أنت الرجل الثاني. هذه هي الحقيقة. لكن هناك شيء آخر. لا أستطيع أن أخبرك الآن. سأخبرك في وقت آخر. ... وأنت؟ كم امرأة؟"

"لا أعرف."

"خمِّن."

"لا يمكنني أن أخمِّن حتى. بأمانة. لا أستطيع تذكُّر حين كنت صغيرًا."

ضحكت. "ما تزال صغيرًا. تنظر لنفسك بعصابتك السوداء في المرآة، مثل صبي قرصان صغير. أراهن أنه كان لديك هذا الخيال حين كنت طفلًا."

"نعم."

"كطفلة، تخيَّلتُ دائمًا أنني ممثلة. كطفلة في بولندا، في معسكر عمل ألماني، كان عقلي دائمًا بعيدًا في أمريكا أو فرنسا." نظَرَت في البورتريه غير المكتمل للوجه الأبيض الوحشي، الذي كان سميان قد أسنده على الحامل. "لماذا ترسم وجهًا رهيبًا هكذا؟" سألت. "يبدو مثل شخص كنت أعرفه."مكتبة سُر مَن قرأ

نهض سميان، ونظر إلى البورتريه. ما الذي يفعلونه الآن، تساءل - كريس، مايك، البحَّار؟ "لا،" قال بصرامة. نزع اللوحة من الإطار، طواها، شدَّ شريطًا مطاطيًّا حولها، وألقى بها في الخزانة.

"ينبغي أن تحرقها،" قالت.

"لا. أريد الاحتفاظ بها."

ارتدت ملابسها وخرجا. قال سميان: "أريد أن آخذكِ إلى أحد الأماكن. أن أريكِ شيئًا."

"ما هو؟"

"وجدت شقة."

كانت استوديو في شارع سان سِولبيس، على الناصية من فندقه. دفع إيجار ثلاثة شهور مُقدَّمًا، وكان يمكنه أن ينتقل أول الشهر.

كانت الشقة تتكون من استوديو واسع، حَسَن الإضاءة، وغرفة أصغر، ومطبخ، وحمام.

"هل تعجبك؟" سأل سميان.

"جدًّا."

شعر بالارتباك. "ماريا، لا يوجد الكثير من المعنى في احتفاظكِ بغرفتك بينما لديَّ هذه الشقة. لتعيشي هنا معي."

ضحكت. "آه، وحريتك الرجالية!"

"سأكون حرًّا بما يكفي."

نظرت عبر النافذة. تغيَّر وجهها مرة أخرى. "لا، أعتقد أنه من الأفضل لكلينا، وخصوصًا لك، إن احتفظت بغرفتي." نظرت إليه وابتسمت. "لكنني سأحضر فرشاة أسنان هنا، إن أعجبك ذلك. وشبشب لغرفة النوم. بهذه الطريقة، إن جئت بامرأة أخرى هنا، ستعرف أنك تخصني!"

تنزَّها، في وقت متأخر من الأصيل، على امتداد السين، وعبر التويلْري، ثم على امتداد الشانزليزيه. كان يومًا دافئًا، ورائعًا، امتلأت شرفات المقاهي، ولعب الأطفال في الحدائق، وتمشَّى مئات من الناس في الخارج. شعر سميان دائمًا بمتعة فائقة وهو يتمشَّى عبر باريس. كيف حدثت هذه المعجزة؟ لماذا لم يكن هناك في شارع ساوث، في العشوائيات الخانقة، حيث ينتمي؟ شعر بالسعادة، وعدم الراحة، في آنٍ.

"الشانزليزيه!" قالت ماريا. "منذ كنت طفلة، وقرأت عنه في الكتب، حلمت بكم سأحب التمشِّي في هذا الشارع."

توقَّفَت عند كل واجهة، وحملقت بسعادة في كل شيء، من ملابس النساء إلى السيارات. حين مرَّت نساء أنيقات، كانت تقرص يد سميان. "انظر إلى هذا الرداء الجميل! هذه المرأة أنيقة جدًّا! أود أن أكون مثلها!"

"إنها غالبًا سطحية، ومغرورة، وغبية ..."

"ربما. لكن هذه الملابس! والطريقة التي تمشي بها! لا بُدَّ أن لديها بيتًا كبيرًا، وسيارات، وخَدَمًا!"

وجد نفسه يتساءل، أحيانًا، إن كانت ماريا تفكر في أي شيء آخر. ثم تذكَّر الهمهمات، والنشيج أثناء الليل.

جلسا في شرفة مقهى فوكيه، طلبا قهوة، وعلّقا على عالم الشانزليزيه العابر. مر جمعٌ من الأفارقة؛ رأوا سميان، ابتسموا، وهزُّوا رؤوسهم تحية. شعر سميان بدفء داخله. الرجال السود تقريبًا دائمًا ما يحيُّون الرجال السود في شوارع باريس. يعرفون أحدهم الآخر.

"ماذا كنت تفعل في أمريكا؟" سألت ماريا فجأة.

"كنت أعمل في جريدة."

"كنت تكسب الكثير من المال؟"

"مقارنة بالمعايير الفرنسية، نعم."

هزَّت رأسها. "لا أستطيع أن أفهم لِمَ غادرت. تعجبني باريس كثيرًا، لكن أظن أنني سيكون معي دائمًا القليل من المال هنا. لكن في الولايات المتحدة، سأكسب الكثير من المال، وستكون لديَّ سيارة. سألتك من قبل لِمَ غادرت، وقلتَ لي لأن الحياة هناك كانت رمادية. لماذا تركتَها فعلًا؟"

لم يودَّ أن يتحدث في الأمر مع ماريا، لكنه حاول. "تعبت من انتظار أن يتحقَّق الحلم."

"Comment?"

"أنا قليل الصبر. لم تَرُق لي الإهانات الكبيرة والصغيرة لأنني رجل أسود هناك."

تجهَّمَت، وهي تنظر نحو الشارع. "لا أفهم الأمر. قرأتُ أشياء عنه، تعرف، ما يحدث هناك بخصوص المشكلة العرقية. لكنني لا أفهم الأمر. هل الموضوع رهيب حقًّا هكذا، حتى الآن؟"

"تقصدين: هل يطاردون الرجال السود في شوارع فيلادلفيا ونيويورك بحبال المشانق؟ لا. وفي يوم عادي، لا يحدث شيء لافت، لا يلاحظك الناس في الشارع حتى. لكن تحدث مئات الأشياء الصغيرة -

جسيمات متناهية الصغر، لا يمكن لأحد أن يراها سوانا. ويوجد دائمًا خطر أن يحدث شيء أكبر. إنه الوحش في الأدغال، تكونين متوتِّرة دائمًا، في انتظار أن ينقض. الأمر رهيب، نعم. ونحن نودُّ أن نتنفس هواءً، لا نريد أن نفكر في أمر العِرق هذا أربعًا وعشرين ساعة كل يوم. لا نريد أن تُدفع أنوفنا فيه للسبعين عامًا أو نحو ذلك التي هي أعمارنا. لكنكِ مضطرة أن تواصلي التفكير فيه؛ يجبرونكِ على التفكير فيه طوال الوقت."

"ألن تعود أبدًا؟"

"لا أعرف." اندهش من عدم تيقُّنه. لم يخطر له من قبل أنه ربما لا يعود أبدًا إلى أمريكا. راعته مفارقة أن يكون مع امرأة تتوق إلى الذهاب إلى البلد التي فرَّ منها. ورغم هذا، كان ثمة تشابُه في ماضيهما، وفي الحاضر، كلاهما كان طريدًا، وباريس محطة عبور لكل منهما. كذلك لم يكن بمقدور أي منهما التنبؤ بأي شيء يتجاوز اللحظة الحاضرة.

شعر سميان بالقرب من ماريا في تلك الليلة، بينما استلقت في الفِراش تدخِّن سيجارة، وتنظر إلى السقف قِشديِّ اللون بعينيها هاتَيْن المقضي عليهما، وتقول: "ما سألتني عنه في الأصيل، عن عدد الرجال الذين نِمتُ معهم من قبل، نعم، يجب عليَّ أن أخبرك. قلت إنك كنت الرجل الثاني. الرجل العادي الثاني. تفهم؟ الأول هو رجل بولنديٌّ كنت أعرفه."

"مَن هو؟" سأل سميان، وهو يشعر بالغيرة.

"الرجل الذي كنت سأتزوجه، لكن لم ينجح الموضوع. هو بنَّاء، متحمِّس لبناء بولندا من الأطلال. أنا معجبة به، لكنني أردتُ أن أفرَّ، تفهم؟" لامَسَت أصابعها عصابة عينه برقَّة. "يا مسكيني سميان، عينك ... عيناي ... عيوننا تجمعنا، ربما."

"ربما."

"لكن قبلك، وقبل الرجل الآخر، كانت الحرب ومعسكر العمل حيث كنت مع والديَّ أثناء الاحتلال، وكان هناك ضابط ألماني. حين كنت في التاسعة. لم يكن الأمر تحديدًا أنه صنع الحب معي؛ كان لديه ... ذوق غريب. أشعر بالعار ... تفهم، كنا جائعين جدًّا، نشعر بالبرد الشديد، كنا بائسين جدًّا ومرعوبين، صرنا أشخاصًا فظعاء، كنا لنفعل أي شيء كي نبقى أحياءً. يجب ألَّا ترى الناس أبدًا وقد تدَنَّوا إلى هذه الدرجة، يا سميان؛ ترى ما نحن قادرون على فعله، وهو أمر رهيب، متوحش ... الضابط الألماني، قائد المعسكر، أعجبتُه. فعلت ما أراد كي أبقى أنا ووالداي أحياءً.

كثيرًا ما ذهبت إلى مسكنه. كثيرًا ما كنت هناك حين تقابل الضباط، وشربوا، وأكلوا، وتحدثوا. كان غريبًا، ذلك القائد. في أوقات كثيرة، كان بمقدورك الظن أنه إنسان عادي، بمشاعر إنسانية؛ لكن أحيانًا يبدو أن شيئًا ما يطقطق داخله، خاصة حين يكون مخمورًا. فيتغير وجهه. لا أستطيع أن أصف ذلك؛ كان رهيبًا - نعم، مثل الوجه في لوحتك؛ كانت عيناه تقسوان، يختفي الدم وتصير بشرته بيضاء مثل الرماد، باردة مثل الحجر. في مثل هذه اللحظات، كان قاسيًا، وكان يبتسم حين يتمكن من أن يذل، أو يقتل، أو يُسبِّب ألمًا.

هل تعرف ما هو 'الطابور'؟ من وقت إلى آخر، كانوا يستدعون كل سجناء المعسكر، ويمر القائد، ويقول: 'أنت، خطوة إلى اليمين؛ أنت، خطوة إلى اليسار،' إلى أن يشكِّل السجناء جميعًا صفين. ثم كان أحد الصفين يؤخذ بعيدًا، ولم نكن نرى هؤلاء الناس مرة أخرى أبدًا. كنا نعرف أنهم ذهبوا إلى غرف الغاز. الرهيب في الأمر هو أنك لم تكن تعرف قطُّ أيًّا من الصَّفَّين سيؤخذ بعيدًا. وتمنى كل شخص أن يكون الصف الآخر ما سيؤخذ بعيدًا، بصرف النظر عمَّن كان فيه؛ كان

من الفظيع كيف أراد المرء أن يبقى على قيد الحياة، كيف أراد المرء للآخرين أن يموتوا كي يظل حيًّا!

بعد فترة، عرفت أنه لم يكن عليَّ أن أقلق؛ إذ كان بإمكاني أن أشعر أن القائد يحبني قليلًا، وكنت أعرف أن الصف الذي يضعني فيه أنا ووالديَّ لن يؤخذ أبدًا بعيدًا. لكن ذات ليلة، حينما كنت في مسكنه، كان غريبًا جدًّا. لقد تلقَّى خطابًا من ألمانيا، وقرأه مرة بعد مرة، وفي لحظة معينة رأيت دمعًا في عينيه. غريب جدًّا، دموع في هاتين العينين الباردتين. نظر إليَّ فجأة، تقريبًا بكراهية، وقال: 'أنتِ، تظنين أنكِ تعرفين شيئًا عن المعاناة! ماذا يمكن لكم أيها البولنديون أن تعرفوا!' وصرفني.

كان هناك طابور في الصباح التالي. حين أتى القائد، كان بإمكاني أن أرى أنه مخمور جدًّا، وأنه لم ينم طوال الليل. مشى بين السجناء، وهو يقول: 'إلى اليمين، إلى اليسار.' كنت أقف بين أمي وأبي. حين بلغني، قال: 'أنتِ، إلى اليمين،' ثم قال لأبي ولأمي: 'أنتما، إلى اليسار.' صرختُ. التفت القائد، وحملق فيَّ كأن بوسعه أن يقتلني. جريت إليه، وهمست: 'والداي، والداي، وضَعتَهما في الصف الآخر!' نظر إليَّ كأنه لا يعرفني، ثم دفعني، وواصل السير، وهو يقول: 'إلى اليمين، إلى اليسار.' صرخت، وصرخت، كنت هستيرية، لكن أبي نادى عليَّ: 'كوني شجاعة، يا ماريا، يا ماريا الصغيرة.' كانت أمي تبكي هي الأخرى. ثم أعطى القائد الأمر بأن يُصرف الصف الذي فيه والداي.

ابتسم أبي، ورمى لي بقُبلَة، وقال آخر كلماته لي: 'التفتي يا ماريا، أعطينا ظهركِ ولا تنظري إلينا. يجب ألَّا تنظري. يجب ألَّا تنظري.' لم أُرِد أن أفعل ذلك، لكن في الوقت نفسه لا أريد أن أرى، هل تفهم؟ التفتُّ. كنت أبكي، وواصلتُ التفكير: 'لقد رأيتهما الآن للمرة الأخيرة! هما هناك ورائي، لكنني رأيتهما للمرة الأخيرة!' سمعت الصف يتحرك،

وصرخت بعلو صوتي، لكنني لم أنظر خلفي، لم ألتفت. ثم أدركت فجأة أني لم أودعهما. استدرت، لكن كان الصف قد مضى. سقطت على الأرض، وكل ما استطعت أن أفكر فيه كان: 'لم أودعهما حتى.'"

كان سميان صامتًا. ضمَّها بقوة، وهو يشعر أنه أقرب إليها من أي وقت مضى. ربما بإمكانهما أن يفهما أحدهما الآخر على أي حال. راقب دخان سيجارتيهما يتلوى صاعدًا إلى السقف. قبَّلت ماريا كتفه وقالت: "تفهم، يا سميان، لا أخبرك بهذا من أجل الشفقة. ملايين الناس عاشوا الأمر نفسه. لكن هذا جزء مني، عليك أن تفهمه كي تفهمني. لسنوات، بعد الحرب، لم أحلم بشيء خلاف ذلك المعسكر، ذلك الطابور، ووجهي والدَيَّ، ووجه ذلك القائد. لسنواتٍ حلمتُ بكيف يمكنني أن أعذِّب وأقتل ذلك الرجل. لسنوات، لم أكن أستطيع النوم إلَّا إن كانت هناك سكين تحت مخدَّتي. هل تفهم؟ والآن، لا أريد أن أفكر في الأمر. لا أريد أن أفكر في أي شيء. من أجل سلامتي العقلية؛ أريد أن أتظاهر أن ذلك لم يحدث قَطُّ. أقول هذا لك أنت فقط."

(II)

1

كان سميان متمددًا على كرسي، وساقاه الطويلتان ممدودتان أمامه، يتناول قهوة ما بعد العشاء في شرفة لا شوب مع لُو، وكلايد، وبعض البرازيليين.

كان الوقت مساءً، وأمضى كلايد اليوم بأكمله في شرب مُفرِط كعادته. نظر إليهم بعينين محتقنتين بالدماء. "چينكس اللعينة. يا تُرى أين هي. كل ما أعرفه عن تلك العاهرة هو أنها في الفِراش في مكان ما مع شخص آخر."

قال سميان: "بينكما حبٌّ كبير أنتما الاثنين. بالمناسبة، ماذا تفعلان بابنتكما؟"

اتسعت عينا كلايد. "تأخذها چينكس معها. تلك هي الحقيقة بأمانة شديدة. تجعل الطفلة تنتظر بالأسفل في الردهة، أو في مقهى بالجوار! هل سمعت بأم مثل هذه من قبل؟" حملق في كأسه،

وشاربه الأشقر يرتعش، وقد غاب في أفكار متلاطمة. حرَّك رأسه إلى أعلى، ونظر إلى سميان مرة أخرى، كأنه تذكَّر شيئًا. "أنت ولد طيب، يا سميان. صديق حقيقي. تروق لي، هل تعرف ذلك؟ حين نعود إلى الولايات، أريدك أن تأتي كي تراني، وتقابل أهلي."

"نعم، يمكنني أن أرى نفسي أرنُّ جرس باب بيتك هناك في چورچيا، أو في ذلك المكان الذي تأتي منه، يا كلايد."

"لا، لا، أنا صادق. أريدك أن تزورنا. أن نكون صديقين، تمامًا مثلما نحن هنا."

تدلَّت المباني العتيقة في ميدان كونترسْكارْب، كأنها على وشك التداعي. تعلَّق قمر برتقالي في الأعلى، منيرًا الأشجار، والمراحيض نفاذة الرائحة، والمتسكعين. تذبذب الهواء بضجيج المحركات، والأصوات، وآلات البينبول، والروك آند رول الآتي من صندوق موسيقى.

تمطَّى سميان، وألقى نظرة سريعة داخل المقهى. ابتسم له جزائري يقف عند البار، ولوَّح له. بدا الوجه مألوفًا، لكن سميان لم يستطع أن يتذكر الشاب. نهض، وسار إلى الداخل.

"ألا تتذكرني؟" سأله الرجل بالفرنسية. "كنت في البار حين تشاجرت مع جزائري، وكنت أجلس في الشرفة في اليوم التالي حين ناداك حسين - الرجل الذي دعاك رجلًا أبيض. هل تذكر؟"

"أوه، أتذكر بالطبع،" قال سميان، مع ضحكة عصبية. وعاد صدى خافت للخزي. يتذكَّر الرجل الآن - الوحيد من بين الجزائريين في الشرفة الذي نظر إليه بدرجة من التعاطف.

"اسمي أحمد. هل لديك دقيقة؟ ماذا ستشرب؟ كنت آمل أن أصادفك مرة أخرى."

جلسا. زفرت عجوزٌ تجلس إلى طاولة قريبة، مستنكرة. صدى من أمريكا، فكَّر سميان، وقد أثار احتقار المرأة لأحمد غضبه.

بدا أحمد مثل سميان إلى حدٍّ ما. كان له الوجه النحيف ذاته، والعينان البنيتان العميقتان؛ وكان مديد القامة، بيدين طويلتين، عصبيتين. لكن بشرته كانت سمراء، لا سوداء، وشعره، رغم أنه كان مجعدًا جدًّا، لم يكن شَعرَ زنجيٍّ.

سأل سميان: "لماذا أردت أن تراني مرة أخرى؟"

قال أحمد بنبرة اعتذار: "كان حسين قاسيًا جدًّا عليك. بدوت حزينًا جدًّا، وموجوعًا. أردت أن أخبرك أن كل شيء على ما يرام. وعلى أي حال، لا يمكنك أن تعرف أحوالنا."

"أعرف الآن."

"نعم، هذا جيد."

كانت عينا أحمد واسعتين، وصريحتين. ابتسم باستمرار بينما يتحدَّث، وهو يومئ معتذرًا، وعيناه لا تغادران وجه سميان. مال إلى الأمام، بانتباه واهتمام، وقتما تحدَّث سميان.

قال: "أنا مسرور أننا تقابلنا هنا. لم أتحدث قطُّ مع أمريكي أسود من قبل. شعرتُ بالتعاطف معك حين رأيتك تلك المرة الأولى. أخبرت حسين: 'كيف يمكنك أن تتحدَّث مع هذا الرجل بهذه الطريقة، إن له بشرة سوداء'، وردَّ حسين: 'هو أمريكي أسود. هذا يعني أنه يفكر مثل رجل أبيض.'"

مال أحمد إلى الأمام، وهو يبتسم بخجل. "ما أعجبني - ربما لأنني شعرت أننا متشابهان على نحو ما."

"ربما. على أي نحو؟"

"شيء ما رقيق." راقب وجه سميان، كأنه يخشى أن يُسيء إليه. أردف، بعد أن اطمأن: "بدوت حساسًا. كشخص تنفِّره الكراهية والعنف."

ابتسم سميان. "نعم، قد نكون متشابهين جدًّا على ذلك النحو."

"هل تفهم، أعرف البعض ممَّن اكتسبوا ميلًا إلى ذلك، إلى العنف والكراهية. جنود الفيلق الأجنبي في الجزائر، إنهم هكذا. رجال من جميع البلدان، يستمتعون بالنهب، والاغتصاب، والتعذيب، والقتل. تلمع عيونهم بالمتعة. بعض رجال الشرطة هنا في فرنسا على هذا النحو، أيضًا. نحن لسنا كذلك."

تفحَّص وجه سميان، كي يتأكد أنه فهم. بدا أن أحمد يتحدَّث عن شيء يهتم به كثيرًا. "تعرف، العنف، الوحشية، يتعين أن يُستخدما أحيانًا حين لا يكون هناك طريق آخر. الطريقة التي نقاتل بها هذه الحرب هي طريقة ضرورية - لا يوجد مفر. لكن يجب ألَّا يكتسب المرء ميلًا إليها. يضايقني هذا؛ لا يروق لي الإرهاب، والقتل، وزرع القنابل. إنها أمور ضرورية، نتصرف دفاعًا عن النفس فعلًا. أنت، كرجل أسود في أمريكا، لا بُدَّ أنك شعرت بالغضب مرات كثيرة، لكنني متأكد أنك لا يروق لك أن تكره طوال الوقت. يروق ذلك لحسين، كراهية الفرنسيين. لكن أنت وأنا، نحن مختلفون عنه. في كراهيتنا للعنف، نحن متشابهون."

رشف أحمد قهوته. تذكَّر سميان أن المسلمين نادرًا ما يشربون الكحول. أردف أحمد: "لا يحب أخي العنف، لكنه يستخدمه. إنه في الجزائر مع وحدة جيش في جبهة التحرير الوطني الجزائرية. هل سمعت بها؟"

"لا يوجد شيء آخر في الجرائد."

"لأربعة أعوام يقاتل أخي في الجبال! جُرِح سبع مرات، ورغم هذا ما زال يقاتل. أتوقع، في أي يوم، أن يأتيني نبأ موته. اثنان من أبناء عمومتي تُوفِّيا، البقية وكذلك أبي وأعمامي إمَّا ماتوا وإمَّا اختفوا قسريًّا في المعسكرات، لا نعرف أيهما. ينبغي أن أكون أنا أيضًا هناك في الجبال. أقول ذلك لنفسي طوال الوقت، ينبغي أن أكون هناك. على أي حال، أنا طالب، وجبهة التحرير تقول لي إنني لا بُدَّ أن أتلقى تعليمي؛ فسوف يحتاجون إلى رجال مدربين حين تصير الجزائر حرة. أقوم ببعض الأشياء هنا ... أشياء صغيرة. لكن هذا لا يكفي." ضحك فجأة، وبدا حديثَ السن جدًّا حين تملأ الحيوية وجهه. "أنا مجرد مثقف برجوازي! هذا هو ما يقوله لي بعض أصدقائي. هذا هو ما يعتقده حسين."

"ماذا تدرس؟"

"الطب. وأكتب. أريد أن أكون كاتبًا." تجهَّم. "لكن يبدو ذلك بلا جدوى بينما يموت الكثير من الناس."

غادرا المقهى معًا. لم يعد لُو، وكلايد، والبرازيليون في الشرفة. قال أحمد: "أي طريق ستذهب؟"

"نحو اللوكسمبورج."

"يمكننا أن نقطع جزءًا من الطريق معًا."

سلكا شارعًا ضيقًا. شعر سميان بالراحة لحديثه مع أحمد. كانت كلمات حسين قد التصقت بذهنه. بدا أن الحديث مع أحمد قد عدَّل الأمور مرة أخرى. دندن لنفسه بأغنية سبريتشوال:

ذهبت إلى الصخرة كي أخبئ وجهي؛
والصخرة هتفت: "لا يوجد مكان للاختباء،
لا مكان للاختباء ها هنا."

دارا حول البانتيون، ومرًّا أمام قسم للشرطة. كان رجل شرطة يقف في الحراسة في الخارج، وراء ساتر بارتفاع الكتف، وفي يده مدفع رشاش. حملق في أحمد وسميان.

بينما يقتربان من الناصية، قال أحمد بابتسامة: "كلَّما مررتُ بقسم الشرطة هذا أثناء الليل، وحدي أو مع جزائريين آخرين، يوجِّه الحارس تلك البندقية نحوي، ويأمرني بالدخول. يتفقَّدون أوراقي، ويسألون ما الذي أفعله في وقت متأخر جدًّا من الليل. لديهم كلمات جميلة من أجلي، مثل bicot أو melon، ثم يلقون بي في طريقي. كل مرة."

"ولماذا لم يفعلوها الليلة؟" سأل سميان، وهو يتوقع الرد.

"لأنني معك. مع شخص يبدو 'محترمًا'." ضحك. "كيف تجد ذلك، أن تكون 'محترمًا'؟"

"غريب."

"وأن تكون لديك سلطة كبيرة هكذا؟"

"غريب. أغرب شيء في العالم."

توقفا عند الناصية قبل أن يفترقا. قال أحمد: "ما رأيك في تناول العشاء معي غدًا مساءً؟ يمكننا أن نأكل الكسكس في مطعم جزائري."

"عظيم."

رتَّبا أن يتقابلا في التورنون، في السابعة.

2

أورفيوس يهبط إلى هارلم، فكّر سميان. عند محطة الباص في اليوم التالي، ترنّح چوي السِّكّير في اتجاههما، محملقًا في أحمد بفضول. كان چوي زنجيًّا أمريكيًّا، أشيب الشعر، بعينين محتقنتين بالدماء، موجود في باريس منذ نهاية الحرب، ويعمل كنادل في ملهى بيجال الليليِّ. تجهَّم في وجه سميان.

"أحتاج إلى خمسمئة، يا رجل. هل معك؟"

كان بيب قد قال إنه لا يوجد أحد في باريس يمكنه أن يتذكر رؤية چوي فائقًا. كذلك لم يره أحد يبتسم.

"نعم." أعطى سميان لچوي ورقة نقدية من فئة الخمسمئة فرنك.

أخذ چوي النقود غاضبًا. فاحت منه رائحة الكحول. "هذا لا يعني أنني فقير،" قال بعدوانية. "فقط ليست معي نقود الآن."

"طبعًا، طبعًا."

"سأردُّها لك حين أصادفك المرة القادمة."

"طيب،" قال سميان، وهو يعطي الورقة النقدية قبلة الوداع.

تحرَّك الباص في اتجاه الشمال من حي الطلبة. مرَّ بقصر العدل، وبالشارع المزدحم أمام مسرح سارا برنار، ومباني المكاتب الرمادية في منطقة البورصة، والبولْڤارات الكُبرى. صارت أشباح المقاهي العظيمة، حيث تجادل الرسامون والصحفيون بحرارة، حيًّا مُفضَّلًا لمتنزهي يوم الأحد، ومُزودًا باستوديوهات تصوير وأكشاك الأرصفة.

في اتجاه الشمال نحو هارلم. كلما ابتعد الباص شمالًا، كلما زادت رتابة المباني، والشوارع، والناس. متاجر رخيصة تبيع الملابس، والأثاث،

وأدوات المطبخ: "شروط مُيسَّرة، الدفع على عشرة شهور!" تزداد عتمة المقاهي، تصير الشوارع أضيق وأكثر صخبًا، ويشغل الأرصفة المزيد والمزيد من الأطفال. وقف رجال عاطلون عن العمل، بلا شيء يفعلونه، ولا مكان يذهبون إليه، في مجموعات متجهِّمة، لا جدوى منها، على نواصي الشوارع. دوَّت الموسيقى العربية من المقاهي المظلمة، أو من النوافذ المفتوحة لفنادق كئيبة. ثم فجأة، صارت الشرطة في كل مكان، تراقب الشوارع، العيون تتنقل بوقاحة من وجه إلى وجه، الرشاشات تتدلى من أكتافهم.

إنها مثل هارلم، فكَّر سميان، سوى أن هناك رجال شرطة أقل في هارلم، لكن ربما يحدث هذا أيضًا ذات يوم. مثل هارلم ومثل كل معازل العالم. كان للرجال الذين رآهم عبر نافذة الباص بشرة أكثر بياضًا، وشعرًا أقل تجعيدًا، لكنهم كانوا، في نَواحٍ أخرى، مثل الزنوج في الولايات المتحدة. لقد اتخذوا نفس الأوضاع: "التخزين" على النواصي، مستعدِّين ومرعوبين من "القلق" الذي يمكن دائمًا أن يحدث، العيون متجهمة ومرتابة، يرتدون بناطيل بسعر موحَّد، وقمصان زاهية، وأحذية ضيقة مدبَّبة. يكاد يسمعهم يقولون: "ماذا تفعل هذه الأيام، يا رجل؟" "فقط أُسيِّر أموري، فقط أُسيِّر أموري، يا رجل. أحاول أن أُبعد تشارلي العجوز عن ظهري." وتشارلي العجوز يجوب الشوارع، ملوِّحًا برشاشه. راقب سميان كل شيء، متذكرًا كيف كان الحال في شارع ساوث، وفي شارع لومبارد، مستشعرًا الإحباط والغضب القديمين اللذين لا يمكن تحمُّلهما، والخوف والتحدي. مَن كان يعرف شيئًا عن كل هذا؟ ماذا يعرف هؤلاء القوم عن هذا أو ذاك أو عن أي شيء؟ ومن كان حيًّا سوانا نحن، هنا، نحن ها هنا في الحضيض، من نشعر بصهد الحياة، وثقلها، في الحاضر المفرط في واقعيته، ونراقب مهرجين لهم شحوب الموتى يلعبون ألعابًا تافهة هناك في مناطقهم؟ هتف باعة جائلون على بضائعهم بالعربية: فاكهة، ملابس، خضروات.

تذكر عربات الكارو من طفولته في الشارع العاشر، الرجال المتعرقين وهو يثقبون البطيخ كي تستطيع تذوُّقه، ويفتحون السمك وينظفونه ويزيلون قشوره من أجلك، هاتفين في الصباحات: "خِرَق قديمة؟ ورق قديم؟ حديد؟" روائح الطعام الفاسد، وروائح الطبيخ التي تمتزج في الهواء، وتذكُّر كيف بدت له تلك الروائح - الدجاج المقلي، أو الخضرة، القمامة التي لم تُجمَع في الأزقة وفي مصارف المجاري. هاجمتهم الموسيقى العربية من كل الجهات. البلوز. أين كانت مغنية البلوز الآن؟ في المقاهي الموحشة، كان الرجال يلعبون على آلات البينبول، أو كرة القدم، أو يقفون أمام الطاولات يحملقون في لا شيء، وأمامهم فناجين القهوة الفارغة. لم تكن هناك نساء. والشرطة تجوب الشوارع، ووجوههم قاسية.

كان سميان مُدركًا أن أحمد يحملق فيه، صبيانيًا وعاقد العزم، مفتشًا عن ردود أفعاله، تمامًا مثلما فعل في ذلك اليوم حين نادى حسين على سميان.

"أين أنت؟" سأل أحمد.

"في موطني."

غادرا الباص، وشقا طريقهما ببطء عبر الشوارع الضيقة، المزدحمة، إلى مقهى/مطعم كبير. شعر سميان على الفور أنه بارز للعيان في بدلته الأمريكية المكوية جيدًا، وياقته البيضاء المنشَّاة. حملق فيه رجال يرتدون بناطيل رثة، وأحذية رياضية بالية. لم تكن نظراتهم عدائية، بل متسائلة. لا يمكن أن تثق بأي شيء في عالم يشبه غابة. كادت بشرة أحد الجزائريين أن تكون بنية مثل سميان، لكن كان بوسعك أن تدرك من العينين والشعر أن الرجل ليس زنجيًا. هارلم! هارلم! شعر سميان بخيبة أمل، كأنه توقَّع بالفعل أن الجزائريين جميعهم سوف يبتسمون ويسارعون إلى معانقته، هاتفين: "يا شقيق!"

ظلوا متباعدين، يتفحصونه بحذر، كما كانوا ليفعلوا مع فرنسي - أو أمريكي.

جلسا، وطلب أحمد الكسكس. أحضر النادل طبقًا ضخمًا من السَّميد الساخن، ولحم الضأن، صبَّ فوقه مرقة حمراء مليئة بالخضروات والفلفل الحار. لم يكن سميان قد تذوَّق هذا الطبق العربي من قبل. لسع لسانه، مثل الشواء الحار في شارع ساوث أو جادَّة لينوكس. تلفَّت حوله في المقهى. لم يكن أحد يعيره اهتمامًا الآن. شعر بالمزيد من الراحة.

قال أحمد: "هل الحال هكذا ... في الأحياء السوداء في أمريكا؟"

"نعم." فكَّر للحظة. "يوجد ضحك أكثر بين الزنوج، رغم هذا."

"ليسوا في حرب. ليس النوع الذي يتضمَّن إطلاق نار."

"لا."

لم يبدُ أحمد مثل بقية الجزائريين. كانت ملابسه أفضل، وأكثر مرحًا، وانفتاحًا من بقية الجزائريين في المطعم.

"عائلتك ميسورة الحال؟" سأل سميان.

تورَّد أحمد. "نعم، هم تُجَّار في منطقة القبائل. أنا محظوظ، يرسلون لي نقودًا للدراسة." تلفَّت في أرجاء المكان. "نصف هؤلاء الرجال بلا عمل. المحظوظون الذين يعملون هم عمال؛ يحفرون خنادق أو يفعلون أشياء أخرى لا يريد الفرنسيون فعلها. عِمالة رخيصة، نحو ثلاثين ألف فرنك في الشهر. كم ذلك بالدولار؟"

"نحو خمسة وستين."

"ورغم هذا، ذلك أكثر بكثير ممَّا قد يكسبونه في الجزائر. نحو خُمس الجزائريين في الديار يعيشون على النقود التي يرسلها هؤلاء الرجال."

أيـن ماريـا؟ لم يعـرف سـميان لمـاذا فكّـر فيهـا فجـأة، أو لمـاذا لم يفكـر فيهـا قبـل ذلـك. ربمـا هـي في أُنْجـان، مـع "أمهـا الباريسـية،" تقامـر في الكازينـو. عالَـم آخـر.

"لا بُدَّ أن الحال صعب، بدون نساء،" قال سميان.

هـزَّ أحمـد رأسـه. "تبقـى النسـاء في الديـار. سـيكلفن نقـودًا هنـا. ربمـا تتسـاءل مـا الـذي يفعلـه الرجـال بـدون نسـاء؟"

"نعم."

"أغلـب الوقـت، يسـتغنون عنهـن. أحيانًـا، في يـوم الراتـب، يذهبـون إلى عاهـرة، إن قبلتهـم. أغلـب الفرنسـيات لا يخرجـن مـع جزائريـين. البعـض مـن ذوات الشـخصيات القويـة قـد يفعلـن، لكنهـن الأقليـة."

تذكـر سـميان أنـه لم يَـرَ قـطُّ جزائريًّـا مـع امـرأة فرنسـية. لا يمكنـك أن تقطـع أحـد شـوارع الضفـة اليسرى بـدون أن تصـادف أزواجًـا مختلطـين، سـودًا وبيضًـا، لكـن السـود هنـا، أفارقـة كانـوا أو مـن الهنـد الغربيـة أو أمريكيِّـين، ليسـوا عـمالًا، ونـادرًا مـا يكونـون فقـراء. هـم طـلاب، وفنانـون، ومهنيـون. إنهـم "محترمـون".

شـعر سـميان بعـدم الراحـة؛ لقـد أصبحـت الحيـاة أيـسر مـمَّا ينبغـي بالنسـبة لـه في باريـس. في ذلـك الأصيـل، كان قـد أنهـى المقـال الأخـير مـن سلسـلةٍ مـن سـتِّ مقـالات عبثيـة عـن الحيـاة العاطفيـة للانطباعيـين، وأرسـلها بالبريـد إلى المجلـة. وبالرغـم مـن أن المقـالات كانـت سـخيفة، فقـد داخـل سـميان شـعورٌ بالإنجـاز لمجـرد أنـه فعـل شـيئًا مـا. طاعـون المسـتعمرة الأجنبيـة هـو التبطُّـل. سيُرسَـل شـيك لـه خـلال أسـبوع أو نحـو ذلـك. يمكنـه أن يدفـع إيجـار شـقته، ويتسـكَّع في المقاهـي، ويذهـب إلى المسـرح، أو إلى مطاعـم جيـدة، وقتـما يريـد. تلفَّـتَ حولـه، وفكـر في حسـين، الجزائـري الـذي دعـاه "رَجُـلًا أبيـض".

قال: "أودُّ أن أرى حسين مرة أخرى."

ابتسم أحمد. "أخبرته أننا قد نمرُّ عليه. يسكن بالقرب من هنا."

"والرجل الذي تشاجرت معه؟" شعر بالحرج مرة أخرى، وهو يذكر الأمر.

"لقد اختفى."

"اختفى؟"

"تبدو مندهشًا. ذلك يحدث كل يوم. يحدث في الجزائر أكثر من هنا، لكنه يحدث هنا في فرنسا أيضًا. ربما قُبض عليه في مداهمة، وأُرسل إلى معسكر اعتقال."

صُعِق سميان من الفكرة، ومن العفوية التي قالها بها أحمد. "لستَ جادًّا. توجد معسكرات اعتقال في فرنسا؟"

بدا أحمد مندهشًا. "لم تكن تعرف؟ الجرائد نفسها تتحدث عنها. إنها تُدعى 'معسكرات احتجاز'، لكن الفرق لغوي إلى حدٍّ كبير. يوجد اثنان بالقرب من باريس، والمعسكرات الأخرى في الغرب الأوسط وفي الجنوب. ظننت أن الجميع يعرفون. يختفي الجزائريون كل يوم، وتعرف بعدها أنهم في هذا المعسكر أو ذاك. ليست لطيفة جدًّا، تلك المعسكرات. لا توجد غرف غاز، بالطبع، لكن الحراس والمسؤولين ليسوا لطافًا. الأمر أسوأ في الجزائر. هناك طُوِّر التعذيب إلى فنٍّ رفيع. هل ننهي القهوة ونذهب إلى غرفة حسين؟"

3

كان لمنزل الغُرَف المستأجرة، حيث أقام حسين، ممرَّاتٌ ضيقة مظلمة، وجدران الجصِّ الملطَّخة كانت رطبة وقذرة إلى حد أن سميان تجَنَّبها وهو يصعد الدَّرَج. امتلأ الهواء العفن بالموسيقى العربية الحزينة، وبروائح الطعام المطهو. كل الأبواب مفتوحة على اتساعها، وبمقدورك رؤية مجموعات من الجزائريين يتحدثون بأصوات منخفضة، على الكراسي أو الأسِرَّة، تحت مصابيح كهربائية عارية. سكن حسين في الطابق الخامس. كانت غرفته صغيرة، بمصباح كهربائي مكشوف يتدلى من السقف؛ ورق الحائط ممزَّق، ومُبقَّع، ويوجد مشمع بال على الأرض. لم تكن هناك مرتبة أو ملاءة فوق السرير الضيق؛ بل فُرِشت بطانية إضافية، تؤدي دور مرتبة، فوق السرير. كان سميان متأكدًا من وجود حشرات فراش، وربما براغيث. رائحة الطعام الذي كان يُطهى على موقد الكحول تحت مغسلة الوجه، كانت خانقة.

تبسَّم حسين، وصافح سميان. "مرحبًا بك في الفردوس. كيف حال الرجل الأبيض؟"

ابتسم سميان. "الرجل الأبيض على ما يرام."

جلس أحمد وسميان على كرسيين مهتزَّين، بينما سخَّن حسين وعاء قهوة على الموقد. تَلفَّت سميان في الغرفة. هناك طاولة مائلة إلى جانب، وخزانة، وحقيبة. حوض الغسيل مفصول جزئيًّا عن الحائط. لم يكن ليودَّ أن يعيش هنا، فكر، لكنه رأى غرفًا أسوأ في شارع ساوث.

قال أحمد: "هذه غرفة حسين جزئيًّا فقط. هي غرفته لثماني ساعات في اليوم. يحصل رجلان آخران عليها لثماني ساعات لكل منهما. ينامون بالدور. هكذا، يقسمون الإيجار على ثلاثة. لا يستطيع واحد منهم أن يدفع الإيجار بمفرده."

نهض سميان، وذهب إلى النافذة. كانت الدنيا تظلم الآن. تحت مصابيح الشارع رأى رجالًا خاملين، ورجال الشرطة المارين برشاشاتهم. ذلك كان حي Goutte d'Or الباريسي، هذا ما كان أحمد قد أخبره. "قطرة من الذهب." ابتسم بتهكُّم.

"هل يتعيَّن على الجزائريين أن يعيشوا في أحياء محدَّدة؟" سأل، وهو يلتفت.

هزَّ أحمد كتفيه. "لا يوجد قانون، إن كان ذلك ما تعني. فقط نُقابَل بـ 'آسف، لا توجد غرف؛ آسف، المكان بأكمله مشغول.' تعرف ما أعني؟"

"أوه، نعم. أعرف."

وضع حسين فنجانين مشروخين على الطاولة. "تعليم الرجل الأبيض،" قال، وهو يلقي نظرة على سميان. لكن الآن لم تكن هناك عدوانية في معاكساته. وبينما يصب القهوة، قال: "آسف، لا يوجد كونياك أو نبيذ. كنت مُفلسًا. ثم إنه لا يُفترض للمسلمين أن يشربوا."

شربوا القهوة في صمت. نظر سميان إلى الرجلين. بشرتهما كانت بيضاء، حسنًا: يبدوان مثل السلاقيين الجنوبيين. الطريقة التي دعاه حسين مازحًا "رجل أبيض" كانت سخيفة، فكَّر ... كأنه هو، حسين، لم يكن أبيض! كان واحد من البرازيليين قد شرح لسميان أنه في أمريكا الجنوبية حين يصير هندي أو زنجي ثريًّا، أو يصبح جنرالًا، كان يُعتبر رسميًّا أبيض. ذلك كان جنونًا. العالم هرَمٌ، وفي قمته كانت الشعوب العظمى الغنية – الأوروبيون الشماليون، الإنجليز، وحديثًا الأمريكيون. لقد فرضوا مقاييسهم على بقية العالم. هنا، الرجل الأسود هو الأدنى؛ هناك الأدنى هو العربي؛ وهناك هو اليهودي، وهناك الآسيوي – طبقًا لأين تكون. ومَن أصبحوا أثرياء، أو عظماء، عبر حادثة تاريخية هم من يحكمون. خلال ذلك الوقت المعين.

قال حسين: "حسنًا، ما رأيك في قلعتنا؟"

"تُذكِّرني بمساكن العشوائيات في هارلم أو فيلادلفيا."

هزَّ حسين رأسه. نظر إلى سميان بتصميم وقال: "على الزنوج في أمريكا أن يثوروا، مثلما فعلنا."

قال سميان: "ليست لدينا جزائر كي نحرِّرها."

"لديكم بلد. إفريقيا."

كان من الصعب أن يشرح. إفريقيا بعيدة، في الزمن، وكذلك بحساب الأميال، وأغلب الزنوج الأمريكيين، رغم حماسهم لحركة الاستقلال في إفريقيا، سيشعرون أنهم أجانب هناك، وكذلك سيُعامَلون. لقد أصبح الزنجي الأمريكي، بسبب تجربة محدَّدة، شيئًا محددًا - لا إفريقيًّا، ولا أمريكيًّا عاديًا. يمكن للأمور أن تتغير، الأمور تتطور، وربما ذات يوم ...

قال أخيرًا: "سيذهب كثير من الزنوج إلى إفريقيا. لكن ليس جميعهم. لا يمكنك أن تجعل ذلك برنامجًا ثوريًّا."

"وأنت؟"

"لا أعرف إلى أين أنا ذاهب."

"وكيف تشعر، وأنت تعيش هنا، رجل أسود في بلاد بيضاء؟"

"كرجل بدون بلد. مثل اليهودي التائه."

"لا يمكن أن يستمر ذلك إلى الأبد."

هزَّ سميان كتفيه. "لم أتمناه. ولا يتوقف الأمر عليَّ أنا."

كانت هناك طرقات صاخبة متتابعة. انفتح الباب، وأسرع جزائري مهتاج بالدخول. "حسين!" أطلق شيئًا بالعربية، ثم جرى إلى الخارج مرة أخرى، مغلقًا الباب خلفه. كان هناك وقع أقدام تجري محمومة في الردهة. نظر سميان إلى أحمد متسائلًا، ومنزعجًا. قفز حسين واقفًا،

وبدأ في دسِّ أوراق تحت تجويف سري في درج الخزانة. قال أحمد لسميان: "مداهمة من الشرطة. هل معك جواز سفرك؟" "نعم." سمعوا وقع أقدام ثقيلة تصعد الدرج، ثم طرقات صاخبة على الأبواب، تتبعها الكلمة المستبدة الشرطة! دوَّت الطرقة على بابهم. فتح حسين الباب بهدوء.

أظهر مفتش يرتدي ملابس مدنية شارته. وراءه، وقف رجل شرطة برشاش. دخل المفتش، ووقف الشرطي في المدخل، وإصبعه قريبة من الزناد.

"الأوراق،" قال المفتش. نظر إليهم رجل الشرطة للحظة ثم بدأ، بينما نظر المفتش في أوراقهم، في تفتيش الخزانات والأدراج.

نظر المفتش إلى سميان، ودقَّق النظر. "لستَ عربيًّا."

"لا."

"دعني أرى أوراقك." أطلعه سميان على جواز سفره. قال المفتش: "ماذا تفعل هنا؟"

"أزور صديقًا."

نظر إليه المفتش بريبة. أشار إلى رجل الشرطة، الذي اقترب وتحسَّس سميان تحت الذراعين وعند الخصر كي يتأكَّد أنه لا يحمل سلاحًا.

"هل تعمل لصالح الـ FLN؟" سأل المفتش، وهو يفحص وجه سميان، عابسًا.

"لا،" قال سميان، وقد تذكر أنها الحروف الأولى من "جبهة التحرير الوطني الجزائرية".

استمرَّ المفتش في فحص وجهه. "أنت أجنبي. لا أنصحك بأن تتورَّط في شؤوننا الداخلية؛ هل تفهم ما أعني؟ يمكن لك أن تُطرد من البلاد لأقل شكٍّ. هل تفهم؟"

"نعم."

"لتبقَ بين الأجانب. لديكم المقاهي اللطيفة هناك في الضفة اليسرى. ابقَ بعيدًا عن المشاكل. تمام؟"

"نعم."

أشار المفتش إلى رجل الشرطة، وبعد أن التفتا وألقيا نظرة أخيرة على سميان، غادرا.

كان المزيد من رجال الشرطة في الغرف الأخرى. عبر الجدران الرقيقة كالورق، كان بإمكانك أن تسمعهم يوجِّهون أسئلة حادة، أو يفتحون أدراجًا. بدا المنزل بأكمله حيًّا. كاد سميان أن يسمع له طنينًا. غمز حسين لسميان مع ابتسامة. ذهب أحمد إلى النافذة.

"لديهم جيش بالأسفل هناك،" قال. التفت إلى سميان. "أنا آسف. لا أريد أن أورِّطكَ في مشاكل."

"مسرور أنني هنا. أشعر أنني ... عُمِّدتُ."

ابتسم حسين. "هذه هي الروح."

لاحقًا، رأوا، عبر النافذة، الشرطة تحمِّل عشرين أو نحو ذلك من الجزائريين في عربات الدورية بالخارج.

"إلى معسكرات الاعتقال،" قال أحمد.

"أو ما هو أسوأ،" قال حسين.

"ماذا تقصد بما هو أسوأ؟" سأل سميان.

"الـضرب. التعذيـب، ربمـا. كي يحصلـوا عـلى معلومـات عـن جبهـة التحريـر."

لم يبـقَ أحمـد وسـميان لوقـت طويـل بعدهـا. عنـد البـاب، تبسَّـم حسـين، وصافـح سـميان. "لسـت سـيئًا جـدًا بالنسـبة لرجـل أبيـض،" قـال. في طريقهـما إلى محطـة البـاص، أوقَفَـت الشرطـة أحمـد وسـميان مرتـين، وطلبـوا في كل مـرة أن يـروا أوراقهـما.

(III)

1

"تعالوا على العشاء الليلة،" قال بيب للفتية. "لقد علمني ليروي هينز مؤخرًا كيفية طهو ذلك الدجاج المشوي الرائع الذي يعده في مطعمه في بيجال. سيلسع ألسنتكم."

كان بيب رجلًا مُحبًّا لقومه. لم يكن يستمتع بشيء أكثر من الجلوس في شقته المريحة، والدردشة، والمزاح مع أفراد المستعمرة الزنجية في باريس. كان مسكنه حميميًّا، بمدفئة تهدر في الشتاء، ومقاعد ناعمة بمساند، وأسطوانات جيدة، ودائمًا الكثير ليؤكل ويُشرب. كان مضيفًا مطبوعًا؛ يمكنك القدوم في أي وقت كي تراه، وسيجعلك تشعر أنك محلُّ ترحيب.

دخل بيب المطبخ لإعداد العشاء، وفي غرفة المعيشة، جلس يدردش ويمزح كلٌّ من سميان، وماريا، وبينسون، وداج، وهارولد، وتشكيلة من النساء: فتاتان إنجليزيتان، پات وپاميلا؛ رسامة فرنسية تُدعى

كلير، صاحبة بيب السويدية ماريكا، ومغنيتا البلوز الزنجيتان، ماتيلدا وجيرتي. كانوا جميعًا يشربون بيرنو، أو نبيذًا أحمر.

كانت ماتيلدا، وهي مغنية بلوز نحيفة صوتها أجش غنَّت فيما مضى ضمن فرقة كاونت بيسي، تنظر إلى داج، وتهز رأسها.

"اسمعوا جميعًا،" قالت، "لديَّ إعلان. فتانا داج، هنا، ورَّط نفسه حتى أذنيه في علاقة غرامية مع وريثة أمريكية! قومي شراميط!"

غمزت لجيرتي، التي كانت هائلة، بعينين لامعتين وضحكة من القلب. "وريثة، هل قلتِ؟ وريثة أمريكية؟ وريثة أمريكية بيضاء؟ هل تقصدين أن تقولي لي إن فتانا داج هذا ..." نظرت إليه، وهي تهز رأسها في عدم تصديق ساخر. "ما كل هذا الذي يقولونه عنك، يا داج؟ ظننت أن لديك فتاة فرنسية صغيرة لطيفة."

تبسَّم داج بإحراج. وقال، بلكنته الجنوبية الثقيلة: "حسنًا، ليست وريثة بالضبط، لكن لديها القليل من المال. أبوها رجل مهم في وزارة الخارجية."

"وزارة الخارجية!" صارت عينا جيرتي في اتساع كعكتين. "ماتيلدا، هل سمعتِ ما قاله الرجل؟"

"سمعته! سمعته!"

أجالت جيرتي نظرها في الغرفة، فاغرة الفم، ثم عادت إلى داج مرة أخرى. "الآن، يا داج، أنصِت لي، أنا شقيقة ومصلحتك تهمني. لتعد إلى ديارك في الولايات قبل أن تورِّط نفسك في مشاكل حقيقية. هل تسمعني؟ إلى الديار في الولايات، ولتجد لنفسك بنت بلد، صغيرة، ولطيفة، وبسيطة من ... أين كان ذلك المكان الذي تقول إنك أتيت منه؟"

"توجالو."

"توجالو!" تلوَّت جيرتي من الضحك. "توجالو أين؟"

"توجالو، مسيسيبي ..."

"هل تسمعونه، هل تسمعونه؟" هتفت جيرتي. "يا بيب، مِن مكانك هناك، هل تسمع داج هذا؟"

أقحم بيب رأسه من وراء الباب. "سمعته." حملق في داج كأنه يرى شبحًا. ابتسم داج ابتسامته المحرجة، واعتدل في جلسته، وقال ببطء في لكنته المسيسيبية الممطوطة، وهو ينظر إلى الأرض: "لا يوجد أي خطأ في هذا هنا."

حملق بيب في داج مرعوبًا. "أنصِت لي، يا بُنيَّ،" قال، "سأعطيك نصيحة. من الأفضل لك أن تأخذ مؤخرتك السوداء وتعود إلى توجالو، حيث يمكن للسيناتور بيلبو أن يُبقي عينًا عليك!"

تجهم داج. "بيلبو مات."

"ما هذا!" هتف بيب.

"قلت إن بيلبو مات."

أجال بيب عينيه كأنه هو على وشك الموت. "يا فتى، هل سمعتك تقول بيلبو، حاف هكذا، بدلًا عن أن تقول: 'السيد بيلبو، سيدي،' مثلما علَّمَتكَ الوالدة!" كان بيب يقف في المدخل، ويداه في وسطه، ثم هز رأسه يأسًا وحنقًا، وعاد إلى المطبخ.

رجع حاملًا طبقًا من الدجاج المشوي، وسلطانية بها خُضرة.

"هيا، اهجموا عليها!" قال بيب.

بدا بينسون مذهولًا. "بيب، أين بحق الجحيم وجدت خضرة في باريس؟"

ضحك بيب. "الرجل محبٌّ قومه يجد خضرة في أي مكان. لا يُعلى عليها، أليس كذلك؟ انظر، بائعو الخضروات الفرنسيون يرمونها؛ لهذا فقد عقدت اتفاقًا مع بائع خضرواتي الشخصي." ألقى نظرة ماكرة على بينسون. "عقدت اتفاقًا مع جَزَّاري أيضًا. يحتفظ بضلوع إضافية من أجلي. برخص التراب."

كفَّ داج عن التجهم، وصبَّ النبيذ. "السيدات أولًا. إنها عادة قديمة نبيلة بيننا نحن الرجال المهذبين الجنوبيين."

قالت ماتيلدا: "الجدة المهذبة لهذا السيد الجنوبي المهذب غسلت السراويل التحتية لسكارليت أوهارا!"

هَدؤوا لتناول الطعام.

استرخى بيب في جلسته، وهو يمسح يديه وفمه بمنديل، وقال: "هؤلاء الفرنسيون شيء آخر! قابلت أحد الفتية منذ أيام، كان قد قاد السيارة إلى باريس من روما جالبًا معه رجلًا آخر وامرأتين. لم يكن القطان يعرفان البنتين معرفة جيدة؛ لهذا حين توقَّفا أثناء الليل في فندق فرنسي، أخذا غرفتين: واحدة للفتاتين، والأخرى لهما. ينحني مدير الفندق ويبتسم، لكنه لا يفهم الإنجليزية جيدًا، وحين يحمل الحقائب إلى أعلى، يضع إحدى الفتاتين مع صديقي، والأخرى مع الرجل الآخر. يقول صديقي: 'انظُر، لقد ارتكبت خطأً صغيرًا هنا ...' وقبل أن يتمكَّن من استكمال كلامه، يعتذر المدير، يحمرُّ وجهه وكل هذا، ويسارع بتغيير الحقائب، مبدلًا الأشياء كي يكون صديقي مع الفتاة الأخرى والعكس. 'لا، لا،' يقول فتاي، 'سأنزل في الغرفة مع الرجل، والفتاتان ستنامان معًا.' يعتدل المدير تمامًا، ويقول: 'سيدي! لن نسمح بذلك في فندقي!'"

ضحك الجميع سوى داج. غمز بيب إلى الآخرين، ثم قال: "ما الحكاية، يا توجالو، لم تفهم المقصود؟"

"لا،" قال داج، وهو يحملق شاردًا كأنما ليصيغ أفكاره. "ومع هذا، فقد وصلني دائمًا انطباع بأن الفرنسيين واسعو الأفق بخصوص الميول المثلية."

انفجر الضحك مرة أخرى. ألقى سميان نظرة على ماريا، كي يرى إن كانت تتبع الحوار. كانت شفتاها مفروقتين في ابتسامة، ثم نظرت في اتجاه سميان. غير معقول، تأثيرها عليه! كانت متحفِّظة، وكتومة، رغم سنها. همس بشراسة، عدة مرات في الفِراش: "أحبك!"، محاولًا بلا جدوى أن يجبر الكلمات نفسها على الخروج من بين شفتيها. واشتكى بغضب، ذات مرة، من تحرُّزها من أن تلزم نفسها بكلمات، فهزَّت كتفيها بنفاد صبر متوتر. "لماذا ندمِّر الأشياء بتعريفها؟" قالت.

2

بعد السلطة والحلوى، جاءت القهوة والكونياك. سحب بيب أنفاسًا من سيجار، وقال: "تعرفون، تلك القصة جعلتني أفكر في الفرق بين الفرنسيين والأنجلو ساكسونيين، خصوصًا الأمريكيين، حينما يتعلق الأمر بالجنس. موضوع شرموط. لقد تنقَّل عقلي بين شتَّى الأسباب التاريخية للَخبَطة الأنجلو ساكسونيين. الجو البارد، المطير، كإحدى النقاط. ثم أنهم كانوا همجًا حتى وقت متأخر إلى حدٍّ ما، إلى أن قرَّ قرار الرومان باستعمارهم، وتحضيرهم. ثم التصنيع المبكر وكل هذا الهراء عن المواد الخام، عن الاستعمار. انظروا، أعرف الأسباب التاريخية لكثير من مشاكلهم، بما فيها لماذا هم عنصريون. لكنني فكَّرت في تلك القصة، وأدركت التفسير: أحد أسباب حالهم يأتي من تفكيرهم الغريب في الجنس."

نظرت الفتاتان الإنجليزيتان إلى بيب، بتحفُّز، مستعدتان لتقديم دفاع. ابتسمت ماريا لسميان؛ لقد سمعا بيب يتفلسف من قبل. مسح بينسون أنفه، والترقُّب على وجهه - كان يحب أي كلام ضد البيض.

"إنها تلك البيوريتانية،" قال بيب. "أي نوع من الملاعين يمكنك أن تربي حين تنشئهم ليؤمنوا أن الفعل الأكثر طبيعية في العالم قَذِرٌ وخاطئ؟ فكروا في ذلك! إن علمتم هذا للأطفال، إن كان ذلك هو الإحساس المنتشر في الهواء من حولهم، لا يمكنك أن تتوقَّع أنهم سيتخلَّصون منه فقط لأن واعظًا تمتم، ذات يوم رائع، ببضعة كلمات، وردوا هم 'أوافق'. إن كان قذرًا وخاطئًا قبل الزواج، فهو إذًا قذر وخاطئ بعد الزواج. من المفترض أن تتزوَّج العذراء وتنام مع العاهرة. إنها لخبطة، يا رجل، لخبطة.

الآن، خذوا موقفهم من الزنوج. أعرف أن المشكلة العِرقية لا تأتي من الجنس، لكن الجنس صار جزءًا منها. لأن الأمريكيين البيض، معظمهم، يعرفون في أعماقهم أن علاقاتهم مع زوجاتهم ليست كما يجب أن تكون، ويعرفون أن الزوجات غير مُشبعات، ويعرفون في أعماقهم أنه ربما تتوق النساء إلى شيء آخر. ليس على الرجل الأبيض أن يقلق من معظم الرجال البيض الآخرين؛ لأن لديهم مثله نفس التنشئة والمشاكل. لكن النيجرز السود! مَن يتجولون هكذا بتلك الخصور المحلولة، ويرقصون كل تلك الرقصات المثيرة! مَن يروق لهم الطعام الطيب، والخمور، والضحك - كل تلك الأشياء الحسية المقيتة! هؤلاء النيجرز خَطِرون!"

استغرق بيب في التفكير، مدخنًا السيجار. كان مستمتعًا، وقد تابعه بينسون، وأنصت مستحسنًا كلامه. وكانت ماريا قد ضاعت في عالمها الخاص؛ والفتاتان الإنجليزيتان تستمتعان.

"لا يفكر الرجل الأبيض في ذلك واعيًا،" أردف بيب. "سيجرح ذلك كبرياءه كأحد أفراد العِرق الأعلى. ما يفكر به في عقله، وما يقوله بصوت عالٍ هو: 'سأحمي زوجتي البتول النقية الرقيقة البيضاء كزنبقة، وكل الزوجات الأمريكيات البتوليات البيضاوات كالزنابق من هذه الوحوش الشيطانية الكاسرة، النَّتِنة، المتلمِّظة!' لكن ما يخافه حقًّا في أعماق أعماقه هو: 'ربما ترغب زوجتي البتول النقية الرقيقة البيضاء كزنبقة، وكل الزوجات الأمريكيات الأخريات البتوليات البيضاوات كالزنابق، أن يسدلن شعورهن لمرة، ويُطوِّحن سيقانهن في الهواء، ويصرخن، ويصحن من اللذة معهم!' ثم يصيبه الذعر، يا رجل. وضروب العدوانية، والغضب العارم، داخله. يهاجم أي زنجي يراه مع امرأة بيضاء في الشارع. تلك المرأة البيضاء هي زوجته!"

"قل لهم، يا بيب!" قال بينسون. مدَّ يده على امتداد الطاولة. "صافِحني، يا رجل. أنت على حق!"

ضحك سميان. "والفرنسيون، يا بيب؟ ماذا عنهم؟"

"اللعنة، الرجال الفرنسيون لا يرتعبون من أي رجل أسود لأنهم ليسوا بيوريتانيين، ولأنهم يحبون الجنس هم أنفسهم. إنهم لا يؤمنون بأي أسطورة عن أننا أعظم العشاق، لأنهم يؤمنون بأسطورتهم هم الخاصة: أن الرجال الفرنسيين عشاق رائعون. يشعر الرجل الفرنسي أنه في جودة أي رجل آخر، وأفضل من الغالبية، في الفِراش. يظن أن الأمر سواء تحت الأغطية، سواء كنت أبيض أو أسود. كنت أعرف بنتًا ألمانية حينما كنت في الجيش بعد الحرب، وأخبرتني أن ضابطًا أمريكيًّا أبيض قال لها: 'إن حدث أن نمتِ مع رجل أسود، فلن تشعري بالإشباع مرة أخرى أبدًا مع رجل أبيض.' اللعنة، لا يوجد رجل فرنسي أحمق بما يكفي أن يقول شيئًا كهذا، أو يفكر فيه. سيشعر بالإهانة إن قالها أي شخص له، ولن يصدقه على الإطلاق. وهو على حق!"

التذَّ بينسون بالكونياك، وقد ضاقت عيناه الشاحبتان، وغامتا من الشُّرب. فكر سميان مرة أخرى، أي مأساة أنه توقف عن الكتابة؛ كان الرجل هادئًا جدًّا، لكن من الواضح أن لديه الكثير ليقوله.

"نيجر،" قال بينسون هامسًا، يكاد أن يكون لنفسه، وهو يدحرج الكلمة مثل زيتونة على لسانه. "على غرار ما قلته للتو، يا بيب، كنت أفكر في السياسة الخارجية للأنجلو ساكسونيين، وقد فهمتها تمامًا. إنها مرتكزة على نظرة النيجر إلى التاريخ."

تحدَّث همسًا، واتَّخذ وجهه هيئة حُلميَّة، تجريدية. "انظروا" قال، "هؤلاء القوم في وزارتَيْ الخارجية، بأمريكا وبريطانيا، يعتقدون أن كاسترو نيجر. يعتقدون أن خروتشوف نيجر، لأنه ليس أنجلو ساكسونيًا. يعتقدون أن الصينيين واليابانيين نيجرز. يعتقدون حتى أن الفرنسيين والإيطاليين والإسبان نيجرز. يعتقدون أن أي أحد هو نيجر إن لم يكن أبيض أمريكيًّا من غير اليهود، أو إنجليزيًّا، أو ألمانيًّا، أو ربما إسكندنافيًّا، أو كنديًّا. هكذا، حين يكون لديهم مؤتمر دولي كبير، أو شي من هذا القبيل، ويغضب خروتشوف، ويضرب بقبضته على الطاولة، ينظرون إلى أحدهم الآخر بدهشة تامة وصادقة، ويقولون: 'ما في رأيك أصاب ذلك النيجر؟ ألا يدرك أنه يتحدث مع قوم بيض؟' هذا هو السبب في أنهم يبدون مذهولين، وموجوعين، طوال الوقت. إنهم فقط لا يفهمون."

مالت جيرتي إلى الأمام، وقد سالت دموعها من الضحك. "نعم، نعم، هؤلاء الناس مشوَّشون تمامًا. إنهم مثل الجِراء المريضة."

"نعم، هم مشوَّشون تمامًا، تمامًا،" وافق بيب، وهو ينهض، ويشرع في إخلاء المائدة. "لهذا السبب أنا هنا بعيدًا عنهم. وهذا هو السبب أنني لن أعود إلى هناك أبدًا. الخيول الجامحة لا يمكنها أن تجرجرني إلى هناك."

قال سميان، "وأنت، يا بينسون؟ هل ستعود؟"

"نعم،" قال بينسون، "حين ينتخبون رئيسًا أسود."

ساعد سميان بيب على حمل الأطباق. كان هناك شيء أراد أن يقوله حين كان الجميع يتحدثون، ولأنه لم يُرِد أن يعكِّر المزاج العام، فقد أحجم عن قوله. لكن في المطبخ تفوَّه به بسرعة.

"بيب، هل قابلت جزائريين منذ أتيت إلى هنا؟"

تصلَّب بيب. يعرف ما سيقوله سميان. ثم بتحدٍّ من نوع ما، وبدون أن ينظر إلى سميان، قال ببساطة: "ليس الكثيرين. لماذا؟"

"لقد قابلت البعض. تحدثنا. ذهبت إلى الحي الجزائري." تردَّد سميان. كان ما زال لا يريد أن يفسد المزاج العام. لكن كان عليه أن يقولها: "يبدو لي أن الجزائريين هم نيجرز فرنسا."

فتح بيب الصنبور بنفاد صبر؛ كان يصنع إناءً آخر من القهوة. من الواضح لسميان أن بيب فكر كثيرًا بالفعل فيما يقوله سميان، وأنه لم يود أن يفكر فيه أكثر من ذلك.

"الأمر ... مختلف،" قال هامسًا، وهو ينظر إلى سميان. ثمة تعبير توسُّل على وجهه. "توجد حرب دائرة. الفرنسيون والجزائريون يتقاتلون؛ يقتلون أحدهم الآخر. إنه ليس الأمر نفسه."

قال سميان: "ما رأيته هناك في شمال باريس لم يكن مختلفًا، يا بيب، حرب أو لا حرب. الجيتو، رجال الشرطة، الازدراء - الأمر نفسه. وكان كذلك قبل الحرب - لِقَرنٍ؛ ذلك هو ما سبَّب الحرب."

تناول بيب وعاء القهوة. تحدث بعدوانية. "لتَنْسَ الأمر، يا رجل. الجزائريون قوم بيض. شعورهم حين يكونون مع زنوج يشبه شعور البيض، لا تخطئ في ذلك. لدى الرجل الأسود ما يكفي من المشاكل في العالم بدون أن يمضي مدافعًا عن قوم بيض."

لكنــه لم يكــن مُقنِعًــا، حتــى لنفســه. هــو، كذلــك، أراد أن يتشــبث بالســلام الجديــد، بالطمأنينــة الجديــدة. حــوَّل بيــب عينيــه عــن ســميان، وبــدون أن يقــول شــيئًا آخــر، التفــت، وعــاد إلى غرفــة المعيشــة. بقــي ســميان في المطبــخ بمفــرده لدقيقــة، ثــم تبعــه.

(IV)

"متأكد أنك لا تمانع؟" سأل حسين.

"بالطبع لا. لماذا أمانع؟" ردَّ سميان. لكنه شعر بعدم الراحة، وهو يفتح باب ملهى الشاتو. كان سميان عضوًا الآن في الملهى الليليِّ الخاص الذي أخذه بيب إليه في البداية، الملهى الذي طرد مديره السياح الأمريكيين الصاخبين.

كان سميان في الخارج يتمشَّى مع الجزائريين الأربعة: أحمد وحسين، واثنين من أصدقائهما: بن يوسف ومحمد، وبينما يقتربون من بولْفار سان جِرمان، قال: "لا بُدَّ أن أترككم الآن. نداء العمل. عليَّ أن أقابل راقصة فرنسية في ملهى الشاتو، وأحصل على صور لمجلة."

"ملهى الشاتو؟ ما ذلك؟" سأل حسين.

"مكان صغير مُضاء بالشموع حيث يلعبون اسطوانات، ويرقص الناس."

"الراقصات يتأخَّرن دائمًا، إنه من قواعد المهنة. ما رأيك؟ سنذهب معك، ونرافقك إلى أن تأتي."

"عظيم."

لدهشته هو نفسه، شعر سميان بعدم الراحة. لماذا؟ أغلب من يذهبون إلى الشاتو كانوا متكبِّرين سُخَفاء، لكن سميان أعجبه أن يكون عضوًا، ببساطة كي يثبت أنه قادر على أن يكون كذلك مرة في حياته؛ لقد كان من نوعية الملاهي الحصرية التي لم تكن لتقبله قطُّ في الولايات المتحدة. لماذا لم يدعُ أحمد وحسين إلى الملهى من قبل؟ كيف اتفق دائمًا أنه قابلهما، أو تناول معهما العشاء، في التورنون فقط، أو في ميدان كونترسْكارْب، أو في الحي العربي، لكنه لم يفكر حتى في دعوتهم إلى بعض المطاعم أو المقاهي الفاخرة؟ هل الأمر، بالنظر إلى بؤس الجزائريين، أنه خجل من أن يدعهم يعرفون بذلك الجانب التافه منه؟ أم كان شيئًا آخر أسوأ؟

ألقى جان كلود، مدير الملهى، نظرة متسائلة على سميان بينما يدخل مع الجزائريين. كان هناك الدخان المعتاد، والموسيقى الصاخبة، والأزواج الذين يرقصون على ضوء الشموع. هل خيَّم فتور على المكان حين دخل سميان والآخرون؟ انحنى روبير، وهو نادل يحيِّي سميان عادة بابتسامة، انحناءة متصلبة، وانتظر إلى أن قال سميان: "طاولة، من فضلك،" قبل أن يقودهم إلى واحدة في ركن بعيد.

لاحظ سميان أسلوب النادل، وشعر أنه عاد إلى فيلادلفيا. ألقى نظرة على المكان، ورأى أن الراقصة لم تكن موجودة. كان حسين على حق. وقف النادل منتصبًا، ومتباعدًا كجندي، منتظرًا أن يطلبوا. قهوة، قال الجزائريون. لم تكن هناك قهوة. ماء معدني، إذًا. طلب سميان چين وتونيك.

"سعيد، ذلك النادل،" قال حسين. ابتسم، لكنه كان متوترًا؛ كذلك كان بن يوسف، ومحمد. من عند الباب، راقبهم جان كلود بحذر.

التفت الفرنسيون والفرنسيات في الطاولات المجاورة ليحملقوا فيهم؛ كانت ثمة همسات وضحكات.

شعر سميان بوجهه يلتهب. لكن لِمَ عليه أن يبالي بما يتهامس به هؤلاء الحمقى فيما بينهم! أولاد حرام عنصريون! لكنه كان خائفًا من شيء ما. أن يفقد شيئًا ما. القبول، ربما. جعلته الكلمة يجفل. أن يشعر بالإهانة مرة أخرى. للحظة واحدة رهيبة وجد نفسه ينسحب من الجزائريين - المنبوذين، مَن لا يجوز لمسهم! لقد رفض، خلال تلك اللحظة الرهيبة، التوحُّد معهم! ليس أنا! ليس أنا! أليس بإمكانكم أن تروا، أنا مختلف! هكذا هتف أدنى جزء فيه.

خفض بصره من الخجل.

"ما الذي يحملقون فيه،" سمع حسين يهمس غاضبًا.

"دعهم يحملقون!" قال أحمد.

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ فكَّر سميان. اهرب - ذلك ما أراد. بجلوسه هنا مع الجزائريين كان نيجر مرة أخرى بالنسبة للعيون المحملقة. نيجر بالنسبة للعيون الخارجية - ذلك كان ما نفرت منه مشاعره.

انفتح الباب، ودخلت الراقصة التي كان ينتظرها. تحدَّثَت مع چان كلود الذي أشار إلى سميان. هزَّت له رأسها، وأشارت نحو البار.

"ها هي الراقصة. سأعود على الفور،" قال سميان.

قال أحمد: "كنا نسلِّيك فقط. سننطلق الآن."

"لا، ابقوا،" قال سميان، بما يقارب الحدَّة.

تردد أحمد. نظر حسين إلى سميان بابتسامة. "حسنًا، سننتظرك."

"لن يستغرق الأمر طويلًا."

انضمَّ للراقصة عند البار. "مرحبًا،" قالت. "الضوء أفضل هنا. معك صحبة غريبة." كانت تحمل مظروفًا به الصور.

قال سميان: "وما الغريب فيهم؟"

"إنهم بيكو."

قالتها بالصراحة الساذجة لأمريكية بيضاء تقول: "هؤلاء نيجرز، يا عزيزي، ليس من الممكن فعلًا أن ..."

شعر سميان برغبة في ضربها. "هؤلاء البيكو ينغِّصون حياة جيشكم الآري النقي، أليس كذلك! هؤلاء أصدقائي. أنا لا أعرفك. لنلتزم بالعمل."

صفَّرت بصوت منخفض. "حسنًا، حسنًا، لا تقطع رأسي. لننتهِ من المقابلة. بالمناسبة، سأشرب سكوتش."

حين عاد سميان إلى الطاولة بعد نحو عشرين دقيقة، وجد حسين متوردًا من الغضب، ووجهَيْ بن يوسف ومحمد تجمَّدا في قناعين شاحبين. بدا أحمد طبيعيًّا أكثر، لكنه كان متوترًا جدًّا.

"من الأفضل ألَّا يسمحوا لنا بدخول المكان!" همس حسين. "سيكون ذلك صادقًا على الأقل. لكن، لا! ينحنون نفاقًا، ويسمحون لك بالدخول، ويخدمونك، والكل يحملق ويصيبه البرود ويهمس. أكرههم! أكره الفرنسيين! بطرقهم الأنيقة، وقلوبهم الملتوية!"

حاول أحمد أن يهدئه. ضحك الناس في طاولة قريبة. اشتعلت عينا حسين، تحديًا؛ كان متأكدًا أنهم يضحكون عليهم. لكن هبط هدوء الآن على سميان. لقد مرت اللحظة السيئة. عَبَر الجسر، وشعر بالتوحد مع الجزائريين. شعر أنه حُرٌّ على نحو غريب - لقد قطعت العجلة دورة كاملة.

فجأة، في هدوء الغرفة، بدأ بن يوسف في الحديث بالعربية بسرعة وصخب. كانت كلماته تتوالى، وشعر سميان أنه يتحدث تقريبًا بدون سيطرة على نفسه، ببساطة كي يخترق الأجواء الجليدية. سال العرق بغزارة على وجهه، وبينما علا صوته على نحو يكاد يكون هستيريًّا، خمدت أصوات الآخرين في الملهى، وخيَّم سكون على الحجرة. حملق الناس. تحدث بن يوسف، وتحدث؛ لقد انكسر شيءٌ داخله، ولم يستطع أن يوقف نفسه. نظر محمد إليه، فاغر العينين، وهزَّ رأسه بتصلُّب من حين إلى آخر. بدا حسين وأحمد مُنوَّمينِ وهما يراقبان بن يوسف بتعبيرات تنم عن التوتر. انقبضت عضلات سميان، وارتعشت يداه. شعر بأسى رهيب من أجل بن يوسف، أراد أن يهدئه، أن يساعده، أن يأخذ بيده ويقوده إلى الخارج، يقوده إلى السلامة. لكن لم يستطع أي منهم أن يتحرك.

تفجَّر التوتر كله فجأة. ضحك بن يوسف بصخب، وقد جحظت عيناه، وتجمَّع العَرَق في حبات على جبهته. ضحك الآخرون بصخب، أيضًا، وهم يهتفون بموافقتهم على ما كان بن يوسف يقوله. كان سميان متأكدًا أنه لا يقول شيئًا، مجرد كلمات. لكنه وجد نفسه يضحك هو أيضًا.

كان المكان صامتًا الآن، بخلاف الموسيقى. لم يرقص أحد، حملق الجميع في البيكو الأربعة والنيجر، وفكروا في أنهم فقدوا عقولهم. كان وجه بن يوسف مخيفًا في ضوء الشموع. خرج چان كلود، المدير، من البار، ووقف في المدخل ينظر بنفور إلى المجموعة.

ثم كان في الإمكان سماع صوت امرأة تخاطب رفيقها: "فعلًا، يسمحون لأي أحد بدخول الشاتو هذه الأيام، هذا ما يبدو."

هبَّ بن يوسف على قدميه. وقف حانقًا، شفتاه ترتعشان، يحدِّق في المرأة التي تكلمت. ابتسمت المرأة، وهي شقراء جميلة في نحو

الثلاثين، ابتسامة خافتة، تنذُرًا، وألقت نظرة على رفيقها. كذلك ابتسم مرافقها، وهو ينظر إلى النُّدُل، وإلى چان كلود، للتأكد.

"هل تتحدثين عنّا؟" قال بن يوسف، متلعثمًا في فرنسيته ذات اللكنة الثقيلة.

شعر سميان بحنق بن يوسف، لكنه كان قلقًا من أن يأتي فعلًا طائشًا - لن تطرح الشرطة أي أسئلة.

قالت المرأة، مبتسمة: "أيها المسيو العزيز، لا أعتقد أننا تَعارَفنا."

صدرت عنها صرخة حين تحرّك بن يوسف في اتجاهها، مبتسمًا. "لا تصرخي. لا تخافي. لن أؤذيكِ. فقط أريد أن أرقص معكِ. ما رأيك؟ أنتِ، ترقصين مع بيكو، سيكون ذلك لطيفًا لجسدكِ هذا المعطَّر، ها؟ هيا، قفي! سنرقص!"

شهقت المرأة كأنها على وشك أن تفقد الوعي. نظر رفيقها إلى بن يوسف حانقًا. "هذه المرأة الشابة ...." بدأ.

"لتبقَ خارج هذا،" قال بن يوسف، وهو يوجِّه إليه إصبعًا مهدِّدةً. "لتبقوا جميعًا خارج هذا. أشعر برغبة في تمزيق رجل فرنسي إلى أشلاء الليلة." ابتسم مرة أخرى. "هذا بيني وبين السيدة، أليس كذلك يا مدموزيل؟ هيا. لنرقص."

تحرّك ليأخذ يدها، فصرخت. أسرع المدير، يتبعه النُّدُل عن قرب، وأمسك بن يوسف من كتفه. التفت بن يوسف، وضرب يد چان كلود.

"لترفع يدك الفرنسية القذرة عني!"

"اخرُج من هنا! أنت وأصدقاؤك!"

"أخرِجني إن كنت كبيرًا بما يكفي!"

"سأتصل بالشرطة."

"اتَّصِل بهم! أنا مستعد للشرطة الليلة!"

حانقًا، التفت المدير نحو سميان. "أنت أحضرت هؤلاء الناس إلى هنا. لتُخرِجهم. لا أمزح، سأتصل بالشرطة."

فتح سميان فمه كي يقول شيئًا، لكن أحمد نهض وقال: "لنخرج من هنا. ليذهبوا إلى الجحيم."

"لن أذهب إلى أي مكان،" قال بن يوسف. "بدأت أستمتع هنا."

أمسك حسين بن يوسف من ذراعه. "الأمر لا يستحق. نرى ما يكفي من رجال الشرطة كل يوم."

تجادل حسين وبن يوسف بالعربية. في النهاية، هدأ بن يوسف، وترك حسين وأحمد يقودانه نحو الباب. كانت هناك ضجة عالية للأصوات في المكان وهم يغادرون.

رمى سميان ثمن المشروبات على الطاولة. تناولها المدير، ودسَّها في يد سميان.

"دعك من النقود. احتفظ بها. فقط أعِد مفتاحك. لا نريدك أن تعود إلى هنا ... لا أنت، ولا أصدقاؤك."

ألقى سميان النقود والمفتاح على الطاولة. "لا يمكنك أن تجرِّني كي أعود إلى هنا،" قال.

في الخارج، كان بن يوسف ما يزال غاضبًا، وتجادل مع الآخرين بالعربية. حاول أحمد أن يهدئه.

قال حسين لسميان: "هل تندم على فقد عضويتك؟"

"أوه، لا!"

"متأكد؟ كنت أعرف ما هو الشاتو حين اقترحت أن نأتي معك. استغربت حين وافقت. الحياة تتعقَّد أحيانًا. أعرف كيف كان شعورك. ألست نادمًا على أي شيء؟"

"يا ابن العاهرة،" ضحك سميان. "هل كان ذلك اختبارًا؟ هل اجتزته؟"

"أبليت بلاءً حسنًا،" قال حسين. غمز، ووضع يدًا على كتف سميان.

(V)

1

صار الجو فجأة أكثر برودة؛ اختفت الشمس، وحام ضباب رمادي سميك فوق الأسطح. في مروره بمقهى موناكو، رأى سميان كلايد في الداخل بجوار النافذة، يميل على طاولة فوقها سبع كؤوس كونياك فارغة. كان چوي السِّكِّير يقف عند البار، يحملق بتجهم في اتجاه الشارع. الوقت كان نهايات الأصيل، ولم تعد ماريا بعدُ من صف التمثيل؛ لهذا ذهب سميان إلى لا ڤيلّاچ لتناول مشروب بهدوء بينما يقرأ لوموند. في واحدة من المقصورات الوثيرة، رأى چينكس، زوجة كلايد، تجلس مع ابنتها ذات الأعوام الستة، ورجل غريب.

حمل سميان نفسه على تقبُّل أنه سيضطر إلى التحدُّث معهم. تلك الطفلة ستصير مدمنة للكحول فقط من الأبخرة، وشبقية بالتجاور. رأته چينكس، ونادت: "مرحبًا، سميان، كيف حالك؟ تعال وقابل چاك."

هزَّ سميان كتفيه، وسار نحو طاولة چينكس.

"مرحبًا."

"هل رأيت كلايد؟ كان يسأل عني؟" إنها حسناء، فكَّر سميان، لكن عينيها الهستيريتين قريبتان أكثر ممَّا ينبغي من إحداهما الأخرى؛ تهزُّ شعرها، ذيل الحصان ذاك، مثل سوط.

"رأيته للتو في المواكو. لم أتحدث معه."

"الحمار المخمور. سيكون غالبًا في مزاج عَكِر كالعادة، وسيهاجمني مرة أخرى حين أعود الليلة. لو عدت." ابتسمت لجاك، وهو رجل فرنسي من الواضح أنه متبخِّر في الطرق الغريبة للسائحات الأمريكيات. "انضمّ إلينا يا سميان. تناول مشروبًا."

"عليَّ أن أنصرف. كنت فقط أنهي مشروبًا في البار."

"دائمًا ما يكون عليك أن تنصرف حين تراني."

2

دخل سميان إلى التورنون؛ عرف أنه حيث ستبحث عنه ماريا. كان المقهى صاخبًا وبهيجًا؛ لوَّح لمدام ألازار، المالكة، وللرجال العجائز الذين يلعبون البريدج والبلوت. في الخلف، وجد أحمد مع هنري، ولُو يلعب الشطرنج مع صاحبته بيتي على طاولة مجاورة. طلب بيرة.

كان هنري يقول: "فقط أردت أن تعرف ذلك. لسنا جميعًا جلَّادين ومستعمِرين. كثير منَّا ضد هذه الحرب، خصوصًا الطلبة."

"أعرف،" قال أحمد. "أنا نفسي طالب. أعرف. لكنكم لا تفعلون الكثير."

"لدينا مُظاهرات ..."

"هذا لا يكفي. عليكم أن ترفضوا الخدمة في الجيش."

"سيكون هذا ... صعبًا."

"كل شيء صعب."

تدخَّل لُو: "وبالطبع، توجد دائمًا، على ما أفترض، إمكانية العمل مع جبهة التحرير."

ابتسم أحمد. "لم أكن لأجرؤ على اقتراح ذلك."

فكَّر سميان في چينكس. لقد أصابه الأمر دائمًا بالاكتئاب، رؤيتها، أو رؤية كلايد، أو البعض من الأجانب الآخرين هنا. كانوا يجسدون كم يمكن لحيوات المغتربين أن تكون فارغة.

فكَّر سميان في المشهد الذي حدث مؤخرًا في ملهى الشاتو. ما الذي يفعله هنا في باريس؟ ما الذي يفعله ويجعله أفضل شأنًا من چينكس؟

3

لكن، يعلم الرب، لقد أحبَّ باريس. أحب أشياء بسيطة، مثل السهر طوال الليل، والنزول في الصباح إلى ڤير جالان، ذلك الطرف الأخضر من جزيرة السيتيه الناتئة داخل السين، والتلويح لسائقي العبَّارات.

راقت له وجوه الفرنسيين العاديين - ليس أصحاب المتاجر، ولا السياسيين، ليس المثقفين، ليس المسؤولين أو رجال الشرطة؛ بل سائقي الباصات، مُنظِّفي الشوارع، بائعي الجرائد، الشغيلة في سوق لي آل، عمال القطارات، البَنَّائين، والنجارين، وعمال المصانع. كان يقرأ في عيونهم ذكريات خافتة من الثورة الفرنسية، والكوميونة، والمقاومة.

تلك الأشياء لم تُنس، ما تزال موجودة في الشعب الفرنسي، وفي سميان من خلالهم. تلك العيون ذاتها عبَّرت عن حسٍّ فكاهة، وعن حب الحياة. هؤلاء الناس كانوا مثاليين بما يكفي أن يؤمنوا بالمستقبل، لكن شكاكين بما يكفي أن يضجُّوا بالسياسيين وبالكلمات الموعودة على الورق. كانت باريس على ما يرام.

لقد أحب "الشخصيات." مثل المهرج الباريسي الذي يجر مقودًا خاليًا في أرجاء سان جِرمان دي بريه، وحينما تسأله: "ماذا تفعل؟" يردُّ: "أبحث عن الرجل الخفي." "لماذا؟" "لأني عثرت على كلبه."

أو چوي السِّكِّير، الذي كان يعيش في أحد أحياء باريس العُمَّالية الحمراء أثناء حملة "عودوا إلى دياركم أيها الأمريكيون"، و"شغب ريدجواي" حينما أُهين الأمريكيون في الشوارع، وبُصِق على السيارات الأمريكية، أو ما هو أسوأ. لقد استيقظ چوي ذات صباح ليجد "عُدْ إلى ديارك أيها اليانكي" مطبوعة بحروف ضخمة على مدخل بيته؛ لهذا، خرج على الفور، واشترى عشرة أرطال من الحلوى، ومقدارًا مساويًا من الضلوع، ثم جاب الحي، مُعطيًا حلوى لكل طفل يراه، وضلعًا مشويًّا لكل بالغ. نجح ذلك. لم يقترح أحد أن يعود إلى دياره مرة أخرى.

ويمكنك، بسيارة في يوم صيفي دافئ، أن تقود إلى خارج المدينة، وتزور مناطق شامْباني وبورْجوني، وتنزل إلى أقبية النبيذ حيث يعطونك عيِّنات مجانية من أفضل الأنبذِة. ولن يكون عليك أن تقلق إن كانت الفنادق تقبل سودًا. فقط تقود عبر الريف الجميل، وتتوقف في قُرى وقتما تشعر برغبة في الأكل أو في تناول مشروب، وتأخذ غرفة في فندق أو نُزُل حيثما يحدث أن تتوقف أثناء المساء.

لكنه لم يستطع تجنُّب التفكير في العِرق، في باريس، أو في أي مكان. كيف يمكنك ألَّا تفكر في الشيء الذي يهيمن على حياتك؟ هكذا

فكّر سميان في العِرق، فكّر في كل الأمهات الفرنسيات (والحموات) اللاتي يقطعن شوارع باريس وهن يدفعن بفخر أطفالهن بُنّيّي البشرة. أو الليلة التي كان فيها في ملهى ليليٍّ، ونهضت امرأة زنجية فرنسية، بعد أن أفرطت في الشرب، ووقفت، طويلة وجميلة، ورقصت بحسية وحدها على ضوء الشموع، جاذبة نظرات إعجاب واستحسان، والممثلة الفرنسية الشقراء، الغيورة التي علّقت على مسمع من سميان: "أوففففف! تظن أنها أفضل من كل شخص آخر فقط لأن بشرتها سوداء!"

كانت الأمور مختلفة، بوضوح، عن الولايات. والليلة التي مشى فيها مع البرازيليين إلى قوس النصر، ومدُّوا أياديهم فوق الشعلة الأبدية، وانضمَّ هو والآخرون إلى كارلوس في العهد: "لن نغادر هذه المدينة الجميلة أبدًا. إن حاول أحد أن يجعلنا نغادر، فسوف نقيِّد أنفسنا إلى أعمدة الإنارة!"

*

كان أحمد قد فسَّر: "هكذا يحدث الأمر. تشنُّ الشرطة غارة، وتلتقط كل جزائري في مدى الرؤية. يأخذونك إلى القسم، وإن لم يكن لك سجل، يضعون اسمك في بطاقة، ويتركونك تنصرف. بعدها بفترة قصيرة، يقومون بغارة أخرى، ويقبضون على كل مَن يكون في مدى الرؤية، بما فيهم أنت. يتفقَّدون السجلات، ويرون اسمك في البطاقة، ويقولون: 'آهاا! مشاغب. لقد أُلقي القبض عليك مرة من قبل، أنت مذنب لمرة ثانية.' هكذا يرسلون بك إلى السجن لأسبوع، أو نحو ذلك، ثم يطلقون سراحك مع تحذير. هكذا، تجلس في مقهى، تشرب

قهوة أو أي شيء، وتقتحم الشرطة المكان؛ إنها غارة، الجميع في العربة. 'المرة الثالثة!' يقول الرقيب، وهذه المرة تذهب إلى السجن لفترة أطول. ربما تُضرب أولًا، ليجعلوك تعطي معلومات عن جبهة التحرير. أحيانًا يحدث الضرب بهراوات، أحيانًا بخراطيم مطاطية. هل يمكنك أن تتخيَّل كيف يكون ذلك؟"

"نعم يمكنني أن أتخيَّل."

"ربما في النهاية يُطلَق سراحك ثانية. يقومون بغارة أخرى، وتُلتقط وتختفي. لا يسمع أحد عنك مرة أخرى. الرب وحده يعلم ما الذي حدث لك. وأنت لم تفعل شيئًا قطُّ، لم تفعل أي شيء!"

4

بينما يغادر هنري المقهى، تبعت عينا أحمد الطالب وهو يخرج من الباب.

"إنه شخص لطيف،" قال أحمد لسميان ولُو. "عنده ضمير، ويعذبه ما يحدث للجزائريين. هذا أكثر مما يمكن أن تقوله عن معظم الفرنسيين."

"ألا تعتقد أن معظم الفرنسيين يتعذَّبون؟" سأل لُو.

"ليسوا مُعذَّبين. ضميرهم مُثقَل، لكنهم يستجيبون فقط بعدم التفكير في الأمر. التليفزيون، كرة القدم، زيادات الرواتب - هذا هو كل ما يريدون التفكير فيه."

"رأيت بعض المظاهرات ضد الحرب. لقد استلزم ذلك شجاعة؛ لأن الشرطة هوت بهرواتها، بقوة شديدة، على المتظاهرين، وكسروا رؤوسًا يمينًا ويسارًا."

"كم متظاهر؟ ألف؟ خمسة آلاف؟ عشرة آلاف؟ عشرون ألفًا؟ يوجد خمسة وأربعون مليون فرنسي! ليس هذا بشيء يوقف الحرب. ... لكن هنري على ما يرام. سوف يتصرف بناءً على ما يؤمن به. يمكن لأشخاص مثله أن يمنعوا الجزائريين من كراهية الفرنسيين كلهم."

بدأ سميان ولُو مباراة شطرنج بينما ينتظرون ماريا. كان لُو هو المفضَّل لدى سميان من بين الأمريكيين البيض في باريس. كان متحفظًا، لكن لديه ذكاء هادئ، وحس فكاهة جيد. كانت وطنيته، غير المقتحمة، متجذِّرة فيما اعتبره سميان الأفضل في التاريخ والأسطورة الأمريكيين: روح الريادة القديمة، الفردانية، الإيمان بمساواة كل إنسان مع كل إنسان آخر، تصوُّر الولايات المتحدة كبوتقة انصهار للشعوب والأعراق. كان يدرك أن الواقع لا يبلغ هذا التصور، لكنه تمسَّك بالصورة كغاية.

قال لُو: "حين كنت طفلًا، عشت في حيٍّ مختلط، كبرتُ مع أطفال زنوج وكذلك مع أطفال بيض. كان كل شيء على ما يرام إلى أن بدأنا في الذهاب إلى المدرسة. حينئذ ذهب الزنوج إلى مدرسة، والأطفال البيض إلى أخرى. كانت تلك صدمة لي، صحوتي الحقيقية الأولى على مشكلة اللون."

قال سميان: "نعم. لكن لا بُدَّ أنه كانت هناك صحوات أخرى كثيرة بعد ذلك."

"جدًّا! دائمًا ما أفكر في حادثة واحدة. حين جُنِّدت، ركبنا القطار معًا، أنا ورجل زنجي أعرفه، إلى فورت ميد. تحدثنا طوال الطريق إلى ميريلاند، وتشاركنا في سندوتشاتنا وتناقشنا في الچاز، وحين بلغنا ميد، وقفنا في الصف معًا كي نتسلَّم أغطيتنا لتلك الليلة. كنا في حوار رائع، حينما خرج رقيبٌ فجأة، وهتف: 'كل الرجال الملوَّنين، اخرجوا من الصف.' حملقنا، صديقي ذلك وأنا، في أحدنا الآخر مذهولين. لقد كنا

نتحدث ونضحك، ثم فجأة حطم شخص ما ذلك الجسر بيننا. نظر إليَّ بابتسامة باهتة ... وداخلني شعور غريب، كأنه كان يتهمني أنا ... ثم خرج من الصف. قادوا الملونين جميعًا إلى جزء آخر من المعسكر، وأبقوا عليهم في ثكنات منفصلة. كنت أصادف صديقي من وقت إلى آخر، لكنه كان فاترًا. كنا نتبادل كلمات قليلة محرجة، لكن الأمور لم تعُدْ إلى ما كانت عليه قَطُّ. لقد انكسر الجسر."

هز سميان رأسه. لقد سمع عشرات القصص الشبيهة. قال لُو: "من المريح التحدُّث معك هكذا. مشكلة اللون والأعراق هذه تستولي عليَّ؛ هكذا كانت دائمًا. دائمًا ما أردت أن أقترب من الزنوج، لكن كان ذلك صعبًا، الزنوج أنفسهم كانوا يرتابون فيَّ. حينما كنت أذهب إلى الأحياء الزنجية في الولايات، كنت أشعر أن الزنوج يرفضونني. هل تعرف ما أعني؟ الأمر مُعقَّد. ذات يوم كنت أخرج من مترو الأنفاق في هارلم، ودنا مني زنجي، وبدون أي كلمة تراجع قليلًا ولكمني في وجهي. وقعت، وسال دمي، أمَّا الزنجي فقد استقلَّ عربة المترو بهدوء، وابتعد القطار."

قال سميان بتعاطُف: "الأمر ليس بهذه السهولة، يا لُو. المشكلة هي أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ عقلك. حينما يُصنَّف الناس في طوائف، فهم أيضًا يصنفون الجماعة المهيمنة. كان لديَّ صديق، وكان الضابط قائده، وهو في الجيش، جنوبيًّا أبيض متحاملًا. كانت وحدة كل أفرادها من الزنوج، وأخرج الضابط عنصريته كلها على الجنود، ونغَّص عليهم حياتهم فعلًا. هذا الصديق، تشارلي، عرف أن عليه أن يتحمَّل ذلك وهو في الجيش، لكنه قال لنفسه: 'اللعنة، حينما أخرج من هذا الجيش اللعين، أول مَن يتحدث معي بلكنة جنوبية سيُطاح به على مؤخرته.'"

"هكذا سُرِّح وأُرسِل إلى الديار. وبينما كان يخرج من القطار في محطة بنسلڤانيا، اقترب منه رجل وابتسم وقال بلكنة جنوبية: 'عُذرًا، هل يمكنك أن تخبرني أين أجد -' ولم يكمل قطُّ تلك الجملة. زفر تشارلي، وضع حقائبه على الأرض، وأطاح بذلك الرجل المسكين. الأمر حزين، الجنوبي المسكين كان غالبًا شخصًا لطيفًا. ربما لم يكن عنصريًّا حتى. لكن أي فرد في الجماعة التي تتمتع بالامتيازات في مجتمع عنصري يُعتبر مذنبًا. كل جنوب إفريقي أبيض هو مذنب. كل رجل فرنسي مذنب في عيون الجزائريين. كل أمريكي أبيض مذنب. يمكن للذنب أن ينتهي فقط حين تنتهي العنصرية."

حدَّق لُو، بتعجب، في سميان. "نعم. هذا ما أشعر به. مذنب دائمًا، رغم أنني لست عنصريًّا. جنون."

كان حسين وبن يوسف قد أتيا إلى المقهى، وأنصتا في صمت إلى محادثة الأمريكيين. بدا حسين مندهشًا لرؤية سميان يتحدث مع رجل أبيض من الولايات المتحدة.

بعدها بعدة دقائق، دخلت ماريا إلى المقهى مسرعة، وعيناها تتألقان حماسًا.

"تأخَّرت،" قالت معتذرة لسميان. "كنت أتسوَّق مع أنوشكا، أمي الباريسية ... حبي، أخذتني للتسوق. لقد حصلت على أحذية جديدة، يا سميان. ثلاثة أزواج. وثوبان جميلان، وعِقد، وسِوار. إنها مجنونة مع النقود، أنوشكا!"

جلست ماريا، مقطوعة النفس، وطلبت شايًا ساخنًا. كان بن يوسف وحسين يقابلانها للمرة الأولى، وراقبا بفضول وهي تفتح اللفافات لتعرض كنوزها على سميان.

صفَّرت بيتي حينما فتحت ماريا لفافة السِوار، الذي بدا أنه مصنوع من اليشم. رفعته ماريا، وأدامت النظر فيه للحظة طويلة،

كأنها لا تستطيع أن تصدق أنه يخصُّها فعلًا. "إنه جميل،" همست. "جميل. لم يكن لديَّ قَطُّ أي شيء بهذا الجمال. لكنني خائفة قليلًا. أنا خائفة أن أفقده. الأم الباريسية مجنونة، كان غاليًا جدًّا، لم أُرِدها أن تشتريه. لكن من غير الممكن أن يكلِّف ذلك القدر. أنا متأكدة أننا غُشِشنا."

ابتسم بن يوسف. كان وجهه، هو أيضًا، صبيانيًّا، مثل وجه أحمد، وبدا بريئًا تمامًا وهو يُسقط قنبلته بعفوية، بدون قصد: "طبعًا،" قال، "ربما يهودي قذر هو مَن باعه لكما."

انفجرت الكلمات بتمامها في وجوههم. أزاحت ماريا وجهها إلى أعلى كأنها تلقَّت صفعة. فغر فم لُو قليلًا، واتَّسَعَت عينا بيتي دهشةً وألمًا. لم يبدُ أن حسين لاحظ شيئًا، لكن أحمد نقل نظره بعصبية من سميان إلى ماريا. ذُهِل سميان. تلك الكلمات، من أحد الجزائريين؟ بدا، بغتة، أن بنية ذهنية ونفسية كاملة، أقامها منذ اليوم التي تحدث فيه مع حسين للمرة الأولى، تنهار.

شحب وجه ماريا من الغضب؛ تبدَّدَت كل خفة.

"أنا يهودية قذرة،" قالت.

صار بن يوسف شاحبًا، وحاول أن يبتسم، لكنه لم يستطع. "مجرَّد كلمة،" قال. "خرَجَت بدون قصد. أنا آسف."

قالت ماريا: "لا داعي إلى الأسف. لقد قلت ما اعتقدتَه."

"إنها كلمة؛ فقط جاءت هكذا على لساني، لم أكن أفكر. لم أقصدها."

سعل لُو بعصبية. جال حسين ببصره على الطاولة، وخصوصًا على ماريا، وبدا غير منزعج ما زال. فكر سميان: هل كل شخص عنصري

إذًا تجاه شخص آخر؟ لم يفكر كثيرًا من قبل في التحامل ضد اليهود، كان منخرطًا، بشكل شخصي، أكثر مما ينبغي، في مسألة اللون.

"إنها الحرب،" قال أحمد مترددًا. "الحرب بين إسرائيل والعرب. لقد أثارت ردود أفعال. لا بُدَّ أن تسامحوا بن يوسف."

"ليست الحرب فقط،" ردَّت ماريا بحِدَّة هادئة، وهي تحملق أمامها مباشرة كأنها تركز على شيء ما. "كان ذلك موجودًا قبل الحرب، ولا يمكنك حتى أن تسميها معاداة للسامية؛ لأن العرب ساميُّون، أيضًا. هذا جنون." بدا وجهها متعبًا ومتحديًا في آنٍ، وهي تمسحهم بالعينين وراء النظارات الداكنة. كان جهدًا ملحوظًا بالنسبة لها أن تتحدث عن موضوع لا يروق لها أن تناقشه. "آلاف الأعوام يحدث ذلك. لماذا؟ في بولندا حدثت بوجرومات. أحرقنا الألمان في الأفران. يكرهنا الناس في شمال إفريقيا، في الشرق الأوسط، في أوروبا، في أمريكا، في كل مكان؟ لماذا؟ ماذا نفعل لأي أحد، قُل لي. بولندا الآن شيوعية، ومن المفترض أن تضمن المساواة للجميع، لكن ما زال من الرهيب أن تكون يهوديًّا هناك. لا تستطيع الحصول على وظائف معينة، ثمة كراهية واضطهاد. يُبصق عليك في الشوارع. لماذا؟"

نظرت إلى حسين، وركَزَت بثبات في عينيه. "أنت لا تقول شيئًا، لكنني أراه في عينيك. أنت تكره اليهود."

قال حسين باتِّقادٍ مفاجئ: "أسوأ ممَّا أكره الفرنسيين! أسوأ ممَّا أكره المستعمِرين!"

جفل سميان. في تلك اللحظة كره حسين. فُجِع أحمد.

كانت ماريا باردة وهادئة. "لماذا؟"

"لأنهم ساميون. لأنهم مثلنا وينبغي أن يكونوا معنا، في صفِّنا، لكنهم يعتبرون أنفسهم مختلفين، يعتبرون أنفسهم أفضل، ويضعون

أنفسهم في صف المستعمرين ضدنا. أكرههم بسبب إسرائيل؛ لأنهم أخذوا أرضًا عربية، وطردوا العرب. بمقدوري أن أخبركِ عن شمال إفريقيا واليهود! مَن كان الجاسوس في وسطنا لمصلحة الفرنسيين؟ اليهود! مَن حقَّق أرباحًا على حسابنا؟ اليهود! حين شعرنا بذلك الحمل فوق ظهورنا، حين رفعنا أنظارنا كي نرى من كان على ظهورنا، مَن رأينا هناك، فوق ظهورنا، يبتسمون ويثقلوننا؟ اليهود! لا تتحدثي معي عن اليهود. يمكنني أنا أن أخبركِ عن اليهود!"

عضَّت ماريا على شفتها. قال سميان: "أنت تهذي، يا حسين. اليهود مُضطَهدون مثلنا بنفس القدر."

"يجب أن يكونوا في صفنا إذًا! ماذا يفعلون فوق ظهورنا؟ يكرههم المستعمرون، لكنهم ما زالوا يحتقروننا! يلاعبون كلا الطرفين من أجل الوسط!"

تدخَّل لُو، متحدثًا بلطف لأنه كان الشخص الأبيض "النقي" الوحيد هناك. "كل جماعة مُضطهَدة تُضطهَد بطريقة مختلفة، ولديها تاريخ مختلف،" قال. "تاريخ الزنجي الأمريكي ليس هو نفسه تاريخ الإفريقي أو الآسيوي المستعمَر. المنتجات النهائية مختلفة كذلك. تاريخ اليهود في العصور الوسطى قادهم إلى أن يصيروا تجارًا ومُقرضي أموال كي ينجوا. لقد مُنِعوا عمليًّا من كافة المهن الأخرى، لكن المسيحيين مُنِعوا من أن يصيروا مُقرِضي أموال، هكذا على الأقل كان بإمكان اليهود أن يفعلوا ذلك. وسطاء. هذا صحيح، لقد انجرفوا عبر مجتمعات عدائية، مكروهين، ومرفوضين، ومُلاحَقين، وصاروا وسطاء من أجل الحفاظ على الذات. ومن الطبيعي أنهم تبنَّوا أساليب دفاعية. لقد كانوا دائمًا مُهدَّدين، وأرادوا أن يتشبثوا، أن يتشبثوا بأي أمان يحصلون عليه، وربما ذلك جزء من السبب في أنهم وقفوا في صف الفرنسيين في شمال إفريقيا."

قال حسين: "يمكنك أن تعطي أي عذر يعجبك. بالنسبة لي، هم في صف العدو، وهذا هو كل ما أحتاج إلى معرفته. أنا أُطلق النار!"

"قلت: 'جزء' من السبب،" أردف لُو، "لكن الجزء الآخر من السبب هو أن المسلمين أنفسهم رفضوهم. المسلمون أنفسهم رفضوا أن يعتبروا اليهود منهم. كان اليهود في شمال إفريقيا ممزَّقين بين أمرين؛ أفهم كيف حدث أنك تفكر على النحو الذي تفكر به، لكن عليك أنت نفسك أن تحاول أن تفهم."

نهض حسين. كان هادئًا جدًّا، ونظر أولًا إلى لُو، ثم إلى سميان، ثم إلى ماريا. قال لماريا: "أعتذر. أعتذر أولًا لأنكِ مع سميان، وهو صديق. ثانيًا، لأنكِ تبدين لطيفة، وأنا آسف لأنني أسأت إليكِ." ولسميان قال: "لتعذرني. أعرف فيما تفكر، لكن لا تُسِئ الحُكمَ عليَّ. أنجرف بعيدًا حين أتحدث عن أشياء أؤمن بها فعلًا." التفت إلى لُو، وقال: "أنا لا أفهم شيئًا. هل تسمع؟ - لا شيء. توجد أسباب تاريخية لكل شيء، حتى للاحتلال الفرنسي للجزائر، حتى للعبودية، لكنني لا أفهم الأسباب التاريخية. فقط أحكم بالمنتجات النهائية. أقبل المنتجات النهائية، أعانق المنتجات النهائية، أو أطلق النار على المنتجات النهائية قبل أن تطلق النار عليَّ. أنا رجل بسيط جدًّا. سوف أعود إلى البيت، للفِراش، الآن. لست جيدًا في النقاش. أغضب، ولا توجد فائدة في ذلك."

قال أحمد: "يجب أن تبقى، يا حسين."

"نعم، أعرف، أيها المثقف، تحب أن تسمع الكلمات."

"ليس بمقدورك أن تفرَّ دائمًا من الكلمات. سيأتي يوم يتوقَّف فيه إطلاق النار، وسيكون علينا أن نستخدم الكلمات بدلًا عن ذلك."

"ليس أنا. لقد تأخَّر الوقت جدًّا. سيكون هناك دائمًا مكان ما حيث يتكلم الناس بما هو أكثر من الكلمات، وسأكون هناك. في الجانب الصائب."

نهـض بـن يوسـف هـو الآخـر. كان مـن الواضـح أنـه تـاه في الحـوار، وأرعبتـه السـخونة التـي تسـبَبَت فيهـا كلماتـه العارضـة. أراد أن يكـون في صحبـة حسـين الآمنـة.

"أنا ... أنا آسف جدًّا،" قال بن يوسف لماريا قبل أن يغادر.

لم تنظر ماريا إليه، ولم ترد.

(VI)

1

بعدها بكثير مشى سميان وماريا نحو شقته. كان الشارع مظلمًا وباردًا. تحرّك رجال الشرطة ذهابًا وإيابًا أمام قصر لوكسمبورج. رغم أنهما كانا قريبين من شقة سميان، فقد قالت ماريا: "لا أشعر برغبة في الدخول بعد. لنمشِ. لنذهب ربما إلى الكاميلْيون." هزَّ سميان رأسه، وهو يفكر في الحادثة مع حسين.

لم يتحدثا، لكن سميان شعر أنه قريب جدًّا من ماريا، وعرف أنها تشعر أنها قريبة منه. مرَّا أمام المِفيستو، ولوَّحا للأصدقاء، ثم سارا في شارع السين إلى النهر قبل الدوران والعودة.

"لا أحب مناقشة مثل هذه الأمور،" قالت ماريا في النهاية. "تجعلني أتلوَّى داخلي، وتصيبني بالسَّقَم."

كان سميان صامتًا. لقد أراد أن يقول المزيد في المقهى، حين كان حسين والآخرون يتحدثون، لكنه كان غاضبًا ولم يعرف ماذا يقول.

كيف تُجادِل ضد تحامل أعمى؟ تذكَّر أن الكثير من الزنوج لا يحبون اليهود. كان ثمة سبب لذلك: كثيراً ما كان اليهود، الذين يتعرَّضون للتمييز في المجتمع الأبيض، يُتركون مع الفتات - العقارات والمتاجر في الأحياء الزنجية. كانوا، بناء عليه، أكثر مستغلِّي الزنوج الأمريكيين وضوحًا، وكرههم الكثير من الزنوج بسبب ذلك. لا بُدَّ أن الأمر نفسه هو الحال في شمال إفريقيا. لكن كيف يمكن أن توضِّح ذلك لحسين؟ إضافة إلى أن تحامل المضطهَد مختلف تمامًا، من الناحية الأخلاقية، عن تحامل المضطهِد.

"إنها المرة الأولى التي أسمعكِ تتحدثين فيها هكذا،" قال.

هزَّت كتفيها. "نعم، وربما الأخيرة. لقد أقسمت لنفسي أنني سأُسقِط هذا النوع من الموضوعات. في النهاية، يظل كل شخص مؤمنًا بما آمن به في البداية."

"عليكِ أن تقوليها رغم ذلك."

"لماذا؟ لِمَ الاكتراث. العالم رهيب، يا سميان."

"رهيب ورائع، يا قلبي."

"لا. رهيب. أنا قَلِقة من أمرٍ فيك. ثمة سبب لأنك تسعى وراء أصدقائك الجزائريين؛ ذلك لأنهم في وضع مضطرب. لديَّ شعور أنك لا تستطيع أن تقبل السعادة ببساطة. لديك حياة طيبة، شقة لطيفة، ما يكفي من المال، لكنك لا تستطيع أن تقبل ذلك. شيء ما يضايقك في الداخل؛ لهذا تمضي وتبحث عن تعقيدات. أنا خائفة عليك. وعليَّ أيضًا."

فهم ما تعني. ما لم تفهمه هو أنه كان يتوق إلى السكينة، والهدوء، والحياة الرقيقة، بنفس مقدار تَوقها. على الأقل، شعر أنه كذلك. ربما لا يمكنك أن تكون متأكدًا، فكر، بينما يدفع باب الكاميليون الثقيل.

كان ملهى ليليًّا صغيرًا بالقرب من الأوديون، بفرقة چاز ورقص في القبو، ومقهى في الأعلى حيث شغَّلوا اسطوانات الچاز الحديث. حيَّاهما ساكسفون چون كولترين. كانت الغرفة المليئة بالدخان مكتظة بالأفارقة، والزنوج الأمريكيين، ومحبِّي الچاز الفرنسيين الشباب. لوَّحا إلى سلِم Slim، وهو طبَّال نيچيري يجلس عند البار، وشقَّا طريقهما إلى طاولة صغيرة جدًّا في الخلف.

استقرت ماريا على المقعد المنجَّد، أمالت رأسها إلى وراء، وغاصت على الفور في الموسيقى. على مقاعد البار، التي أنارتها المصابيح البرتقالية الخافتة، حرَّك رجال سود أكتافهم بشكل إيقاعي، في حركة متكررة مع الموسيقى.

قالت ماريا: "هذا هو ما أحب. الموسيقى، أن أستمتع، بدون مشاكل." ابتسمت له. "ما شعورك، يا سميان؟ بخصوص وجودك هنا؟ بخصوص حياتنا؟"

"يعجبني الحال. أشعر بالقليل من التململ أحيانًا، رغم هذا. لا أريد أن أعود إلى الولايات، ليس بعد على الأقل، لكنني أشعر أنني ... خامل هنا. الحياة ممتعة، لكنني لا أفعل شيئًا. فقط كأنني ... أراقب حبات رمل تتساقط."

أثار سخطها. "ماذا تودُّ أن تفعل؟"

"لا أعرف." هزَّ كتفيه بلا حول ولا قوة. "فقط ليس أن أقف ببساطة على الجانب، وأراقب الحياة تمر."

"إنها تمر على أي حال." أشعلت سيجارة بعصبية. "لا معنى في ذلك. أي عالم رهيب هذا؟ أفقد عقلي حينما أفكر في معسكر العمل، ووالديَّ، وكيف كان السجناء، وغرف الغاز. لا معنى في ذلك، لا معنى على الإطلاق. لهذا أحاول ألَّا أفكِّر."

لقد طرح سميان على نفسه أسئلة ميتافيزيقية منذ سنوات، حين كان طفلًا ينظر إلى النجوم، لكنه يعرف الآن أنه توجد أسئلة ليس في استطاعتك الإجابة عليها. يعرف الآن أن المطلق لا يمكن استيعابه، أنه يتعين على المرء أن يرسم حدود عالمه، ويعيش داخله، وداخل قِيَمه، إن أراد المرء أن يعيش على الإطلاق. أن طفلًا يموت من الجوع هو أمر بسيط وواضح، ليس عليك أن تعرف مصير الإنسان كي تدرك أنه يجب عليك أن تعطي طعامًا للطفل.

"ماريا." تَردَّد على حافة السؤال، خائفًا منه. "أخبريني شيئًا. هل تحبينني؟"

ضحكت، وقالت مداعبة: "يجب أن تكون حريصًا مع هذه الكلمة."

"أنا حريص."

"هل تحبُّني؟"

"أعتقد هذا."

لم تنظر إليه. راقَبت الأفارقة يرقصون بأكتافهم. "يروق لي أن أكون معك طوال الوقت، معك أنت وليس مع أي أحد آخر. هذا هو كل ما أعرف."

كان ذلك أكثر ما اقتربت من قول إنها تحبه. من أي شيء كانت تخاف؟ بدا كأنها مرعوبة من الكلمات. أدرك مرة أخرى أن سيطرتها عليه أشد بكثير من سيطرته عليها. كانت مكتملة، بعيدة، ومستقلة عنه. أمَّا هو فلم يعد يستطيع أن يتخيَّل الوجود في باريس بدونها. سيفقدها، هذه النفحة الداكنة من الدخان ستتلاشى من حياته. كان متأكدًا من ذلك.

أراد أن يجبرها على أن تعيش في العالم الحقيقي، فسأل: "هل يمكن أن تتزوجي ... زنجيًا؟"

"بدون تردُّد،" قالت، وهي تلتفت لتنظر إليه. "يوجد أمر واحد فقط ... عليه أن يكون قانعًا بأن يعيش ويحب في سلام. عليه ألَّا يمضي باحثًا عن التعقيدات، باحثًا عن 'قضايا' ومشاكل. هل تفهم؟ عليه أن يكون قادرًا على أن يعيش حياة عادية."

"لا توجد حياة عادية."

"نعم. نعم، توجد."

"تعنين حياة طبقة وسطى، لطيفة، في الضواحي، في شرنقة، منفصلة عن بقية العالم؟"

"منفصلة عن مشاكل العالم. نعم. ليس من الضروري أن تكون، كيف وصفتها، طبقة وسطى. لكن نعم، هذا صحيح."

"ذلك النوع من الحياة قد لا يكون ممكنًا لزنجي إن كان يفكر ويشعر."

"سيكون ممكنًا إن حاول. إن أحبني، سيحاول."

"اليهود في بولندا أثناء الحرب ... هل كان من الممكن لهم أن يعيشوا حياة عادية؟"

تردَّدَت. كانت تعاركه، لكنها كانت تتعارك مع نفسها أيضًا، ضد وعيٍ ما، أو حقيقة ما، لم تكن تريد الإقرار بها. قالت، تكاد تزعق، بيأس: "نعم! كان ذلك ممكنًا إن فَرُّوا. أنت فَرَرتَ، أنا فررتُ، أليس كذلك؟ في بولندا، لا أتحدث عمَّن قُبِض عليهم أو قُتِلوا. لا يمكن فعل شيء حيال ذلك، ولم أكن لأشتكي إن كان موقفًا لا يمكن فعل شيء فيه. أتحدَّث عمَّن لديهم إرادة حرة. من كان بمقدورهم أن يفروا ولم يفعلوا. كان في مقدور والديَّ أن يَفرَّا، لقد رأيا أصدقاءهما يفرون، لكنهما لم يفعلا لأنهما لم يريدا تصديق أن العالم رهيب هكذا كما هو حاله. حين أدركا ذلك، كان الوقت قد فات بالفعل!"

أراد سميان أن يمسح على جبين ماريا، ويهدّئها. أراد أن يأخذها بين ذراعيه، ويهدهدها مثل طفلة. لكن الكلمات التي قالها كانت ضرورية - كان يدافع عن نفسه أيضًا:

"ربما الزنجي الذي قد يريد أن يتزوجكِ ليس بمقدوره أن يهرب. ليس إلى الأبد. بسبب شيء ما داخله ..."

نظرت ماريا إلى وجهه، إلى العصابة والعين. "يمكنه أن يفرَّ. سيكون قادرًا على الفرار. إن كان يحبني، وأراد أن يفعل."

"أنتِ أنانية، يا ماريا."

"لا!" نظرت إليه بدهشة موجوعة. "ربما أنا أنانية في أشياء أخرى، لكنني لست أنانية في هذا الشأن، فيما أتحدث عنه الآن. لكن الرجل الذي يحبني ويتزوجني، سيريد أن أكون سليمة العقل. أعرف ما أشعر به، وما يمكنني أن أتحمَّل، ولا أريد أن أُجنَّ. أفضِّل أن أكون بمفردي، أي شيء، بخلاف ذلك."

2

كان العشاق يتبادلون القبلات في ممرٍّ بنهاية الشارع بالقرب من الكاميلْيون. بالقرب من بولْڤار سان جِرمان. تكوَّم خمسة أو ستة مشرَّدين معًا، وناموا أعلى فتحة تهوية فوق مترو الأنفاق لينتفعوا بالهواء الدافئ الصاعد من الأسفل.

"ستبقين معي الليلة؟" سأل سميان.

"نعم."

دندنت ماريا بلحن سمعاه في الملهى الليليّ. كان مزاجها قد تغيَّر تمامًا الآن؛ بدت مَرِحَة.

"أريد الكثير من الموسيقى. هل سنشتري اسطوانات؟"

"نعم."

"وننظم حفلة. لديك شقة لطيفة مناسبة للحفلات. هل توافق؟"

"فكرة رائعة."

"ندعو بيب، وداج، ولُو، وبيتي. يروق لي لُو، إنه أمريكي جيد، هل سمعت كيف تحدث جيدًا اليوم؟ والبرازيليين، وربما بعض أصدقائي البولنديين كذلك."

دخلا بسرعة إلى الفِراش، وقالت ماريا: "أنا سعيدة بخصوص شيء. أتى مخرج أفلام، صديق المرأة التي تدير مدرسة التمثيل، كي يرانا نتدرَّب. قال إن عندي موهبة، وربما ذات يوم سيكون لديه دور صغير لي في أحد أفلامه."

"رائع. لنحتفل." قفز سميان من الفِراش، وأحضر زجاجة بيرة وكأسين. ملأ الكأسين، وعاد إلى الفِراش حيث كانت ماريا تحملق في السقف، وهي مستغرقة في التفكير.

"ألا تريدين البيرة؟"

هزَّت رأسها. أقلقته نظرتها. عاد إلى الفِراش، واضعًا كأسي البيرة على الطاولة الجانبية.

"سميان، لقد تحدَّثتُ مع الأطباء. سيجرون العملية على عيني خلال شهرين. أنا خائفة."

كان سميان خائفًا هو الآخر، لكنه لم يُرِد أن يُظهِر ذلك. "حاولي ألَّا تقلقي، يا بيبي. سيكون كل شيء على ما يرام. ستنجح العملية، ستكونين حرَّةً بعدها، لن تعودي مضطرة إلى القلق."

"نعم."

دخَّنَت سيجارة، ونفثت الدخان بعصبية. "هل تعرف ماذا أعتقد أحيانًا؟"

"ماذا؟"

"أعتقد أنني ثلاثة أشخاص. أنا ماريا الآن، التي تنتظر العملية. وأنا ماريا المحتَمَلة، ماريا التي أجرت العملية ويمكنها أن ترى ولديها مستقبل مشرق بأكمله أمامها. وأنا ماريا محتملة وقد فشلت العملية، ماريا عمياء."

فكَّرَت في الأمر، وهي تنفض الرماد بشرود على الأرض.

"هل تعرف ما أعتقد أحيانًا؟ أنه سيكون من الأفضل أن تفشل العملية. تلك هي ماريا التي أحبها أكثر من بين الجميع. إنها الوحيدة من بين الثلاث التي أحبها."

(VII)

1

حـدَّق سـميان لمـدة طويلـة في الصـورة المنشـورة بطبعـة باريـس مـن الهيرالـد تربيـون. ليتـل روك؟ لا، بلـدة أخـرى في الجنـوب الأمريـكي، حيـث يذهـب حفنـة مـن الأطفـال السـود إلى المدرسـة مجتازيـن صفوفًـا مـن جنـود، وغوغـاء تنبـح. تُظهِـر الصـورة خمسـة بنـات وأولاد سـود يسـيرون بـرؤوس مرفوعـة، وسـط حشـد مـن بالغـين بيـض تلـوي الكراهيـة وجوههـم. والسـبب هـو أن خمسـة أطفـال لهـم بـشرة سـوداء سيجلسـون، للمـرة الأولى، جنبًـا إلى جنـب الأولاد والبنـات البيـض في مدرسـة كانـت مخصَّصـة سـابقًا للبيـض.

كان الجنـود الذيـن أرسـلتهم الحكومـة مُسـلَّحين، وواقفـين بـين الأطفـال السـود والآبـاء البيـض، بـين الأطفـال السـود والعنـف، بـين الأطفـال والموت.

شـعر سـميان برغبـة في البـكاء. تمعَّـن في الوجـوه البيضـاء. نعـم، يعرفهـا، يدركهـا: وجـوه الأرواح الحجريـة. هـل يمكـن أن يكـون هـؤلاء

النـاس موجوديـن فعـلًا؟ اجتاحتـه، وهـو يحـدِّق في الصـورة، الأهـوال والأحقـاد القديمـة مـرة أخـرى.

إن كان معـه مسـدس، ورأى تلـك الوجـوه؛ فسـيطلق النـار. لم يكـن هنـاك شـك في ذلـك. لم يتغـيَّر شيء فيـه إذًا. كان لا يـزال هـو نفسـه.

اسـتقرَّت عينـاه عـلى وجـه واحـدة مـن البنـات السـوداوات. الكـون كان وجـهَ البنـت. لم يَـشِ الوجـه بالخـوف الـذي شـعر بـه الجسـد. ومـاذا تعـرف، تلـك الفتـاة في العـاشرة أو الثانيـة عـشرة مـن عمرهـا؟ لقـد قالـت ماما: "سـتذهبين إلى المدرسـة البيضـاء في الغـد، يـا لولـو بيـل. سـيكون هنـاك الكثـير مـن النـاس البيـض هنـاك، وسـيهتفون بأشـياء سـيئة، لكـن لا تبـالي. إنـه أمـر مهـمٌّ. لا يمكنـكِ أن تفهمـي الآن، لكنـه مهـم للسـود. هـل تسـمعينني؟ نحـن وراءك: بابـا، وأنـا، وكل القـوم السـود في أمريـكا. ستسـيرين إلى الأمـام إذًا. ولا تبـالي بمـا يهتفـون. فقـط سـيري إلى الأمـام، وقـولي لنفسـك إنهـم أغبيـاء، وتذكَّـري أننـا جميعًـا هنـاك معـك: بابـا، وأنـا، والخالـة چيـسي، والعـم ويـج، وكلَّ الملوَّنـين في البلـدة، وكل الملوَّنـين في العـالم."

كان يجلـس في شرفـة مقهـى التورنـون. وعـلى طاولـة قريبـة جلـس داج يناقـش شـيئًا مـا مـع كلايـد، وچينكـس. لم يُعِرهـم سـميان أدنى انتبـاه. لم يكـن مهتـمًّا بهـم.

"الـرب في جانبنـا،" قالـت والـدة لولـو بيـل، "ليـس معهـم هـم؛ البيـض القذريـن، الذيـن يصرخـون بالكراهيـة مـن قلوبهـم. هـل تسـمعين؟"

"نعم، يا أمي."

"لسـتِ خائفـة، أليـس كذلـك يـا عسـل؟ لا يمكننـا أن ندعهـم يقيِّدوننـا إلى الأبـد، هـل تفهمـين؟"

"نعم، يا أمي."

"هل أنتِ خائفة؟"

"لا،" كذبَت، وهي تكاد تختنق بدَوِيِّ ضربات قلبها في حلقها.

وسارت في الصباح التالي عبر المطهر. بدون أن تلتفت لتنظر إلى هؤلاء الناس الذين يهتفون بقذارات. مرعوبة، لكن فخورة؛ لأن بابا وماما كانا هناك، في مكان ما بالخلف، رغم أنها لم تتمكن من رؤيتهما. وكل السود في البلدة كانوا هناك، منتبهين إليها. وبعض الرجال البيض كانوا هناك، يلتقطون صورتها، التي ستظهر في الصحف، والملوَّنون في أرجاء البلد، في جميع أنحاء العالم، سيرونها. ماما قالت ذلك. وسيفتخرون جميعًا بها. لأنها لم تُظهِر أنها خائفة."

"أيتها العاهرة الزنجية، لن تذهبي طويلًا إلى تلك المدرسة!"

"يا بنت الحرام السوداء، سنقتلكِ قبل أن ينتهي الفصل الدراسي!"

"عودي إلى أثداء أمكِ المتهدلة حيث مكانك!"

سمعتهم. لكنها لن تدعهم يعرفون بأي قوة يدقُّ قلبها! لن تدعهم يعرفون أنها خائفة! إذ ربما لا تكون خائفة! لأنها حانقة، لا يروق لها هؤلاء المجانين مطلقًا، ولماذا يجب أن تخافهم على أي حال؟ لم تكن خائفة! لم تكن خائفة! هؤلاء الناس هم الخائفون منها هي الصغيرة! لأنهم مجانين! أيها المسيح العذب، إنهم مجانين! كيف اتَّفَق أن خلق يسوع أناسًا مجانين مثلهم!

فقط سارت إلى الأمام، مباشرة، بدون خوف، ودخلت المدرسة.

2

تحـدَّث النـاس إلى سـميان، هنـاك في الشرفـة، واسـتمع بنصـف أذن فقـط.

چوي السِّكِّير، الذي أتى يتطوَّح: "كنت أعمل على الرواية."

"صحيح."

"سـتكون روايـة شرموطـة. تـكاد أن تنتهـي. بينسـون، وديـك، ورايـت، وتشسـتر هايمـز ... ليسـوا الروائيـين الوحيديـن هنـا في الحـي. سـتكون شرموطـة."

كانـت تلـك هـي الروايـة التـي يعمـل عليهـا چـوي منـذ سـنوات. قـرأ بينسـون أجـزاءً منهـا، وأحرجـه أن يجـد كتابـة طفـل في الثامنـة. لم يـدر مـا يقـول.

"رواية شرموطة،" قال چوي. "سأدعك تقرؤها ذات يوم."

داج، الـذي غـادر كلايـد، وأتى ليجلـس بجانـب سـميان: "جحيـم، أليـس كذلـك، شـغب المـدارس ذاك؟"

"نعم."

"لا توجـد إلَّا الأخبـار السـيئة في الجرائـد هـذه الأيـام. كنـت أقـرأ عـن الكونغـو، عـن القتـال ومـا إلى ذلـك. مـا في رأيـك يحـدث هنـاك؟"

"لا يسـمح البلچيكيـون لأي كونغـولي بـأن يتلقَّـى تعليمًا، ثم ينسـحبون. مـاذا تتوقَّع؟"

"نعـم، يبـدو الوضـع سـيئًا. سـميان، كنـت أريـد أن أتكلـم معـك. اسـمع، عنـدي مشـكلة نسـائية. أنـا في السـفارة، وذلـك يعنـي أننـي أحـد موظفـي وزارة الخارجيـة، تمـام؟ طيـب، هنـاك هـذه الفتـاة الأمريكيـة البيضـاء، الفتـاة التـي يدعوهـا بيـب والآخـرون وريثـةً، وهـي مغرمـة بي،

هل ترى ما أعني؟ وأبوها رجل مرموق في وزارة الخارجية، لديه الكثير من المال، وهو يعرف عنَّا، أنا والفتاة، لكنه لا يمانع، إنه ليبرالي. ما رأيك؟"

"ما هي المشكلة؟"

"حسنًا، انظُر، المشكلة هي، يمكن أن نقول إنني أحب فتاة أخرى، الفتاة الفرنسية الصغيرة الحلوة التي رأيتني معها عدَّة مرَّات، تتذكر؟ أشعر برغبة في الزواج من الفتاة الفرنسية، علاقتنا جيدة، بيننا رِقَّة ولطف؛ وهي تفهمني. الفتاة الأمريكية لا تفهمني على الإطلاق."

"طيب، تزوج الفتاة الفرنسية."

"الأمر ليس بهذه البساطة. أعني، كيف أعرف إلى متى سأريد أن أبقى في فرنسا؟ لكنني أريد أن يكون لي مستقبل مهني في وزارة الخارجية، واللعنة، يمكن لوالد الفتاة الأمريكية أن يساعدني. هل ترى ما أعني؟ أعرف أن هذا يبدو ماديًّا، لكن، اللعنة، يا رجل، الحياة مادية. هل جرَّبتَ أن تأكل روحًا؟ عليَّ أن أفكر في المستقبل."

"تزوج الفتاة الأمريكية. تستحقان أحدكما الآخر."

"أنا والبنت الأمريكية لم نتحدث عن الزواج، يا رجل. أبوها ليس ليبراليًّا إلى هذا الحد. ما بيننا مجرد علاقة. ماذا كنت لتفعل إن كنت مكاني؟"

"كنت لأقفز في السين،" ضحك سميان.

وجد نفسه على قدميه، يمشي ببطء، مستنشقًا الهواء البارد، مع صورة الفتاة الصغيرة التي أسماها لولو بيل. مرَّت به وجوه بيضاء. لولو بيل. ما الذي يفعله في هذا العالم الأبيض، على أي حال؟ مَن يكون هؤلاء الناس؟ ماذا تكون تلك اللغة الغريبة، الخالية من

الدمـوع، التـي يتحدثونهـا؟ مـاذا يمكنهـم أن يـروا عـبر عيونهـم غـير الـمُشوَّهة؟

لم يسـمع چينكـس إلى أن حاذتـه، مقطوعـة الأنفـاس مـن الجـري. "لا بُـدَّ أنـك أصـم إضافـة إلى كونـك نصـف أعمـى، يـا سـميان. ناديـتُ عليـك خمـس مـرات، زاعقـةً بعلـو صـوتي. ... ابـن العاهـرة ذلـك مجنـون!" طرقـع شـعرها ذيـل الحصـان فـوق كتفهـا.

"مَن؟"

"كلايـد. دائمًـا يتشـكَّى، دائمًـا يتذمَّـر. لا أعـرف لمـاذا كنـت مجنونـة بمـا يكفـي أن أتزوجـه. إلى أيـن تذهـب؟"

"فقط أمشي." لم يشعر برغبة في الحديث مع چينكس.

"لنتناول مشروبًا في الـمِفيستو. أحتاج إلى تهدئة أعصابي."

طلبـا پنـش روم. كان المارتنيكيـون حسـنو الهنـدام في الـمِفيستو يضحكـون، ويتحدثـون بلكنـة كريوليـة. وكانـت أضـواء النيـون البرَّاقـة صاخبـة، لكـن مناسـبة عـلى نحـو مـا، ومرحـة. انتشـل المـكان سـميان، قليـلًا، مـن مزاجـه السـيئ.

وجَّهـت چينكـس عينيهـا الصغيرتـين، الرماديتـين الفاتحتـين، إليـه. كانت جذابـة فعـلًا، عـلى نحـو مجنـون.

"سعيد، يا سميان؟"

"چينكـس، دعينـا لا نبـدأ ذلـك. دعينـا لا نبـدأ في طـرح نوعيـة أسـئلة المثقفـين الأمريكيـين في جرينتـش ڤيلـدج. لا تحليـل نفـسي ولا صناديـق طاقـة."

ضحكـت. "لقـد قمـت بعمـل تحليـل نفـسي، وجلسـت في صنـدوق طاقـة. كـم كانـت عديمـة الفائـدة! يـا ربي، أي حيـاة لدينـا في الولايـات، يـا سـميان. كل هـؤلاء الرسـامين في نيـو يـورك، يـا يسـوع! كل هـؤلاء النـاس

المجانين، المشوَّشين. وأنا، كذلك. إلَّا أنني أردتُ أن أبتعد. أردت أن أبتعد عن تلك الهستيريا الشاملة، وأسترخي في باريس."

"أراهن أنكِ تلتمسين نوعية الأشخاص نفسها هنا، وتفعلين الأشياء نفسها."

"إلى حدٍّ ما. إنها دائرة مُفرَغة. قابلت كلايد هنا، ظننت أن الهدوء الجنوبي ربما يجدي معي. كان يومًا بائسًا! هل تتخيَّلني آخذ ذلك الشخص ليعود معي إلى نيو يورك! لن يستطيع التواؤُم. يريدني أن أذهب إلى چورچيا، وأعيش معه هو وأبويه. چورچيا! هل تمزح! هل يمكنك أن تتخيَّلني في أحد حشود الغوغاء هذه، ألقي الحجارة على أطفال المدارس الزنوج الصغار؟"

"لا، يا چينكس. هذا مكان لا أستطيع أن أتخيَّلكِ فيه،" قال سميان بمزيد من الرِّقَّة.

طلبا جولة ثانية من پنش الروم.

"كيف تتمكَّن من البقاء هادئًا إلى هذا الحد؟" سألت چينكس.

"هادئ؟ الآن؟"

"بشكل عام. ليس أنت فقط، بيب كذلك، وبينسون، وداج، كل الأمريكيين الزنوج. ألم تلاحظ؟ انظر إلى الفرق بين الأمريكيين البيض والزنوج هنا. البيض، فيما عدا لُو، يشربون بشكل سخيف، يضغطون على أعصابهم، يزداد جنونهم، محاولين أن يعيشوا مثل 'مدار السرطان' أو 'الشمس تشرق أيضًا'. بدون ركيزة في الحياة. يدورون فقط مثل نحلة، ويخافون من التوقف. ألم تلاحظ ذلك؟ الزنوج ليسوا هكذا. إنهم يأخذون الأمور ببساطة، على مهل. لا يفرطون في الشرب. يبدو أن لديهم شيئًا يشغلون أنفسهم به، شيئًا يفكرون فيه، شيئًا يفعلونه - حتى حينما لا يفعلون شيئًا لعينًا. ألم تلاحظ؟"

"لا." لم يكن واعيًا بذلك، لكن الآن وقد قالته چينكس، فقد بدا صحيحًا.

"لِمَ ذلك في رأيك؟" سألت چينكس.

"لا أعرف. ربما الحياة لها معنى أكبر بالنسبة لنا."

"هذه مقولة غريبة."

"حينما يكون عليكِ أن تخرجي من تحت العصا؛ يكون للحياة هدف. لكن لا بُدَّ أن تكون الحياة بلا معنى إن كنتِ مَن يحمل العصا. إلَّا إن كنتِ سادية."

"لكن ليس بيننا أحد هنا ممَّن يحملون العِصِيَّ."

"الأمر مَجازيٌّ. اسمعي، ما المعنى الذي يمكن أن تنطوي عليه الحياة بالنسبة لأمريكي أبيض عادي معه نقود؟ ما نوعية الأهداف التي يمكن أن تكون لديه؟ أن يكسب المزيد من المال؟ أن يحتفظ بما لديه؟ ليس هذا بهدف. لكن حتى كسب المال يمكن له أن يكون هدفًا من نوع ما بالنسبة لشخص فقير لديه زوجة مريضة وتسعة أطفال."

ابتسَمَت چينكس ببهاء، وأشارت إلى النادل كي يحضر كأسين آخرين. كان تأثير المشروبات يبلغ رأسيهما. فكَّر سميان في لولو بيل. هل كانت لولو بيل لترضى بجلوسه بعيدًا ها هنا، في هذا المقهى، يشرب ويمرر الوقت؟

أخذت چينكس بذراع سميان، وضغطت عليه. "أنت تروق لي، يا سميان. يا سميان ذو العين الواحدة. يا لورد نيلسون. ألم يكن لورد نيلسون مَن كانت لديه عصابة سوداء فوق إحدى عينيه؟ أنسى."

لوَّح اثنان من المارتنيكيين إلى سميان. ابتسم، وردَّ تحيتهما.

"هل تعرفهما؟"

"لا."

"لِمَ لوَّحت؟ لأن لديهما بشرة سوداء؟"

"نعم."

"هل تشعر بالقرب منهما؟ أكثر قُربًا من الأمريكيين البيض؟"

"نعم."

"هذا غريب." فكَّرت في الأمر. "هل تكره الأمريكيين البيض؟"

"بشكل عام، لا يروقون لي كثيرًا. يروق لي البعض منهم. أقلية قليلة جدًّا."

هزَّت رأسها، على نحوٍ حالِم. قالت، بعد فترة، بصوت غناء، مختلف: "سميان ..."

"نعم."

"أين ماريا؟"

"في مدرسة التمثيل."

"لا يوجد أحدٌ في شقتك؟"

"لا."

"أنا عطشانة. هل لديك أي ... ويسكي في شقتك؟"

"لا."

"أي كونياك؟"

"لا."

"أي روم أو بيرة؟"

"لا."

"سميان، لنذهب إلى شقتك ونشرب ماءً."

ضحك. "چينكس، لديَّ في شقتي ويسكي، وچين، وكونياك، وروم، وبيرة، وكالڤادو، وبيرنو، وتشنزانو، ومارتيني، ونبيذ، وساكي. لكن دعينا لا نشرب أي شيء."

"لِمَ لا؟"

"لست عطشانَ."

قطَّبت للحظة، لكن عينيها الرماديتين كانتا تستمتعان. "سميان. لِمَ لا تريد أن تصنع الحب معي؟"

"لأن: أ، أنا سعيد جدًّا مع ماريا. ب، أحاول أن أتجنَّب مضاجعة النساء المتزوجات. ت، تنامين مع الجميع على أي حال؛ لهذا فواحد أكثر أو أقل لن يفرق كثيرًا. ج، لا أريد أن أنام معكِ."

"لماذا؟"

"لأنني أعتقد أنكِ هستيرية. لا أعتقد أنكِ تستمتعين بذلك على أي حال."

نظرت إليه، مأخوذة. للحظة، بدا أنها لا تجد الكلمات. قالت أخيرًا، بما يكاد يكون همسًا: "هذه هي أصدق كلمات قُلتَها على الإطلاق."

للحظة طويلة، جلسا في صمت مُحرَج. ثم قالت چينكس بصوت خافت، متعب: "تعرف، كنت متزوجة من قبل، في الولايات. برقيب في سلاح مشاة البحرية. رجل وسيم، ضخم، رجل تتهافت عليه النساء. دون چوان. أخصيت ذلك الرجل. بكل يُسرٍ. نفسيًّا، وليس جسديًّا. لم أكن أُشبَع قَطُّ، كنت أنزعج جدًّا وقتما يصنع الحب معي؛ لهذا لم يحدث شيء. لا شيء، لا شيء، كنت أفقد عقلي. كم من النساء مثلي؟"

"الكثير."

"هكذا أخرجت غضبي عليه. أخبرته أنه ليس رجلًا، أن كل الآخرين الذين عرفتهم من قبل جعلوني أشعر بشيء. اتَّخذتُ عُشَّاقًا، وكنت باردة معهم أيضًا، لكنني أخبرته أنهم كانوا رجالًا. لقد أخصيته. ليكن الرب في عوني. بلغ حدَّ أنه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئًا. سخرت منه. كرهني؛ لهذا، ذات ليلة، ونحن في الفِراش، حاول أن يقتلني. كنت أسخر منه، وفجأة وضع يديه حول عنقي، وبدأ في خنقي. كان يحاول أن يقتلني، لا شك، لكنني تمكَّنتُ بشكل ما أن أصرخ. أتى الجيران مندفعين، وجرُّوه بعيدًا عني. كان الأمر رهيبًا. كان يجب أن ترى الكراهية على وجهه. هكذا تركته. كان ذلك هو الأفضل لنا كلينا، خصوصًا له هو؛ ماذا كان يمكن أن نفعل خلاف ذلك؟ تَطلَّقنا. قسوة ذهنية!" ضحكت.

ثم ارتعدت قليلًا. "هل تعرف ما هو الرهيب؟ لقد فعلت الأمر نفسه بكل رجل كان مجنونًا بما يكفي أن يقع في حبي منذ ذلك الحين. وفعلتها بكلايد. لم يكن يشرب هكذا قبلها، أنا مَن دفعته إلى ذلك."

صفَّر سميان صفيرًا خافتًا. "الرجل المسكين. چينكس المسكينة أيضًا."

"الأمر رهيب. لا أستطيع مساعدة نفسي. ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟"

"لا أعرف، يا چينكس. اذهبي إلى طبيب."

"ذهبتُ إلى أطباء."

"لا أعرف. ذات يوم، فقط هكذا، سيأتي الحل. هل تعرفين ما أعني؟"

"لن يأتي أبدًا. الأمر رهيب. رهيب. لا أعرف ماذا أفعل. إنني أفقد عقلي."

3

چينكس المسكينة، فكّر، حينما افترقا بعد ذلك. سارت ببطء عائدة في اتجاه التورنون. هزَّ سميان رأسه. تلك الفتاة لديها مشاكل! لكن لولو بيل عادت إليه. كانت المشاكل على بُعد عوالم كاملة.

صادف كلايد، الذي كان يسرع الخطو في الشارع، وقد بدا منهكًا ومتوترًا. كان يشرب.

"أين تركتها؟" سأل سميان.

"مَن؟".

"چينكس. رأيتها تقطع الشارع عَدْوًا، وتنضم إليك."

"لقد عادت إلى التورنون منذ قليل."

تردَّد كلايد. كان غير ثابت على قدميه، وبدا على وشك البكاء.

"لم يكن ذلك لطيفًا جدًا منك، يا سميان."

"ماذا؟"

"مضاجعة زوجتي. أعرف أنها تضاجع الجميع. لكنني ظننت أنك صديق."

حملق سميان فيه. "تحتاج إلى دُشٍّ بارد، أيها العجوز. ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟"

"رأيتها تجري وراءك. أعرف طُرقها. لكنني ظننت أنك صديقي. دعوتك حتى إلى أن تأتي لزيارتي، وترى عائلتي، هناك في الجنوب. صديق."

"لست صديقًا،" قال سميان بغضب. "لمعلوماتك، لم أضاجع زوجتك. أنتم يا أولاد الحرام البيض الأغبياء تظنون أن أي رجل أسود سيقفز

عـلى أي زوج مـن السـيقان البيضـاء المفتوحـة! اذهبـا إلى الجحيـم، أنـت وزوجتـك!"

بـدا كلايـد متحـيرًا. "لقـد أسـأت الفهـم، يـا سـميان. أنـا -" لكن سـميان التفـت، وابتعـد بـدون أن ينتظـره كي يكمل.

كان سـميان غاضبًـا أثنـاء عشـائه، وبعدهـا حتـى وهـو يمـشي نحـو مسـكن بيـب. لا ينبغـي أن يـدع ذلـك الكراكـر يؤثِّـر عـلى أعصابـه. شـعر كذلـك ببعـض الأسـف لابـن الحـرام المسـكين. لكـن ينبغـي ألَّا يُبـدِّد شـفقته. فكَّـر في لولـو بيـل، والغوغـاء البيضـاء الشـنيعة. هنـاك في الديـار، ربمـا يكـون كلايـد ضمـن تلـك الغوغـاء. لم تكـن لولـو بيـل تبحـث عـن أي شـفقة.

كلـما فكَّـر في تلـك الفتـاة الصغـيرة، برأسـها المرفوعـة، كلـما زاد شـعوره بالاشـمئزاز مـن نفسـه. إنـه هنـا، مرتاحًـا في باريـس، تـاركًا المعركـة للولـو بيـل الصغـيرة ومثيلاتهـا! هـل كان هـو ليمـشي بـين تلـك الغوغـاء؟ ربمـا. لكـن مـن السـهل قـول ربمـا، عـلى البُعـد، هنـا.

كان بيب مسرورًا لرؤيته.

"لماذا أنت وحدك؟" سأل سميان.

ضحـك بيـب. "حتـى أفضـل الرجـال يحتاجـون راحـة مـن السـيدات مـن وقـت إلى آخـر. أرِح مؤخِّرَتـك عـلى ذلـك المقعـد هنـاك. مـاذا عـن بعـض الويسـكي؟"

كان لـدى بيـب نـار متَّقِـدة في المدفـأة. وكان الجـو السـيئ قـد خيَّـم عـلى باريـس الآن: رطوبـة بـاردة. يبـدو أن بيـب كان يقـرأ ويـشرب بمفرده. خطـر لسـميان فجـأة أنـه نـادرًا مـا كان بمفـرده مـع بيـب، وأنـه لم يتخيَّـل قَـطُّ مـا يـدور في عقـل بيـب حـين يكـون وحـده.

"نـوع جيـد،" قـال بيـب، وهـو يرفـع كأس الويسـكي أمـام الضـوء. "يعجبني ذلك أحيانًا. فقط الجلوس هنا، من وقت إلى آخر، في كسل وراحـة، أرشـف القليـل مـن الويسـكي. فقـط هـدوء. لا مـزاح، لا نـاس. فقـط مـن وقـت إلى آخـر. هـل تعـرف مـا أعنـي؟"

"نعم."

"لا يمكن لرجل أن يمزح طوال الوقت."

"لا."

ضحـك بيـب؛ فاهتـز جسـده الضخـم في المقعـد. "المـزاح بعـض الوقـت، مـع هـذا. الضحـك عـلى المشـاكل. البيـض لا يفهمـون ذلـك مثلنـا. مصابـون بالإمسـاك. عـلى الرجـل أن يضحـك."

اتقَّدت النـار. كانـت الغرفـة حميميَّـةً، ودافئـة. تنـاول بيـب الزجاجـة مـن عـلى الطاولـة في المنتصـف، وصـبَّ المزيـد مـن الويسـكي في كأسـيهما.

"هل رأيت الصحف؟" سأل سميان.

"نعـم." نظـر بعنايـة في الفضـاء. "شرمطـة، يـا رجـل. وجـوه هـؤلاء الأطفـال. أي تناقـض مـع وجـوه هـؤلاء البيـض. ذلـك هـو حيـث تـرى فـروق الـروح."

تنهَّـد بشـدة. أدرك سـميان أن صـورة الأطفـال والغوغـاء كانـت هـي غالبًـا السـبب في أن بيـب بمفـرده.

"هل تفكر على الإطلاق في، ربما، أن تعود إلى الولايات، يا بيب؟"

"أبدًا!" قال بيب بحماس شديد.

"أشـعر بنـوع مـن ... الذنـب، أحيانًـا. مثـل اليـوم بعـد رؤيـة صـورة الأطفـال في الصحيفـة. يأتينـي شـعور أننـي ينبغـي أن أكـون هنـاك، أنـا أيضًـا، أناضـل."

"أعرف شعورك. لكنني لن أعود إلى الولايات. الولايات لا تقول شيئًا لي. لقد ابتعدت عن كل هذه العنصرية لمدة طويلة حتى إنني لن أكون قادرًا على التواؤم معها. ربما ينتهي بي الحال إلى قتل شخص ما، أو إلى أن أُقتل. لا، لن أعود." مكتبة سُر مَن قرأ

"لا يمكن للجميع أن يبتعدوا."

"بداية، لا يريد الجميع أن يبتعدوا. أغلب الزنوج يشعرون بأنها بلادهم بنفس قدر كونها بلاد الرجل الأبيض، ويريدون البقاء هناك. هذا شأنهم، وأتمنى لهم المزيد من القوة. ثم هناك البعض، عدد ما، يريدون أن يبتعدوا، ولا يستطيعون تحمُّل تكاليف ذلك. كانوا ليغادروا إن استطاعوا. أتمنى أن يتمكن الآخرون الذين يريدون المجيء من تحمُّل تكاليف ذلك ذات يوم. ... لكن لا ترسم صورًا مثالية. أغلب الزنوج مرتبطون بأجهزة تليفزيوناتهم، وبسيارتهم، بنفس قدر ارتباط البيض بها، ولن يروق لهم العيش هنا."

"لكن المعركة. ألا تعتقد أننا ينبغي أن نكون في المعركة؟"

"يتوقف هذا على الغاية من المعركة. أقول لك، إن كنا مثل الجزائريين، وكنا نقاتل لتحرير بلدنا نحن، ولطرد القوم البيض - مثلما الحال في مستعمرة - تمام؟ حينها، لن أكون هنا. سأكون في تلك المعركة. لكن القتال من أجل ماذا؟ من أجل الاندماج؟ يا رجل، أنا لا أريد أن أندمج! لا أريد أن أذوب في ذلك المجتمع الأبيض الكبير المشوش هناك. شعوري في هذا الشأن مثل المسلمين السود."

"لا نقاتل كي نذوب. نقاتل من أجل الحقوق نفسها، والتصويت، والتعليم، والوظائف الجيدة ..."

"هذا هو الشيء نفسه. الاندماج، هذه هي الكلمة، بصرف النظر عن كيف تصيغها. انظُر، لا أستطيع أن أفعل الأشياء بدافع من عقلي، يتعيَّن أن أفعلها بدافع من قلبي. حسنًا، اسمع إذًا: إن كنت في أمريكا،

لم أكن لأفعل شيئًا. كنت لأنطوي على نفسي وأموت، مثل الهنود. هذا ما وجدته يحدث لي قبل أن أغادر. كنت مسؤولًا في 'الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين'. كنا نقاتل من أجل الاندماج، الاندماج. أن نُلحق الملونين بالمدارس، نحصل لهم على وظائف، نحصل لهم على حق التصويت. لكنني أدركت أن شيئًا ما لم يكن له وَقْعٌ حسن على مشاعري. جلست، وحاولت أن أكتشف ما كان ذلك. وعثرت عليه.

الأمر هو أنني لم أكن أحبهم، هؤلاء البيض، هم أعدائي. ليسوا جميعًا، بل أغلبهم. انظُر إليهم يصرخون، هذه الضِّباع البيضاء، في تلك الصورة بالجرائد اليوم. هل تريد أن تندمج مع ذلك؟ هم أعدائي، وهناك معركة دائرة، حرب طويلة تدور منذ أخذوا أول العبيد إلى هناك، لكن أي نوع من الحروب تلك إن كانت غايتك هي أن تُدمج في صفوف العدو! ... لا، يا رجل. في 'الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين'، كنت أجوب الأرجاء مُلقيًا الخطابات عن الأخوَّة وكل هذا، محاولًا أن أجبر هؤلاء الناس على أن يحترمونا، أن يحبونا، أن يفهمونا. هذا مبلغ الأمر. لكن كيف يمكنني أن أواصل فعل ذلك في حين أني لا أحترمهم حتى، ولا أحبهم - رغم أنني أفهمهم جيدًا. نعم، أفهمهم. لا، هذه المعركة لم تكن لي، وليست لي الآن."

"ما زلت أشعر بالذنب."

"نعم. أشعر بالذنب أنا أيضًا. الكثير من الناس يشعرون بالذنب، لكنني أعرف أنه بالنسبة لي لا يوجد ما يمكن فعله. عليَّ فقط أن أتعايش معه، الذنب."

"ستبقى هنا حتى تموت؟"

"حتى أموت، أو يطردني الفرنسيون."

"وإن طُرِدتَ؟"

"العالم كبير، يا رجل. هناك إفريقيا، وآسيا، وأوروبا - أماكن كثيرة. إنني أضع بعض المال جانبًا، على سبيل الاحتياط؛ مَن يدري. ثم سيشهد العالم ظاهرة جديدة، بي وآخرين ها هنا. الزنجي الهائم."

لم يَنَم سميان تلك الليلة. هام من بار إلى بار، ووجه لولو بيل معه دائمًا. الحديث مع بيب لم يُعِنه. لاحظ أن الوجوه الأخرى من الصورة كانت هناك أمامه، هي أيضًا، وجوه الزومبي، وجوه الكابوس، تلوح مهدِّدةً بعيون باردة فوق رأس لولو بيل. ها هي هناك، وراء الزجاجات فوق الرف. ها هي، في السائل بالكأس. أقنعة موت. ارتجف. بدا فجأة أنه لم يتحرك، أنه جرى وجرى في مطاردة هذيانية، وأنه سقط منهكًا في البقعة التي بدأ منها. ستعود الأحلام الآن، كان يعرف ذلك. الوجوه. شعر بوجع في محجر عينه.

موسيقيو الچاز في بيردلاند: "هل رأيت الصحف؟" سألوا. هم، أيضًا، سمعوا لحن الطفلة يرنُّ بوضوح جرس وسط نشاز الغوغاء حُمر العيون. في آ لا رومانس، وهو بار إسباني ناعم الإضاءة، وجد سميان نفسه يشرب كأس ويسكي بعد أخرى. اندسَّت إحدى النادلات بجواره.

"تُغرِق أحزانك، يا سميان؟"

"ليست لديَّ أحزان،" قال.

(VIII)

1

خرج چوي السِّكِّير من بار، وسقط ميتًا في الشارع ذات ليلة في بدايات ديسمبر.

چوي مات؟ لم يكن ذلك ممكنًا! لم يكن من الممكن أن يموت أحدٌ هنا!

لم يكن سميان قطُّ قريبًا جدًّا من السِّكِّير العجوز، غير أن الأخبار أتت كصدمة رهيبة. چوي مات؟ لن يروه بعد ذلك في بار المواكو، أو متطوحًا في شارع مسيو لو برنس؟

في الصباح الذي عُرِض فيه نعش چوي، قرَّر سميان أن يذهب لتوديع العجوز. أحضرت له ماريا خطابًا من أحد أشقائه. أشياء اعتيادية: الأسرة، الجيران، حياة الشقيق الخاصة. التفكير في الزواج. العمل في منظمات زنجية مختلفة ("مؤتمر المساواة العرقية"، "الجمعية الوطنية للنهوض بالملوَّنين"). التقدُّم الذي تَحقَّق، الصعوبات التي

تعترض الطريق. وضع سميان الخطاب، وأشعل سيجارة، بينما تصنع ماريا قهوة. دائمًا ما جعله تَلقِّي رسائل من الديار يشعر بعدم الراحة. دائمًا ما يسأل الناس: متى ستعود؟

"قهوة وقبلات،" قالت ماريا، وهي تُحضِر صينية إلى الفِراش. قبَّلته بخفَّة. "سأذهب إلى حفل كوكتيل هذا الأصيل. لفرقة المسرح. سيكون مخرج السينما هناك، المخرج الذي أخبرتك عنه، الذي يعتقد أنني ممثلة جيدة. أعرف أنك لا تريد ذلك، لكن، اليوم، هل تأتي معي؟"

"في أي وقت؟"

"سيبدأ في الرابعة. يجب أن أكون هناك قبل ذلك بقليل، للمساعدة في التحضير."

"سأذهب إلى جنازة چوي في الأصيل. سآتي بعدها، تمام؟"

"هل تَعِد؟"

"أعد."

تَهلَّل وجهها. "لأنني، تعرف، لديَّ دائمًا انطباع بأنك لست مهتمًّا بالأشياء التي أفعلها. أريدنا أن نتشارك الأمور. هكذا يجب أن يكون الحال."

نظر في عينيها الضعيفتين، وقبَّلها على الخد.

كان يومًا باردًا، ومشمسًا، وعمل سميان، طوال الصباح، عند حامل لوحاته بجوار النافذة، بينما استلقت ماريا على السرير، في سروالها، تذاكر دورًا. لم يكن سميان قانعًا بلوحته: تقنيًّا، لم تكن سيئة، لكن لم يكن هناك دافع داخلي، أو إلهام. ظل يفكر في چوي.

تناولا الغداء وحدهما، وبعدها جلس سميان أمام آلته الطابعة. كان محرِّرو المجلة قد كتبوا: "نحن مهتمُّون بمقال عن تاريخ أحزمة العفَّة". انفجر ضاحكًا، وهو يتساءل أين بحق السماء يمكنه أن يجد

معلومات عن موضوع كهذا؛ لكن في المكتبة الوطنية، وفي متحف كلوني، أدهشه أن يجد كل المادة التي يحتاجها. طبع، بحروف مائلة، المَثَل الفرنسي "السمعة الطيبة تساوي أكثر من حزام ذهبي"، ثم بدأ المقال:

منذ أن دلَّلت حواء، بالطريقة التي صارت شهيرة الآن، على السهولة التي يمكن أن تُقاد بها النساء إلى الضلال، يحاول أبناء آدم العثور على طرق للحفاظ على زوجاتهم - وصاحباتهم - بعيدًا عن أحضان الغواية.

لا نفع في ذلك، لم يستطع التركيز. واصل چوي اقتحام أفكاره.

"أشعر بالتململ،" أخبر ماريا. "أعتقد أني أحتاج إلى تغيير مناظر. هل ستأتين معي؟"

"لتذهب أنت، يا سميان،" قالت، وهي ترفع نظرها عن السيناريو. "سأبقى، سأذاكر لبعض الوقت، ثم يجب أن أذهب لتحضير حفل الكوكتيل. أراك هناك."

جلس في التورنون، يشرب الشوكولاتة باللبن. كان طلاب أفارقة، جالسين إلى الطاولات المجاورة، يناقشون شؤون السياسة. كانوا حانقين على أحداث في الكونغو، وأبدوا آراءً قاسية ضد موبز تشومبي، رئيس مقاطعة كاتانجا. وتجادلوا بشأن المزايا النسبية في سيكو توري، وموديبو كيتا. اعتقد بعضهم أن حرب الجزائر ستتسبَّب في انهيار الحكم الديمقراطي في فرنسا.

أنصت سميان، شاعرًا أنه منعزل وعديم الفائدة. كان مستقبل هؤلاء الطلبة يبدو لهم واضحًا أمامهم. يدرسون الإدارة، والهندسة، والرياضيات. وسيعودون بعد ذلك إلى ديارهم، كل إلى بلده، حيث الاحتياج إليهم شديد، وسيتولون مناصب تنتظرهم. سيساعدون

شعوبهم. كانت مصائرهم الفردية ومصائر بلادهم واحدة. حسدهم سميان. فكَّر في أخيه، وفكَّر في بيب. ثم في موت چوي.

حان وقت الذهاب. لم تكن قاعة الجنازة بعيدة. في بولْڤار سان ميشيل، رأى حشودًا تقف على الرصيف، وسمع هتافات من الشارع. كان عدة مئات من الطلبة يسيرون في مظاهرة تأييدًا للسلام في الجزائر. يحملون لافتات: "أوقفوا الحرب القذرة"، "فاوضوا في الجزائر"، "العدالة للشعب الجزائري". هتفوا، مرارًا وتكرارًا، بمطلب واحد: "السلام في الجزائر! السلام في الجزائر!" نعم، هناك مقاومة في فرنسا لما يحدث في الجزائر - مقاومة نشطة، صغيرة نسبيًّا، لكنها موجودة. كان الطلاب شُجعانَ؛ فالمظاهرات ممنوعة، وستُكسر جماجم حين يقابلون صفوف الشرطة في نهاية الشارع. صفَّق بعض الناس على الأرصفة، وهلَّلوا.

مرَّ المتظاهرون. وصل سميان إلى قاعة الجنازات، ووجد بيب، وبينسون، ولُو، وچينكس، وبعض الناس الآخرين من الحي. كان الجميع يحدقون في النعش في صمت مُحرَج؛ هزَّ بيب وبينسون رأسيهما خفية إلى سميان.

رقد چوي هناك. البشرة رمادية وجافة، الشارب والشعر أشيبان، اليدان ذابلتان، أطراف الأنامل مشققة مثل بالونات مفرغة من الهواء. الشفتان مضمومتان، جوانبهما ما زالت مثنية إلى أسفل في تجهُّم أبدي. العينان مغمضتان على نحوٍ لا لبس فيه.

هنالك في فيلادلفيا، حدثت جنازات. الكثير من الجنازات، مع كل هؤلاء الأقارب. الجَدُّ. كان عضوًا في أخوية الأيائل، وحين مات أعطوه واحدة من جنازاتهم المنمَّقة.

"لا أريد أن أذهب،" كان قد قال لأمه.

"لا بُدَّ أن تذهب، يا سميان؛ أي طريقة هذه تكون عليها؟ لقد أحبَّكَ الجَدُّ دائمًا. عليك أن تذهب لتوديعه."

لسِتِّ ساعات، وهو طفل في العاشرة، جلس مع الأسرة في الصف الأول من غرفة العرض بقاعة الجنازات، يحملق في النعش الذي وُضِع فيه الجد. في الخلف، جلس الأصدقاء، وأعضاء الأيائل، وبقية النظارة. فقط جلسوا وراقبوا جثةً. ما كان الجد فيما مضى. وسيوارونه التراب. ارتجف سميان في رعب بارد.

وقف الأخ حاكم الأيائل، وفي يده صنجة. كانت ماما قد شرحت الأمر له: يدقُّون الصنجة ثلاث مرات، وفي كل مرة ينادون باسم الجد، وإن لم يرد الجد بعد الدقة الثالثة يعلنون وفاته.

"أندرو!" تردَّدَت الصنجة على نحو تقشعر له الأبدان. بدأ الناس في الحجرة في النشيج. مسحت ماما عينيها بمنديل. "أندرو!" رنَّت الصنجة مثل الموت، وتعالت أصوات البكاء. أراد سميان أن يجري ويختبئ. كانت أمه تبكي الآن؛ بدا أن الكل يبكي، وفي الجزء الخلفي من الحجرة، بدأت النساء في الهمهمة كأنهن كنَّ على وشك الانخراط في ترتيلة. بدأ سميان يشعر بالرائحة الخانقة للزهور، بتأثير ذلك العبير الذي يسبب الاختناق، وتأكد أنه لن يكون قادرًا أبدًا على تحمُّل أن يتشمم زهرة مرة ثانية. حملق مرعوبًا في جَدِّه، منتظرًا، مقطوع النفس، الدَّقَّة الثالثة من الصنجة، كأنه كان يتوقَّع أن الرجل العجوز، الذي كان بُنِّيَّ البشرة وصار رماديًّا، سيقوم عن الساتان الزَّلِق الشنيع، الذي يبطِّن الكفن، ويرد حين يُنادى باسمه. "أندرو!" رنَّت الصنجة للمرة الثالثة والأخيرة، تحوَّل النشيج في الحجرة إلى صراخ، وقال الأخ الحاكم: "أُعلِنُكَ الآن ميتًا."

وقفت الأخت چونسون، وحلت محل الأخ الحاكم بجوار النعش. بدأت القصيدة الجنائزية للأيائل، "في اعتبار الموت": "مع مَن يعقد، حبًّا في الطبيعة / صلة بهيئتها المرئية، تتحدث / لغة مختلفة ..."

قصيدة منذرة. أراد سميان أن يبكي، لكن الدمع لم يأت؛ أراد أن يجري ويختبئ.

... سيضحك المَرِحون
حين تكون قد مضيت،
الوقورون، نَسْلُ الحرص،
يتهادون قُدُمًا، وكلٌّ كما قبلًا سيطارد
شبحه المفضَّل؛ ورغم ذلك سيغادر كل هؤلاء
أفراحهم وأشغالهم، وسوف يأتون،
ويتوسَّدون فراشًا معك.

أشاح سميان وجهه عن نعش چوي. كان قريبًا من الدموع، ولم يعرف السبب. توالت الصور في رأسه: الطلبة الأفارقة، الجزائريون، شقيقه، لولو بيل، الفرنسيون الذين يتظاهرون في الشارع. لقد مات چوي؛ وهو حي. لكن إلى أي درجة هو حي؟

كان بيب وبينسون يغادران. أشارا إلى سميان أن يصحبهما، لكنه هزَّ رأسه. بقي لفترة قصيرة. ثم غادر بمفرده.

2

لم يُرِدْ أن يذهب إلى حفل الكوكتيل، لكنه كان قد وعد ماريا. سُرَّت حين رأته، وقدمته إلى الجميع، بما فيهم مخرج الأفلام.

شعر سميان بالاكتئاب، وهو في الحجرة باهرة الإضاءة، وكأس الكوكتيل في يده، يستمع إلى الضيوف المهندمين يناقشون مسرحيات، وممثلين، ونقادًا.

"نعم، يروق لي كلوديل،" قالت ماريا بالفرنسية، "لكنني لا أفهمه جيدًا." كانت فرنسيتها أفضل كثيرًا من إنجليزيتها.

حاولت ماريا، وأصدقاؤها، جذب سميان إلى حواراتهم، لكنه لم يستطع أن يبذل الجهد اللازم. انتحى بماريا جانبًا، وقال: "لقد أتيت للتو من رؤية چوي، يا حبي. لست في مزاج حفلات. هل تتفهَّمين؟"

شعرت بخيبة أمل. "تريد أن تنصرف."

"نعم."

"هذا على ما يرام. ستأتي معي في مرة أخرى."

"نعم."

كان للهواء البارد شعور طيب على وجهه. سار مباشرة نحو البيت، متجنبًا المقاهي. كان أحمد يقف في مدخل المبنى حيث يسكن.

"كنت أبحث عنك. أردت أن أتحدث معك. هل لديك دقيقة؟"

"بالتأكيد. تعال إلى أعلى."

"لا، أفضِّل المشي."

بدآ في السير نحو السين. كان أحمد جادًّا جدًّا، لكن ما زال خجولًا إلى حدٍّ ما. "أردت أن أودِّعك، يا سميان. سأعود في النهاية، وسأبحث عنك. اسمع؛ هناك أمران. قُبِض على حسين، وعلمنا من مصادرنا أنه تعرَّض للتعذيب. شُحِن إلى معسكر اعتقال في الجزائر. وثمة شيء آخر. قُتِل أخي، وهو يقاتل القوات الفرنسية في جبال منطقة القبائل."

"أحمد!" صدَمَت الكلمات سميان بشدة، كأن الأخ كان أخاه هو. وضع يدًا على كتف أحمد، وأراد أن يقول شيئًا، لكنه لم يعرف ماذا يقول. لقد مات أخو أحمد. مات چوي. "أحمد، أنا آسف."

أتى أحمد إيماءة عاجزة. "لقد اكتفيت من كوني طالبًا. ذلك ما أتيت كي أخبرك به. هل تفهمني؟ لا يمكنني أن أجلس فقط، مرتاحًا، بينما الآخرون يتلقون الضربات الثقيلة. لهذا، سأغادر."

تهدَّج صوت سميان. "إلى أين ستذهب؟" كان يعرف الرد.

"إلى الجزائر."

كان عالم سميان يتهاوى إلى قطع صغيرة. لم يستطع أن يتخيَّل باريس بدون أحمد. لقد صار مولعًا بصديقه الهادئ، رقيق البسمة، الذي كان يشبهه في نواحٍ عديدة. التفت أحمد فجأة، وعانق سميان، مقبِّلًا إياه بمودة على كلا الخدين.

"اسمع، ليس لديَّ المزيد من الوقت. عليَّ أن أُسرِع. أردت أن أقول وداعًا، يا سميان."

"أليست لديك دقيقة؟" سأل سميان بلهفة، شاعرًا أن جزءًا منه على وشك أن يتلاشى داخل الليل.

"ولا دقيقة حتى، يا سميان." ابتسم معتذرًا. "بمجرد أن تتخذ قرارك، تقوم جبهة التحرير بعمل الترتيبات على عجل. اعتنِ بنفسك. تَذكَّرني. تَذكَّرْنا."

شدَّ على يد سميان بقوة، ثم استدار، وغادر. راقبه سميان يبتعد، شاعرًا بالخدر، والا جدوى، والتقدم في العمر. عند ناصية، التفت أحمد ولوَّح له، ثم اختفى.

سار سميان متعبًا نحو شقته. كان الجو باردًا جدًّا، ورطبًا. والهنود الغربيون يتحدثون بحماس في المِفيستو. سار جمع من سكارى المستعمرة الأجنبية يغنون في شارع تورنون.

"سميان."

كان كلايـد، يسـير بجانبـه. كان الجنـوبي مخمـورًا، وعينـاه حمراويـن مـن الـشرب، أو مـن الدمـوع.

"سـميان، هجرتنـي چينكـس. هربـت مـع رسـام مـن مونبارنـاس. أخـذت الطفلـة معهـا."

كان سميان متعبًا. "الحياة شاقة في كل مناحيها،" قال.

بـكى كلايـد. "لا أعـرف مـا سـأفعله. يـا يسـوع، لا أعـرف مـا سـأفعله! أنـا أحبهـا، يـا سـميان."

أزاح سـميان التعاطُـفَ بعيـدًا عـن عقلـه ومشـاعره. لم يكـن يسـتطيع أن يسـاعد أحـدًا، ولا نفسـه حتـى. تذكَّـر بابتسـامة سـاخرة شـيئًا أخـبر نفسـه بـه حـين كان طفـلًا، وهـو يحـدِّق في مـرآةٍ إلى العصابـة السـوداء الجديـدة: "سـأكون رجـلًا عظيـمًا ذات يـوم."

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الثالث

الشقيق

(I)

1

كان الأخصائيون الفرنسيون والأمريكيون سيُجرون العملية على عيني ماريا في المستشفى الأمريكي في بدايات العام الجديد. كانت ماريا هادئة بينما يقترب الموعد، ونادرًا ما تحدَّثَت عن العملية.

"هل أنتِ خائفة؟" سألها ذات مرة.

"ليس ممَّا تظن."

لكن في الليلة السابقة على العملية، استلقت بهدوء بين ذراعيه، وكان بمقدوره أن يشعر بجسدها يرتعش.

بعد فترة، استدارت على ظهرها، ورأسها في حجره، وحملقت في السقف. كانت هادئة ظاهرًا مرة أخرى. لكنها همست: "إن لم تنجح. إن صِرتُ عمياء ..."

داري مخاوفه عنها، كما دارت هي، في العموم، مخاوفها عنه، لكنه فكَّر في الأمر. إن صارت عمياء، سوف يعتني بها. سيخدمها، ويطعمها، ويحمِّمها. عينه الواحدة سترى لكليهما. لكنها لن تصير عمياء.

أخذها في تاكسي إلى المستشفى. أخبر أحد الأطباء سميان: "نعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام." لم يثق سميان في التفاؤل المهني للأطباء. للحظة واحدة مجنونة، فكَّر: افتَرِض أن هؤلاء الأطباء عنصريون! افتَرِض أنهم لا تعجبهم فكرة أن ماريا تصاحب رجلًا أسود. هل يذهبون إلى حدٍّ ...؟

أجروا العملية لماريا مبكرًا في اليوم الثاني. "حسنًا، لقد فعلنا كل ما نستطيع،" أخبر الطبيب سميان. "سيكون علينا أن ننتظر إلى أن تُرفع الضِّمادات كي نعرف النتيجة."

"كم سيستمرُّ ذلك؟"

"خمسة أيام."

خمسة أعمار، خمسة قرون. قضى سميان كل أصيل جالسًا مع ماريا في غرفتها. قليلًا ما تحدَّثت، رغم أنها من وقت إلى آخر مدَّت يدها كي تجد يده. جلست منتصبة، والوسائد موضوعة وراء كتفيها الرائعتين، وأعطت سميان، من حين لآخر، ابتسامة حزينة بينما يتحدث، محاولًا أن يبدو طبيعيًّا. حينما توقف عن الحديث، لم يكن تواصُلهما الصامت أكثر عمقًا قَطُّ. شعر سميان بالتأكُّد، أكثر من أي وقت مضى، من حبه لها، وشعر أنها اقتربت جدًّا من قول إنها تحبه.

قالت ذات يوم: "تتذكر ما قلته لك؟ إن ماريا العمياء هي الأفضل؟"

"أتذكر. وهذا ليس صحيحًا."

"إنه صحيح،" قالت برقّة.

لم يستطع النوم أثناء المساء. لم يستطع حتى أن يحمل نفسه على العودة إلى الشقة قبل الفجر. لم يشعر برغبة في الحديث مع أي شخص. حينما جلس في بار، ظل فائقًا تمامًا. من وقت إلى آخر، فكَّر في أحمد، متسائلًا ما الذي حدث له. لقد مضى أكثر من شهرين منذ ذهب. وحسين. تخيَّل سميان نفسه فوق جبل جزائري، يقاتل بجوار أحمد. ثم تخيَّل نفسه في أنجولا يقاتل مع الوطنيين. أو في الكونغو يعاون رئيس الوزراء المسجون باتريس لومومبا. ثم كان يعود بوجع إلى الواقع. ماريا.

قبل اليوم المحدَّد لرفع ضمادات ماريا، جلس الليل بطوله في مقهى، يشرب قهوة. غير حليق الوجه، ومنهكًا، وصل إلى المستشفى بعد الفجر بقليل. كانت الممرضات متعاطفات؛ أجلسنه في غرفة الانتظار، وأخبرنه: "ستُرفع الضمادات في تمام الحادية عشرة."

حملق سميان في الساعة، متسائلًا كيف له أن يبقى على قيد الحياة حتى الحادية عشرة. لكنه غفا على المقعد، وحلم أن امرأة عجوزًا عمياءً تعبر شارعًا كادت أن تصدمها سيارة. أخذ سميان بيدها، وقادها إلى رصيف. امرأة عجوز لها أنف كمقبض باب، وبشرة خشنة تميل إلى الاصفرار. كانت جائعة. أخذها إلى مطعم، وطلب لها. لم تكن تستطيع أن ترى الطبق؛ لهذا قطَّع اللحم لها. لقد أعماها الزجاج المتطاير، أخبرته. دَاخَله شعور غريب، وهو يتحدَّث مع امرأة عمياء. أراد أن يقول شيئًا، شعر بالتردد بخصوص ما يريد أن يقول، لكنه قاله: "أنا ... أيضًا أعمى. في عين واحدة فقط."

شعر بالسخف. قالت: "عين واحدة؟ طيب، هذا ليس سيئًا جدًّا."

"لا، هذا ليس سيئًا جدًّا."

"تُطوِّر العين الأخرى."

"هذا صحيح،" قال.

صحا مرة أخرى، بالضبط قبل الحادية عشرة بخمس دقائق. جلس مستقيمًا تمامًا. أتت ممرضة إلى الغرفة.

"رُفِعت الضمادات. يمكنك أن تدخل الآن." ابتسَمَت. "العملية نجحت."

قفز سميان، وقد تهلَّل وجهه، وجرى إلى غرفة ماريا. كانت تجلس في السرير بابتسامة هادئة. لانَ جسدها بنعومة بين ذراعيه. "بيبي، بيبي، بيبي،" همس. عضَّت أذنه.

"هل يمكن أن آخذ سيجارة؟"

دخَّنت ببطء، وهي تميل إلى الخلف متكئة على الوسائد، وتنظر إليه بابتسامة مرهقة. لدهشته، فإن الطابع الحزين الذي لاحظه في صوتها لاح الآن، في لحظة النصر هذه، على وجهها. كانت شاحبة، ونحيفة، ومنهكة إلى حدٍّ ما. جالسًا على طرف السرير، تفحَّص عينيها: بدتا أدكن، وأكثر حدَّة عن ذي قبل. كانت قد مشَّطت شعرها الأسود، ووضعت طلاء شفاه قبل أن تخبر الممرضة بأن تسمح له بالدخول. ظهرت كتفاها المدورَّتان الجميلتان من خلال كرانيش ثوب نومها.

"كيف تشعرين؟" سأل.

"متعبة."

"وسعيدة؟"

تمهَّلَت للحظة قبل الرد. "نعم." ثم قالت بعد لحظة: "هذا جنون، لكنني خائفة. لا أعرف من أي شيء."

"لا، سنحتفل. سنذهب في رحلة، إجازة، مثل شهر عسل."

"سيكون هذا جيدًا. نعم، لنذهب بعيدًا."

2

كانت كورسيكا غائمة وباردة، لكن ماريا سبحت في البحر رغم ذلك. كانت تغوص، وتلف، وتدور في الماء مثل خنزير بحر بينما يراقبها سميان بإعجاب من الشاطئ. كان سبَّاحًا رديئًا، ووجد المياه الباردة، المتلاطمة، غير جذَّابة. ضحكت ماريا، وتهكَّمَت عليه: "هيا، عليك فقط أن تقفز، الصدمة الأولى هي الأسوأ." هزَّ رأسه، واستقر مرتاحًا على الرمل مرتديًا سترة ثقيلة. حتى الكورسيكيون أنفسهم لم يجرؤوا على تحدِّي تلك المياه؛ لهذا كانت مساحة كبيرة من الشاطئ له هو وماريا وحدهما.

كان البحر المتوسط أزرق إلى حدٍّ أنه بدا غير طبيعي. انعطف الشاطئ برقَّةٍ نحو قرية پورتو پولو، بالقرب من النُّزُل حيث كانا يقيمان، واستقرَّت التلال المنخفضة على خلفية السماء الصافية وراءها. ارتفعت ساقا ماريا في الهواء بينما تغطس، باحثة عن قنافذ البحر. في اليوم السابق كانت قد اصطادت الكثير من أسماك الحبَّار برُمحٍ من نوع ما، وأعدَّها الطباخ لسميان وماريا على العشاء.

كان الكورسيكيون مضيافين إلى حدٍّ الإحراج. كانت الأرض والناس فقراء، لكن سكان پورتو پولو كثيرًا ما دعوا سميان وماريا إلى بيوتهم للعشاء أو لشرب الچن المحلِّيِّ، القوي، المهرَّب. وقتما ذهب سميان وماريا للتمشي في التلال، دعاهم المزارعون إلى اللبن الطازج والكيك. لاحظ كلاهما أن الكورسيكيين، حتى في القرى الأخرى، أُعجبوا فورًا وبشكل خاص بسميان: كثيرًا ما لوَّحوا له في الشوارع، أو دعوه لتناول المشروبات معهم في المقاهي. ذات يوم، وهو ينظر في بطاقة بريدية، أدرك السبب: كان هناك رأس زنجي على العَلَم الكورسيكي. لم يستطع أحد أن يفسِّر له السبب. لكن الكورسيكيين ربطوا على ما يبدو بينه وبين رايتهم.

!Oursin"" صاحت ماريا من الماء، بنبرة انتصار، وهي ترفع قنفذ ماء. لم يرها قَطُّ على هذه الدرجة من المرح كما هي خلال الشهر منذ تركا باريس. كانت ردَّة فعلها على نجاح عمليتها بطيئة، لكن ضربها الأثر الكامل تدريجيًّا، وفجأة بدا الأمر كأن عالم الرؤية بأكمله جديد عليها. لقد رأت كل شيء بحِدَّة إضافية: الدرجات الصارخة لبني التلال وأحمرها وأصفرها، الأزرق الفاتن للبحر، درجات الرمادي والأخضر المرهفة في أحجار المباني والبيوت، الملامح القوية المنحوتة في وجوه الناس.

لشهرين كاملين قضيا عطلة في كورسيكا. وحين غادرا، جالا جنوب فرنسا من مونْتون إلى مرسيليا، أقاما في فنادق، وأكلا في مطاعم جيدة، ورقصا أحيانًا في مَلاهٍ ليلية. أخذ سميان ماريا إلى كازينو حتى، حيث شعر أنه في غير محله، وحيث لعبت بحرص أكبر ممَّا تفعل في أُنْجان؛ لمعرفتها أنها نقود سميان التي تلعب بها هذه المرة. كانا يعيشان بما يتعدَّى إمكانيتهما، موغلين عميقًا في مدَّخراته، لكن سميان لم يهتم. سيكتب سلسلة كاملة من المقالات للمجلة حين يعودان إلى باريس.

لم يشترِ أيَّ جرائد. لم يُرِد أن يعرف الأخبار. لكن أحيانًا، وهو يرشف كأس أنيزِتّ، أو يضع حذاءه خارج باب غرفته لبواب الفندق كي يلمِّعه، كان يفكر في أحمد فوق تلٍّ جزائري، ويشعر بوخزة ذنب. أو كان يرى أمامه وجه چوي ويديه الشاحبتين الباردتين. أو كان يسمع الإهانات في هتافات الغوغاء في ليتل روك. كان يدفع هذه الأفكار بعيدًا.

لكنه كان متوجِّسًا في النهاية حين انتهت العطلة، واستقلَّا القطار إلى باريس. عائِدَيْن إلى المدينة المزدحمة، عائِدَيْن إلى الواقع.

(II)

1

كان لنجاح العميلة تأثير آخر على ماريا ... بدا أنه ضاعَفَ من طاقتها، ومن طموحها أن تصير مُمثِّلةً سينمائية. بمجرد العودة إلى باريس، ألقت نفسها بكل همَّة في عمل فرقة الهواة المسرحية، وفي الوقت نفسه بدأت في توطيد علاقتها بمخرج الأفلام وبأصدقائه.

عملت بجد في مسرحية جديدة كانت فرقتها تحضِّر لها. كانت تستذكر دورها في الأصيل بمساعدة سميان، الذي كان يقرأ الأدوار الأخرى. اندهش سميان مرة أخرى لملاحظة أن لديها موهبة حقيقية. وبناء على نصيحة المخرج، استأجرت متعهِّدًا، أتى بمصوِّر التقط لها صورًا في درجات مختلفة من العُرْي (اعترض سميان، وهو ما وجدته ماريا مسلِّيًا)، وقام بدور وكيلها في إطلاق نشاطها المهني. نُشِرت صورة جماعية، تظهر فيها في ملهى ليليٍّ مع المخرج وبعض أصدقائه، في مجلة سينمائية، وأخيرًا ظهرت كذلك واحدة من الصور المثيرة.

عُرِض مشهد من المسرحية، التي كانت فرقة الهواة تتدرَّب عليها، في شبكة التليفزيون الفرنسي، وشاهدها سميان، ولُو وبيب، في مقهى، وأثارت إعجابه. "أنا على الطريق!" هتفت ماريا. اهتمَّ بها منتِجٌ تليفزيوني، ووعدها، بعد اختبار تمثيل، دورًا صغيرًا في برنامج قادم.

سُرَّ سميان بحيوية ماريا وحماستها الجديدتين، إلَّا أنهما كثيرًا ما حرمتاه من صحبتها. كانت تذهب دائمًا إلى الأماكن التي يمكنها فيها أن تقابل أشخاصًا قد يساعدونها - إلى حفلات كوكتيل، وإلى مَقاهٍ ومَلاهٍ يتردد عليها نجوم الأفلام. لا يمكنك أن تذهب إلى تلك الأماكن بدون رفيق أو بدون دعوة؛ لهذا ذهبت عادة مع صديقها المخرج، ڤيدال.

"سيروق لكَ،" أخبرت سميان، "إن تعرَّفت عليه."

"لا أستطيع تصديق أنه يفعل كل هذا لكِ بسبب طيبة قلبه فقط،" قال سميان، مع تقطيبةٍ مُبالَغ فيها.

"يفعل ذلك لأنه يعتقد أن عندي موهبة، ولأنه معجب بساقَيْ ماريا الصغيرة." ضحكت.

"هذا ما اعتقدتُ!"

"تغار؟"

"نعم."

"بشدة؟"

"نعم!"

ضحكت بسرور، وقبَّلته. "ليس عليك أن تقلق. ليست لديه عصابة سوداء. لم أعُد أريد أن تكون لي صِلَة بأي رجل ليست لديه عصابة سوداء."

بخلاف أن ماريا كثيرًا ما كانت في الخارج، فقد عاشا حياةً مستقرَّةً إلى حدٍّ كبير. منذ رحيل أحمد، نادرًا ما رأى سميان أيًّا من الجزائريين

الذين يعرفهم، وبذل جهدًا واعيًا - بنجاح محدود فقط - كي يفكر أقل في "المشاكل". أخبر نفسه أن العالم هو ما هو، وأن ذلك لم يكن خطأه، وأنه لم يكن هناك أي شيء بمقدوره فعله حيال ذلك. كانت ماريا "تحت جلده" كما يقول الفرنسيون، وأخبر نفسه أنه ما من شيء يمكن أن يفعله حيال ذلك، أيضًا. أرادها أن تكون سعيدة - وكانا سعيدين أثناء الإجازة. يمكن أن يستمرَّ الحال هكذا. كانت على حق: الحياة أبسط كثيرًا حين تعيش لنفسك وتدع العالم يعتني بنفسه.

لكن ماريا كانت بعيدة عنه لأوقات طويلة، مع المخرج ومع أصدقائها، وتضايق سميان لأنه لم يبدُ عليها الأسف على ذلك التباعُد.

قال لها ذات يوم: "لنتزوَّج."

تردَّدَت، وعيناها الداكنتان، اللتان لم تعودا مخفيَّتيْن وراء نظارات شمسية، تلتفتان إليه، شاردتين.

"هل تريد ذلك؟"

تضايق. "لم أكن لأطلب إن لم يكن الأمر كذلك."

زمَّت شفتيها. للحظة، بدا أنها لن تَردَّ. ثم قالت: "انتظر لفترة. لدينا وقت، أليس كذلك؟ حاليًا، أريد أن أصير ممثِّلةً مشهورة."

2

ألقى بيب نظرة ماكرة على سميان، ذات يوم سبت، وقال: "قُلْ، يا رجل، ما رأيك في أن تكون إشبينًا؟ أنا وماريكتي السويدية سنتزوج."

تزوَّج بيب وماريكا في مبنى بلدية الدائرة السادسة، في مراسم مدنية بسيطة استغرقت ثلاث دقائق بالضبط، في حضور سميان وماريا، ولُو وبيتي، وداج، وبينسون، وعديد آخرين، أغلبهم من الموسيقيين الزنوج.

قال بيب "وي" للعمدة بدلًا من "آي دو"، وشعر بالسخف في البدلة والقميص الأبيض بالياقة الصلبة، ورباط العنق الداكن. بدت ماريكا - التي كانت عصبيَّةً - سويديَّةً جدًّا، بشَعرها الأشقر، وبشرتها الشاحبة، المنمَّشة، وعينيها الزرقاوين كالسماء.

ذهب حشد العُرس بالسيارات بعد ذلك إلى مونمارتر، للمطعم الذي يملكه ليروي هينز، وهو زنجي أمريكي تخصَّص في الطَّهي "البيتي". "ليروي!" "بيب، يا ابن الـــا!" كان هينز يكاد يكون في ضخامة بيب، وحينما تصادم الجبلان في عناق، ارتجَّت الطاولات واهتزَّت الأرضية. لم يقبل هينز زبائن، بل حجز المطعم لبيب، ورتَّب طاولتين طويلتين، وجهَّزهما بصفوف من زجاجات الشمبانيا. وكانت الديوك الرومية تُشوى في المطبخ. أجال بيب عينيه الدائريتين، الصغيرتين. "مممم. روائح البيت." ضحك بينسون. "يبدو أنك مصاب بالحنين، يا بيب." تجهَّم بيب، "تقول أشياء غريبة!"

جلسوا إلى الموائد، وفتحوا الشمبانيا. قرقعت الكؤوس. كان الموسيقيون يقولون:

"هكذا قبضت على الشايب بيب!"

"أعادته إلى الحياة؟"

"كيف في ظنِّك فَعَلتها ماريكا؟"

"نصبت لك شركًا **بذلك!**"

"أوه، تعني أنها نصبت له شركًا **بذلك!**"

"هذا صحيح،" قال بيب، "وإن استخدمت ذلك الطُّعم، ستصطادني دائمًا!"

أحضر هينز الديوك الرومية، والبازلاء الخضراء، وصلصلة التوت البري، والبطاطس المهروسة، والذرة، والنبيذ، وشمَّروا جميعًا عن

سـواعدهم. تحـدَّث الجميـع، وضحكـوا في الوقـت نفسـه، وسرعـان مـا تـلاشى الطعـام. مـن وقـت إلى آخـر، أتى هينـز مـن المطبـخ كي يشـهد نتـاج عمـل يديـه.

"بعدها،" قال مع غمزة، "أُعِدُّ لكم يا قوم فطائر تفاح آ لا مود!"

كان الحفـل في أوجـه حـين أعلـن داج النبـأ. كان صادمًـا إلى درجـة أن أحـدًا لم يسـتوعبه في البدايـة. كان داج قـد قـام ليذهـب إلى المطبـخ ويتحـدث مـع هينـز، وحـين عـاد بـدا مذهـولًا وهـو يعلـن بلكنتـه البطيئة:

"أنصِتـوا جميعًـا. لقـد سـمعت النبـأ للتـو في الراديـو. لومومبـا مـات. قتلـوه."

تبادل سميان، وبيب، وبينسون نظرات غير مصدِّقة.

"مونونجو، وزير الداخلية الكاتانجي أعلن النبأ."

لم يتحـرك أحـد، أو يَقُـل شـيئًا. لقـد شـعر كل رجـل أسـود في باريـس أنـه مَعنـيٌّ بشـكل شـخصي، أنـه غاضـب بشـكل شـخصي، مـن الإطاحـة برئيـس الـوزراء الكونغـولي. وبالقـدر نفسـه، شـعروا بالقلـق مـن القبـض عليـه بعـد ذلـك.

شـعر سـميان برغبـة في البـكاء، وعـرف أن ذلـك كان هـو نفسـه شـعور الآخريـن. لقـد فـازوا مـرة أخـرى. فكَّـر سـميان؛ الـلا رجـال، الوحـوش. نظـر إلى ماريـا، التـي كانـت تنقـل نظرهـا مـن وجـه إلى وجـه، وهـي لا تفهـم تمامًـا مـاذا حـدث.

أنهـى النبـأ الحفـل. حـاول الموسـيقيون، بـدون الكثـير مـن الحـماس، أن يعيـدوه إلى الحيـاة، لكـن لم يعـد هنـاك ضحـك.

وبينـمـا يغـادران المطعـم لاحقًـا، ضغطـت ماريـا عـلى يـد سـميان، وابتسـمت لـه، كأنهـا تبحـث عـن طمأنـةٍ مـا. لكنـه لم يسـتطع أن يـرد ابتسـامتها.

اشـتريا الجرائـد، التـي كانـت قـد صـدرت بالفعـل مـع عناويـن عـن الخـبر. في الصفحـات الأولى، كانـت هنـاك صـور لمجموعـة مـن القـادة المنتصريـن مـن مقاطعـة كاتانجـا بالكونغـو، أعـداء لومومبـا، يعلنـون وفاتـه لمراسـلي الصحـف. كانـت ثمـة ابتسـامات عـلى وجـوه المسـؤولين وهـم يعلنـون تقريرهـم. باسـتثناء اثنـين مـن المستشـارين البلچيكيـين، كان كل مَـن في الصـور سـودًا.

وبينـما ينظـر إلى الصـورة، جفـل سـميان فجـأة مـن الدهشـة. حملـق بذهـول في الصـورة.

تلك الوجوه! تلك الوجوه السوداء!

(III)

1

أتى الربيع متأخرًا، لكنه كان دافئًا وجميلًا. ورغم ذلك، كانت متعة باريس تتلاشى بالنسبة لسميان؛ كانت حرب الجزائر تفعل شيئًا فظيعًا بباريس وبفرنسا. بينما تنال المستعمرات الإفريقية استقلالها، بينما تتقلص مساحة سلطة فرنسا، نشأ تحلُّلٌ ما ... بمقدور سميان الشعور به في كل مكان من حوله.

استشاطت الصحف الفرنسية المتطرفة غضبًا. إن صارت غينيا حرة، إن كانت البلدان الإفريقية الأخرى تفوز بحريتها؛ فشخصٌ ما يقع عليه اللوم، شخص ما مذنب - الحكومات الضعيفة، المتآمرون داخل فرنسا، الأمريكيون الجشعون، البريطانيون الماكرون، الروس المتآمرون: شخص ما. ضباط الجيش، الذين يشعرون بالمرارة، ولم يتجاوزوا قطُّ صدمة الهزيمة الفرنسية في ديان بيان فو، أصيبوا بالذعر وهم يشعرون أن الجزائر، معقلهم الأخير، تنفلت من قبضاتهم. والكونغو تُدلِّل على أن الأفارقة غير مستعدِّين للاستقلال؛ كذلك يثبت الدعم

المقدَّم للثوار الجزائريين من البلدان الشيوعية أن فرنسا تدافع عن الحضارة الغربية المسيحية في الجزائر.

تغلغل السُّمُّ أعمقَ داخل الناس. كان أحد مظاهره طفحًا من الوطنية الزائدة: تكاثرت المنظمات اليمينية المتطرفة، بنزعات معادية للسامية، وأيدلوچية التفوُّق الأبيض. عاد الرجال من الخدمة العسكرية في الجزائر مصابين بالقسوة، ومجرَّدين، في أحيان كثيرة، من الإنسانية. استقر المستوطنون الأوروبيون، الشاعرون بالمرارة لمغادرة تونس والمغرب بعد أن نالت هاتان الدولتان استقلالهما، في فرنسا، وتسلَّلوا إلى مواقع محورية في الحياة والسياسة الفرنسيين.

كما حدث تحوُّل في الشرطة - أو هكذا بدا الأمر لسميان - خلال العام منذ جاء إلى باريس. لم يحب سميان الشرطة قطُّ، لكن الشرطة الفرنسية كانت قد تركت لديه انطباعًا أفضل من البقية. صار رجال الشرطة، المهذبون والمنتبهون فيما مضى، يتسكعون الآن على نواصي الشوارع، بوقاحة السلطة، تتدلى السجائر من شفاههم، ويشيرون أحيانًا بإيماءات بذيئة للشابات المارات. عرف سميان أن ذلك التحول في الشرطة لم يكن عرضيًّا. لقد جرى تطهير هيئة الشرطة من الضباط الذين أظهروا ليونة في التعامل مع الجزائريين في فرنسا.

أكثر ما وجده سميان محبطًا هو اللا مبالاة الظاهرة من السكان بشأن ما يحدث في الجزائر، باستثناء قِلَّة شُجاعة. كان الجميع يعرف بوجود معسكرات الاعتقال، وبالتعذيب. كان الجميع يعرف بالعشوائيات القذرة، الـ bidonvilles، التي أُجبر مئات الآلاف من الجزائريين في فرنسا على العيش فيها. لكن قليلين اهتموا بما يكفي أن يفعلوا شيئًا، أو أن يحتجوا حتى. Wir sind die kleiner leuter - "نحن صغار الناس": كان ذلك هو التعبير الذي استخدمه الألمان،

أخبرت ماريا سميان، لتفسير لماذا لم يفعلوا شيئًا لإيقاف اضطهاد اليهود. كان هذا هو أيضًا موقف معظم الفرنسيين.

لكن مَن أنا كي أنتقد الآخرين؟ فكَّر سميان، بينما يزداد دفء الربيع، ويقضي هو أيامًا لطيفة في المقاهي، وليالِيَ مع ماريا. لقد استسلم لها. كان يعيش الحياة التي ترغب فيها - حياة العزلة والتخلِّي عن المشاكل. لكنه لم يستطع الهروب من إحساس بالذنب كلَّما قرأ جريدة، كلما صادف جزائريين في الشارع، كلما رأى بن يوسف.

"لا توجد أخبار عن أحمد؟" كان يسأل بقلق.

"لا. حيث هو، لن يكون لديه الكثير من الوقت كي يكتب. من الممكن أن يكون ميتًا أو حيًّا. هذا هو حال هذه الحرب."

"وحسين؟"

"لم نسمع شيئًا منه. أعتقد أنه مات."

أمَّا الأجانب - وسميان من بينهم - فقد عاشوا في عالَمٍ خيالي، مثل زَبَدٍ يطفو فوق بحر المجتمع الفرنسي. لم يكونوا منخرطين في الوقائع الآنية في فرنسا، كما لم يكونوا منخرطين فيما يحدث في بلدانهم الأصلية.

كان المغتربون جماعة تقوم على سِفاح الأقارب - بمقدور سميان أن يحسب أن تلك الفتاة نامت تقريبًا مع كل رجل في المستعمرة الأجنبية، وكذلك كم فتاة عاش معها كل رجل. في السنة الواحدة التي عرفهم فيها سميان، تغيَّرَت وجوههم على نحو ملحوظ. الفتية الأمريكيون، والهولنديون، والإنجليز، المهندمون، الذين أتوا إلى باريس من أجل التسلية، والفتيات البريئات الراغبات في تذوق "الحرية" خلال الفاصل بين الاعتماد على أُسَرِهنَّ والاعتماد على أزواجهن، لديهم الآن هالات داكنة تحت عيونهم، وأجساد مترهلة، خالية من الحياة. فقط مَن

عملوا بشكل ثابت، مع الحد الأدنى من حياة المقاهي، نجوا بدون أن يصابوا بأذى، واحتفظوا ببعض الحيوية.

بعد أن هجرته زوجته، كان كلايد يشرب من لحظة استيقاظه إلى اللحظة التي يأوي فيها إلى فِراشه. تنقَّل من امرأة إلى أخرى، كأنه في بحث يائس عن المشاعر التي لم يحصل عليها قَطُّ من چينكس. كان يلقي بذراعيه حول سميان وقتما يتقابلان، ويقول، مخمورًا:

"هل ترى تلك الفتاة؟ جميلة، أليست كذلك؟ فتاتي. اللعنة، لا أحتاج إلى چينكس. أنا على ما يرام بدون چينكس."

"بالتأكيد."

"لأي شيء أحتاج چينكس؟ على الرجل ألَّا يبقى مع امرأة واحدة على أي حال، هل تعرف ما أعني؟ داكور معي؟"

"طبعًا، طبعًا."

استقرَّ بيب في شقته مع ماريكا، وقضى وقته في الدردشة على المقاهي، أو في الاعتناء بمتجره، أو في طهي الوجبات لأصدقائه.

عاش بينسون حياة مغلقة، تملؤها المرارة، مع عشيقة إسبانية جديدة، وخرج بين حينٍ وآخر من شقته كي يُكثِر من الشرب، ويُطلق خطبًا لاذعة، ضد الولايات المتحدة خصوصًا، والعالم الأبيض عمومًا. سأله سميان ذات يوم: "هل تظن أنك ستتزوج في يوم من الأيام؟"

هزَّ رأسه.

"إنها مصيدة،" قال. "مصيدة لعينة. أغلب النساء اللاتي يأتين هنا بيضاوات، ولا يمكنني أبدًا أن أتزوج امرأة بيضاء ثم أنظر إلى وجهي في المرآة مرة أخرى. تعرف، حين كنت أصغر سنًّا، في نيو يورك، اعتدت أن أخرج في تجمُّعات مختلطة، وأخبرتني أمي: 'إنْ حدث وتزوَّجتَ امرأة بيضاء، لا تُحضِرها هنا إلى بيتي، هل تسمع! لن تمنح الرجل

الأبيض هذا الشعور بالرضا! لقد قالها كثيراً، قالها مليون مرة - إن الرجال الملوَّنين يريدون نساءه. طيب، اللعنة، سنثبت أنه على خطأ! يمكنه أن يحتفظ بنسائه. لن يهين ابنٌ لي النساءَ السوداوات بالزواج من امرأة بيضاء، ويظل ابني! هل تسمعني؟'

تعرف يا سميان، لا أستطيع أن أُخرج تلك الكلمات من رأسي. في كل مرة أنام فيها مع مزَّة بيضاء، أشعر بالذنب، أشعر أنني أكره المرأة فعلًا. لا يمكنني أن أتزوج ذلك."

قال سميان: "تزوَّج امرأة زنجية إذًا."

"هذه هي المشكلة. لا أستطيع أن أفعل ذلك أيضًا. لسبب واحد، بما أنها سوداء، فسوف تُذكِّرني بألمي الخاص، ولن أستطيع أن أتخلَّص من كراهيتي، لن أستطيع أن أكرهها مثلما أستطيع أن أكره النساء البيضاوات. ثم هناك شيء آخر، لا أستطيع أن أتزوجها لأن الرجل الأبيض يقول إن عليَّ أن أتزوج امرأة زنجية! بطريقة ما، الزواج من امرأة زنجية سيعادل قبول العزل العرقي. إنه جنون، لكن هكذا أشعر، لا أستطيع تجنُّب ذلك. سأكون قد بقيت 'في مكاني.' طيب، اللعنة، لن أفعل! لن أبقى في مكاني المقدَّر! سأكسر كل القواعد. فقط حين يكسر القواعد يمكن لزنجي أن يدعو نفسه رجلًا."

حملق أمامه مباشرة، ثم سأل: "أتعرف ما هي أعظم جرائم الأمريكيين البيض؟"

"ما هي؟"

"أن هؤلاء الناس جعلونا مرضى. جعلونا مرضى بنفس مقدار مرضهم. تقريبًا. أتعرف ذلك؟"

قال سميان: "بعضنا."

"كلنا. لا يمكن أن يعيش أحد تحت ذلك الضغط، وتلك الإهانات، بدون أن يصير مريضًا. بدون أن يتشوه، ويتعقَّد."

قال سميان: "الكثير منَّا. لكن ليس الجميع، ليست الغالبية حتى. هؤلاء الأطفال في ليتل روك ليسوا مرضى. المشاركون في الاعتصامات ليسوا مرضى. كل هؤلاء الناس الذين يقاتلون بأي شكل يقدرون عليه من أجل المساواة ليسوا مرضى."

هزَّ بينسون رأسه. "أقول إن الجميع مرضى. لا بُدَّ أن تكون البلد بأكملها مريضة؛ لأنه وضع مريض. لكن القوم البيض أسوأ منَّا. إنهم الأكثر مرضًا بين الجميع."

عمل داج في السفارة الأمريكية نهارًا، وقسَّم وقته ليلًا بين "الوريثة" الأمريكية، والفتاة الفرنسية التي كان يقول إنه يحبها. أخبر سميان: "لقد اتَّخذتُ قراري. سأتخلَّى عن الوريثة. سأتزوج الفتاة الفرنسية، وليذهب المستقبل المهني إلى الجحيم."

"هذا عظيم، يا داج،" قال سميان، مرتابًا. في المرة التالية التي رآه فيها، كان داج غيرَ متأكِّد مرَّةً أخرى.

بدا أن هارولد، وهو المؤلف الموسيقي الزنجي الذي نادرًا ما قابلوه، هو الأكثر عافيةً من هذه المجموعة. كان يعيش في ڤيينا، وأتى إلى باريس في زيارات قصيرة فقط، مثل دين ديكسون، الزنجي الأمريكي الذي كان يقود أوركسترا فرانكفورت السيمفوني.

"يوشك تكليفي أن ينقضي، وأكاد أنتهي من الكونشرتو. سوف أعود إلى الديار قريبًا،" قال هارولد.

"الديار؟"

"نعم، سأعود إلى نيو يورك. ذلك هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه أنني في بيتي فعلًا."

دائمًا ما أثار هارولد دهشة سميان، نادرًا ما فكر في المشاكل العِرقيَّة أو في أي شيء آخر. كان يفكر، ويعمل، ويعيش موسيقاه.

"هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يكون عليها المرء، بالنسبة لفنان،" فسَّر. "في القضايا المؤقتة والمشاكل موت الفن."

قال سميان: "توجد أزمنة تكون فيها، كرجل، مرتبطًا بقضية أكثر من ارتباطك بالفن."

"لا ينبغي إذًا أن يتظاهر المرء أنه فنان. على المرء أن يذهب ويحصل على مسدس ويقاتل. لكن يترك الفن في حاله."

2

"سأبقى في الخارج حتى وقتٍ متأخِّر؛ لهذا سأذهب، في الغالب، إلى غرفتي، ولن آتي هنا،" قالت ماريا.

نظرت إلى سميان بشعور بالذنب. كان يجلس إلى المكتب في الشقة، يحاول أن يكتب مقالًا آخر للمجلة.

"لا تغضب، يا سميان."

رفع نظره. "لست غاضبًا. لكنني لم أَعُد أراكِ كثيرًا."

"لكن يمكنك أن تأتي معي، يا حبي. سيسرُّني هذا كثيرًا." كان صوتها صادقًا. أراد سميان أن يؤمن أنها صادقة.

هزَّ رأسه. "لا، ذلك لا يعني أن أكون معكِ، ليس وسط كل هؤلاء الناس. لتذهبي أنتِ، يا بيبي. لكن تعالي الليلة." شعر كأنه يستجدي. بغَضَ نفسه، وشعر بالحنق على ماريا.

"سأتأخَّر جدًّا. تعرف كيف تكون هذه الحفلات."

"لا يهم. أودُّ أن أراكِ حين أستيقظ في الصباح."

"تمام."

أغلقت الباب، فتنهَّد، وهو يستدير عائدًا إلى الآلة الطابعة. لم يستطع التركيز. كانت تنفلت بعيدًا عنه. حسنًا، لقد توقَّع ذلك. في بدايات الربيع، ظهرت ماريا في مسرحية جديدة، ومؤخرًا حصلت على دور صغير في فيلم. وكانت تصعد. كانت امرأة مكتملة الآن، متَّزِنة، واثقة من نفسها، أنيقة الملبس. لم تَعُد اللاجئة الضائعة في باريس؛ صارت امرأة حسناء، قوية الإرادة، وفي طريقها إلى هدف محدَّد جدًّا لا يتضمَّن سميان.

قام عن الطاولة. نظر، عبر النافذة، إلى الليل المظلم الذي بدا حيًّا جدًّا لروحه الخاملة. لم يشعر برغبة في العمل. نظر إلى عصابته السوداء في المرآة، متسائلًا مَن يكون. يُعرَّف الناس بوظائفهم، بأفعالهم. أليست لديه هُويَّة إذًا؟ هل هو ظلٌّ، مُراقِبٌ سلبيٌّ؟ دَاخَله شعور باليأس: أراد أن يكون حيًّا.

تعال إلى إفريقيا، قال أحد الطلاب الأفارقة.

وماذا أفعل هناك؟

اعمل بين شعب ستشعر بالقرب منه. كُن مفيدًا. كُن حيًّا.

ربما، ذات يوم.

لكنه يشك الآن في أن ذلك اليوم سيأتي. لم يستطع أن يرى مستقبلًا مختلفًا عن الحاضر. كان سجينًا لقصوره الذاتي، ولم يشعر بالقدرة على الفرار.

خرج. كان الهواء دافئًا ورطبًا، والكثير من الناس في الشوارع. سمع انفجارًا صاخبًا على مبعدة: ربما قنبلة أخرى زرعتها "منظمة الجيش السري"، المنظمة السرية التي كوَّنها إرهابيون يمينيون بعد

فشل انقلاب مدينة الجزائر. باسم الحضارة المسيحية. توقَّف الناس في الشارع لثانية عند سماع صوت الانفجار، ثم استأنفوا سيرهم. هل كانت البلد بأكملها تعيش مثل سميان حالة من السلبية واللا مبالاة؟

مرَّ بالمقاهي. لم يُرِد أن يشرب؛ ذلك أسهل ممَّا ينبغي. اقترب تاكسي، وأشار له سميان قبل أن يستوعب تمامًا ما يفعله. "الشانزليزيه. محطة چورچ الخامس." فيلم. ابتسم بتقزُّز.

لتسعين دقيقة، شاهد چين مورو، مثيرة، على الشاشة. لكنه لم يكن جزءًا من ذلك أيضًا. شعر بالكآبة والضياع.

سار سميان إلى البيت بعدها. ملأت حشودٌ الشانزليزيه. وحين بلغ ملهى الإليزيه، رأى جمعًا ضاحكًا من أشخاص مهندمين يخرجون، ويستقلون سيارات رياضية. كانت ماريا بينهم. تَسارَع قلب سميان، توقَّف فجأة، محرجًا، غير راغب في أن يُرى. كانت ماريا تسير بجوار صديقها المخرج، ڤيدال، وتضحك بسعادة. أخذ المخرج بذراع ماريا، وساعدها على ركوب سيارته.

تحرَّك صفُّ العربات مبتعدًا. وقف سميان مشلولًا في الشارع. كان متأكِّدًا أنه لا يوجد خطأ فيما رآه، أنه لم تكن هناك علاقة غرامية بين ماريا والمخرج، لكن قلبه تلوَّى، رغم ذلك، من الغيرة. لقد بدت ماريا مبتهجة جدًّا - بتعبيرٍ نادرًا ما رآه. لم يَعُد يشعر برغبة في المشي إلى البيت، بل أشار إلى تاكسي، وصوت ضحكها السعيد ما زال يرنُّ في أذنيه.

(IV)

تمطَّت ماريا عارية بين الملاءات الباردة في فِراشها. من خلال النوافذ، المفتوحة على اتِّساعها، رأت سماءً بلا غيم والسطح المظلم لتياتر دو فرانس. جلست، وهي تتثاءب بشهوانية. خاطرها الأول كان أنها ممثلة بالفعل.

هذه الغرفة هي حرمها الآمن؛ لم ينَم رَجُلٌ قَطُّ في الفِراش معها. وضعت ثوبًا، وذهبت لتقف عند النافذة، وهي تفكر في المساء السابق. كان ڤيدال خفيف الدم جدًّا. إنه مخرج جيد، أيضًا. كان ليروق لسميان، إن تمكَّن من معرفته. قرَّرت أن تأخذ حمامًا في شقة سميان في الأصيل، وارتدت ملابسها بسرعة فقد كان لديها موعد غداء مع آنيت، وهي واحدة من صديقاتها في فرقة المسرح.

وصلت ماريا إلى المقهى في الموعد. كانت آنيت فتاة فرنسية طويلة، جميلة على نحو بارد، بملامح مثالية، وعينين ذكيتين. "يريدك ڤيدال أن تتصلي به لاحقًا اليوم، يا ماريا. يقول إن الأمر مهم جدًّا."

"أعرف. أعتقد أنه بخصوص الدور الذي كان يحدثنا عنه،" قالت ماريا. كانتا تتحدثان بالفرنسية.

"لكن سيكون عليكِ أن تسافري."

"لا تقولي هذا كأنه أمر سيئ. لا شيء يمكن أن يسرني أكثر،" ردَّت.

سألت آنيت: "وصاحبك؟"

تـردَّدَت ماريـا. لمـاذا لم تفكـر في سـميان بنفسـها؟ شـعرت بالذنـب. "سـيكون ذلـك لعـدَّة أسـابيع فقـط. شـهران عـلى الأكـثر."

هـزَّت آنيـت كتفيهـا. "شـهران مـدة طويلـة. يـود ڤيـدال أن يُبعِـدَكِ عـن باريـس، وحـدك معـه."

"لن نكون وحدنا."

"تعرفين ما أعني."

ضحكت ماريا. "لا خطر في ذلك. أنا فتاة كبيرة."

تَغدَّيـا في الكوبـول. ممثِّلـة! شـعرت ماريـا بالنـصر. دورهـا هـذه المـرة سـيكون كبـيرًا عـلى الأرجـح، الـدور النسـائي المسـاعد الثالـث، أو ربمـا الثاني. وسـترتقي في الفيلـم التـالي. كان ڤيـدال مهتـمًّا بهـا، ومـن خلالـه سـتقابل مخرجـين آخريـن. يمكنهـا بالفعـل أن تتصـوَّر اسـمها على لوحـات الإعلانات، أن تـرى اسـمها في أعمـدة الأفـلام بالصحـف، وصورتهـا في المجـلات.

قالت آنيت: "هل تفكرين على الإطلاق في الزواج؟"

"أحيانًـا." فكَّـرَت في سـميان مـرة أخـرى، وعـاد الشـعور بالذنـب. هـل تحبـه؟ هـل أحبَّـت أحـدًا، هـل هـي قـادرة عـلى الحـب؟ لم تكـن متأكـدة. "هـل تعرفـين مـاذا بـدأت في اعتقـاده، يـا آنيـت؟ يتقابـل شـخصان يقطعان طريقـين مختلفـين، ويتزوجـان كي يواصـلا سـويًّا عـلى طريـق مشـترك؛ لهـذا قبـل أن تتزوَّجـي عليـكِ أن تعـرفي أي الطـرق تريديـن السـير عليهـا لبقيـة حياتـكِ، وأي الطـرق يريـد الشـخص الآخـر - الـزوج أو الزوجـة - أن يقطعهـا. وعليـكِ أن تـري إن كان بإمكانكـما أن تقطعـا الطريـق نفسـه."

قالت آنيت: "أنا، آنيت التي يزعمون أنها باردة وقاسية، أفكّر بشكل طبيعي بهذه الطريقة المعتمدة على الحسابات. لكن وصلني دائمًا انطباع بأنكِ النوع الرومانسي، يا ماريا. ماذا عن الحب إذًا؟"

تورَّدت ماريا. "لا بُدَّ أن تحبي، بالطبع. لكن لا بُدَّ أن تحبي شخصًا يقطع الطريق نفسه."

"وإن حدث أن وقعتِ في حب شخص لا يقطع طريقكِ؟"

"حينئذ سيكون على واحد من الاثنين أن يضحّي."

"هل يمكن أن تضحّي؟"

للمرة الأولى، واجهت السؤال مباشرة. "لا أعتقد أنني أستطيع. أعتقد أنني سأذبل وأموت إن فعلت."

غادرت ماريا بعد الغداء مباشرة، وأخذت باصًا إلى شقة سميان. كان قد ترك ملحوظة على مكتبه يقول فيها إنه سيكون في المكتبة. لقد أربك الحديث مع آنيت ماريا، وسَرَّها أن تكون بمفردها لبعض الوقت. خلعت ملابسها، ودخلت الحمَّام، وجهَّزَته.

دور! عاد إليها الخاطر مُلِحًّا. لكن هل اهتمامها بالتمثيل أقلُّ من اهتمامها أن تصير ممثِّلةً؟ الشهرة، الثروة، اسمها بالأنوار - نعم، لكن الأكثر أهمية، أن ذلك سيعني أن تصير شخصًا آخر، ذلك الشخص، تلك الأسطورة على الشاشة. سيعني التمثيل تحوُّلًا، سيمحو الماضي، ويدمر الذكريات. لن تكون هناك فتاة يهودية صغيرة اسمها ماريا دنَّس جسدها وحشٌ في معسكر اعتقال، لن توجد ماريا أشاحت ببصرها بعيدًا بينما يمضي والداها إلى موت رهيب. سيكون هناك فقط ذلك الشخص الذي يتحرَّك على الشاشة، الذي يعيش، ويحب، ويكره على الشاشة.

بعد الحمام، ارتدت ثوب سميان، وشبشبه، وذهبت إلى حجرة المعيشة. استلقت على البطانية المغربية، ونظرت من خلال النافذة إلى السماء، وهي تفكر في سميان. رأته؛ رقَّة في عالَمٍ قاسٍ وعنيف. كان جسدها تحت سيطرة يديه الطويلتين، الرقيقتين. لقد كان كريمًا، وذكيًّا، وحساسًا، لكنه كان معقَّدًا جدًّا؟ هل ذلك كله بسبب بشرته السوداء؟ لا؛ هي نفسها، يهودية برعب ماضيها، بذلت جهدًا كي تنسى، بذلت جهدًا كي تسترخي وتستمتع بالحياة. الطريقة التي كان يغرق بها في التفكير - بسبب مقال في جريدة، حديث مع بيب، ذِكر أحمد. لكن ذلك كان ضعفًا، فكَّرت، أن تغرق في التفكير بسلبية بدلًا عن أن تأخذ خطوة إيجابية، وراسخة.

سارت نحو النافذة، مستمتعة بضغط ثوب سميان على بشرتها. سار إفريقيٌّ في الشارع. أشعلت سيجارة، متسائلة: لِمَ استغرق سميان كل هذا الوقت. ثم تذكَّرَت أن عليها أن تتصل بالمخرج.

"ڤيدال؟" كان صوت المخرج متحمِّسًا وهو يخبرها النبأ. "أوه، هذا رائع، يا ڤيدال! نعم، نعم، يمكنني أن أغادر وقتما تقول."

وضعت السماعة، أصدرت صرخة، ودارت في أنحاء الغرفة. إيطاليا! إيطاليا! ثم توقفت بغتة حين سمعت المفتاح في الباب. دخل سميان، طويلًا ووسيمًا، يسير مثل شخص يمتلك العالم، ملك أو أمير. ابتسمت، متذكِّرةً لقاءهما الأول.

"مرحبًا، يا بيبي." ابتسم بطريقته المطمئِنة المعهودة. "آسف أني تأخرت."

"سميان، اتصل المخرج للتو. حصلتُ على دور كبير في فيلم!"

"ماريا!" طارت إلى حضنه، ورفعها في الهواء، وهو يمرجحها. "أنتِ عبقرية. كنت أعرف أنكِ ستنجحين!"

"سأذهب إلى إيطاليا!" هتَفَت. "هناك سيُصوَّر الفيلم."

غشَّت غيمة وجهه، لكن ماريا لم تُرِد أن تراها، لم تُرِد أن تتوقف عن الإبحار فوق غيمة من الحماس. لكنها حاولت أن تسيطر على ابتهاجها.

"لن يكون ذلك لوقت طويل، يا عزيزي. بضعة أسابيع، شهر على الأكثر."

بذل سميان جهدًا هو الآخر، لكن كان هناك نوع من التسليم والنهائية في الطريقة التي تنهَّد بها، حتى وهو يمزح، "كوني مؤدَّبة في إيطاليا!"

"نعم، سأكون مؤدَّبة. وسأكتب كل يوم."

شعرت فجأة أنهما يخدعان أحدهما الآخر، وأن تحوُّلًا حاسمًا حدث في حياتهما. لكنها لم ترد أن تفكر في ذلك. إيطاليا! وبعدها لندن، وكوبنهاجن، وجميع أنحاء العالم! إلى أمريكا حتى، إلى هوليوود.

(V)

1

بـدا الصـوت مألوفًا، لكـن في البدايـة لم يصـدق سـميان أذنيـه. التفـت، مندهشًـا لرؤيـة أحمـد يقطع الشـارع جريًـا في اتجاهـه. اندفـع الرجلان إلى أحدهـما الآخـر، أمسـكا بأحدهـما الآخـر عـلى مسـافة ذراع، غـير مصدِّقَيْن.

صُـدِم سـميان مـن التغـيُّر في المظهـر البـدني لأحمـد، أو بالأحـرى مـن التناقـض بـين مظهـر أحمـد ومظهـره هـو. كانـت مشـية أحمـد أكـثر انتصابًـا وفخـرًا، اسـمرَّت بشرتـه، يـداه اللتـان كانتـا رقيقتـين صارتا خشـنتين ومتصلبتـين. فقـدت عينـاه كل خجلهـما الصبيـاني، وأشرقتـا بتصميـم هادئ. شـعر سـميان كأنـه مسرنـمٌ بجـوار أحمـد.

سارا إلى بولْڤار سان جِرمان، ودخلا مقهى، حيث طلبا قهوة.

"ما الذي أعادك إلى باريس، يا أحمد؟"

ابتسم، ووضع إصبعًا على شفتيه. "مشوار،" قال. "لن أبقى هنا طويلًا. شهران. أردت أن أراك. كيف حال الجميع؟ بيب، بينسون، والآخرون؟"

بدا توهُّج صحَّة أحمد البدنية والنفسية كأنه إدانة لسميان. "كل شيء على ما يرام. لم يتغيَّر شيء منذ غادرت، يا أحمد. تدخل إلى مقهى، وتواصل حوارًا تركته في اليوم السابق."

"هذا هو حال المستعمرة الأجنبية. يبدو أنني كنت بعيدًا لمدة طويلة. حدثت أمور كثيرة جدًّا في الجزائر. الحرب تكاد تنتهي؛ ديجول يريد أن يتفاوض، ونحن انتصرنا. لقد فكَّرت فيك كثيرًا، يا سميان."

"لماذا؟" سأل سميان، محرجًا تحت نظرة أحمد المركزة.

"إننا متشابهان جدًّا، يا سميان، إلى درجة أنه لو تغيَّرَت الظروف كان من الممكن أن تكون أنت في الجزائر وأنا هنا. حاولت تخيُّل ما الذي تفعله في باريس، وما الذي كنت لأفعله إن كنتُ أنتَ."

"ما الذي كنت ستفعله؟"

"أمضي من مقهى إلى مقهى، كالمعتاد، أظن."

"هذا ما كنت أفعله، وليست حياةً تستحق على المدى البعيد."

"لا."

سأل أحمد: "هل ما زلت مع ماريا؟"

هل ما زال معها؟ ماذا قال كافكا - "لا يعرف الثعلب أنه مات بالفعل بينما تنبح كلاب الصيد في مأواها؟" ردَّ بمواربة: "هي في إيطاليا، تشارك في فيلم."

"فيلم؟ هذا رائع. كيف حالها؟"

"أعتقد أنها بخير. لست متأكدًا. نادرًا ما تكتب."

لم يقل أحمد شيئًا. بعد لحظة، قال: "لا تترك نفسك تتعفَّن، يا سميان."

"أتعفَّن؟" لكن سميان كان يعرف ما يعنيه أحمد.

"تعرف. 'الهيام من مقهى إلى مقهى.' أخبرتك أني فكَّرت فيك كثيرًا. فكرت في نفسي - ونحن متشابهان. كان من الممكن أن أتعفَّن هنا في باريس؛ كل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أسترخي، وأدع نفسي تمضي. أغرق في حلم الأفيون. لكنني سأخبرك شيئًا. كنت فوق جبل في منطقة القبائل مع مجموعة من المقاتلين وهاجمنا الفرنسيون بالطائرات الهليكوبتر والمظلِّيين، وبدا أننا انتهينا، وفجأة فكَّرتُ في مقاهي باريس، وفكَّرتُ فيك. شعرت حينئذ: 'لم أكن أكثر سعادة في حياتي!' هل تفهم؟ لم أكن أكثر سعادة قطُّ. كنت نشطًا، حيًّا، وشعرت أني سعيد للمرة الأولى في حياتي."

ارتشف سميان القهوة، متأملًا. "لقد دُفِعت نحو الفعل،" قال. "ربما أحتاج أن أُدفع أنا أيضًا."

"أعرف. لكن إن لم تأتِ دفعة خارجية، عليك أن تدفع نفسك."

قال سميان بنفاد صبر: "لا يمكنني ببساطة أن أخرج وأبدأ حربًا، أليس كذلك؟"

"لا. ليس من اللازم أن تكون حربًا."

"أعرف."

ابتسم أحمد. "قلت لك، نحن توأم." نظر في ساعته. "لديَّ موعد. هل نتناول العشاء معًا الليلة؟ مع هنري ولُو، أيضًا، إن رأيتهما. هل عرفت أن هنري يعمل معنا؟"

"هنري؟"

هـزَّ أحمـد رأسـه. "مـع جبهـة التحريـر. لدينـا شـبكة كاملـة مـن الفرنسـيين يعملـون معنـا. ليسـوا جميعهـم أولاد حـرام." نهـض. "أيـن نلتقـي الليلـة؟"

"عند ماركو؟"

"طيب. في تمام الثامنة."

2

بينـما يسـير في الشـارع، مـرَّ سـميان بكشـك الجرائـد، وبحركـة تلقائيـة، أشـاح بوجهـه بعيـدًا عـن العناويـن. لم يـرد أن يعـرف مـا يحـدث، لكنـه كان يعـرف رغـم هـذا. مـا يحـدث في الجزائـر، وفي فرنسـا، وفي أنجـولا، وفي جميـع أنحـاء العـالم.

دخـل إلى مقهـى دانتـون. "بـيرة،" أخـبر النـادل. نظـر فرنـسيٌّ، يجلـس إلى طاولـة مجـاورة لـه، في جريدتـه وهـز رأسـه، ثـم نظـر إلى سـميان.

"ينبغـي أن يُطلـق النـار عـلى السياسـيين جميعًـا. يريـدون أن يبقـوا علينـا عـلى حافـة الحـرب، ويُفجِّرونـا. أقـول، أطلـق النـار عليهـم جميعًـا."

ابتسم سميان. السياسيون. لم يرد أن يفكِّر فيهم هم أيضًا.

حملـق أمامـه مبـاشرة، وفجـأة رأى ماريـا في خيالـه، كـما رآهـا للمـرة الأولى، تخبـط خصرهـا بآلـة البينبـول. تخيَّلهـا تحملـق في مـرآة، بتعبيرهـا الرصـين، متقلـب المـزاج، أو ترقـد عاريـة عـلى البطانيـة المغربيـة.

عـاد إلى شـقته إذ لم يبـدُ أن هنـاك مكانًـا آخـر يذهـب إليـه، ووجـد خطابًـا مـن ماريـا. مثـل خطاباتهـا الأخـرى، كان يصـف المطاعـم، والمناظـر، والملاهـي، والآثـار. كانـت سـعيدة: لم يكـن عليهـا أن تقولهـا، السـعادة تـرنُّ في كلماتهـا. لقـد كتبـت إليـه بدافـع الواجـب؛ لم تقُـل ذلـك، يمكنـه

أن يشعر به من نبرة الكلام. افعلها بينما أنت قوي. لقاءه بأحمد أعطاه قوة، على نحوٍ ما. جلس إلى مكتبه، وكتب:

عزيزتي ماريا:

أحبُّكِ، لكن لديكِ مستقبل مهني وحياتك الخاصة؛ أشعر أن أمامي حياة من نوع آخر، رغم أنني غير متأكِّد بعدُ كيف ستكون. لا يمكن للحياتَيْن أن يمتزجا. يا حبي العزيز، لتيسير الأمور؛ لا أريد أن أراكِ حين تعودين. سأحزم أي شيء لكِ هنا، وأرسله إلى غرفتكِ. حين تعودين، لا تأتي لتريني. ولا تردِّي على هذا الخطاب. اتركي الأمور تنتهي على هذا النحو. أعرف أنكِ تفهمين ما أتحدث عنه. أتمنى لكِ كل الحظ الطيب في العالم. أنا أغنى لأني عرفتكِ. حبي كله.

سميان

شعر بالخدر بينما يطوي الخطاب، ويغلقه. نزل كي يضعه في البريد قبل أن يغيِّر رأيه.

بعدها بأيام قليلة، تلقَّى خطابًا قصيرًا من ماريا: "حبي. بكيتُ حين قرأت خطابك. لا أعرف ماذا أقول؛ لم أشعر قطُّ بالقرب من أحد مثلك. لكن، إن كنتُ أمينةً؛ لا بُدَّ أن أقول إنني بدأت أشعر بالأمر نفسه. يمكننا أن نتحدث عن ذلك في باريس. لن آتي خصيصًا كي أراك، لكننا سنصادف أحدنا الآخر. يوشك الفيلم على الانتهاء، وسأعود قريبًا. حبي. ماريا."

3

رأى سميان أحمد تقريبًا كل يوم. لم يُرِد أن يفكر في ماريا، وخَشِيَ عودتها. شكَّ في أنه، إن رآها، سيكون قادرًا على مقاومة الإسراع إليها، واحتضانها. لم يرد أن يفكر في الأمر. سيكون أحمد خلاصَه.

"تعال إلى العشاء غدًا في مسكن بن يوسف،" قال أحمد ذات يوم. "صديقتان، امرأتان جزائريتان، ستكونان هناك. أريدك أن تقابلهما."

كان اسماهما جميلة ولطيفة، وكانتا أولى النساء المسلمات اللاتي يقابلهن سميان. لهما بشرة داكنة، وشَعر داكن، مجعَّد قليلًا، مثل الرجال. كانت جميلة، وهي الأصغر، في نحو التاسعة عشرة؛ قصيرة وممتلئة، بوجه دائري عذب، وعينين مرحتين، وضحكة لا تُقهر. أما لطيفة فقد كانت طويلة، ونحيفة، بخلاف بطنها، التي كانت منتفخة مثل بطن امرأة حامل. بدت أكثر جدية من جميلة. وكانت في نحو الخامسة والعشرين.

طهت المرأتان العشاء، حساء لحم ضأن حار مع خضروات. شربوا عصير تفاح، وقهوة سوداء.

"لم أقابل نساءً مسلمات أخريات في باريس،" قال سميان.

قال أحمد: "منع الفرنسيون جميلة ولطيفة من العودة إلى الجزائر. لقد أُطلق سراحهما من السجن للتو."

قالت جميلة، دائرية الوجه، بمرح: "قبضوا علينا بسبب العمل مع جبهة التحرير. لا يريدون أن يتركونا نعود إلى الجزائر لأنهم يخشون أننا سنبدأ من جديد."

"هل ستفعلان؟"

"بالطبع،" قالت مع القهقهة المعدية.

جلسوا هم الخمسة حول المائدة في غرفة بن يوسف، التي كانت واسعة، لكن قليلة الأثاث. كانت المرأتان قد طهيتا الحساء على موقد كحول وضعتاه على مغسلة المرحاض غير المستخدمة. جلس أحمد وسميان على الفِراش، وبن يوسف في مقابلهما، والفتاتان على طرفي المائدة. لم يكن هناك ورق حائط على جدران الجص الملطخة، ولا سجاد على الأرضية. حملق بن يوسف في الفراغ، وقد بدا منفصلًا ظاهريًّا عن الحوار، الذي كان بالفرنسية.

قال سميان للمرأتين: "ما هو عويل يو-يو هذا الذي تتحدث عنه جميع الصحف، ذلك الذي تفعله النساء الجزائريات حينما تكون هناك مظاهرة؟"

ردَّ أحمد نيابة عنهما: "إنها صيحة حرب من نوعٍ ما. قبل الحرب، كانت صيحة للتحية أو للوداع."

"أودُّ أن أسمعها."

نظرت جميلة ولطيفة إلى إحداهما الأخرى، وانفجرتا في ضحك خجول. توَرَّدَتا، وهزتا رأسيهما.

"من فضلكما. الأمر يفتنني."

وضعت لطيفة يدها أمام فمها، كي تخفي صفي الأسنان الذهبية، وقالت، ضاحكة: "ليس الجو المناسب. لن تكون طبيعية." ألقت نظرة أخرى على جميلة، ثم قالت: "سنغسل الأطباق. ربما بعدها."

غسلتا الأطباق في حوض الاغتسال، ورصَّتاها بحرص على رفٍّ في خزانة الملابس. نظرتا بين الحين والآخر إلى سميان، ثم إلى إحداهما الأخرى، وانفجرتا في ضحكهما الخجول. كان من الواضح أنهما نادرًا ما كانتا في صحبة رجال. تورَّدتا وقتما نظر سميان إليهما، وغضَّتا بصريهما. ورغم ذلك، هاتان كانتا الأكثر تحرُّرًا بين النساء المسلمات. لقد شاركتا مشاركة فاعلة في حرب. لن ترتديا الحجاب مرة أخرى أبدًا.

فجأة، رفعت جميلة رأسها، وأغمضت عينيها، وبدأت عويلًا بطيئًا، مخيفًا، منخفض النغم، بدا مثل سلسلة من يو يو يو يو. كتمت لطيفة ضحكها، وأدارت ظهرها للرجال كي تداري حرجها، وانضمَّت إلى جميلة في الصرخة التي تَقشَعِرُّ لها الأبدان. علت باطِّراد، وصارت أكثر سرعة، بينما تتمايل الفتاتان إلى الأمام والخلف، وتحركان رأسيهما. أثار صوتهما رعشة باردة عبر سميان. وتوقَّفتا بغتة عند نغمة عالية جدًّا، أعلى ما استطاعتا بلوغه. ثم انفجرتا في الضحك مرة أخرى، وأخفيتا وجهيهما.

صفَّر سميان. "رهيبة."

"إنها لتشجيع الرجال،" قال أحمد.

تَهلَّل وجه جميلة. "المظلِّيُّون يكرهونها. لا يطيقونها. تُرعِبهم. وقتما يأتون إلى أحيائنا، ونُطلِق الصيحة، يشحبون، ويوجِّهون بنادقهم إلينا، ويقولون إنهم سيطلقون النار إن لم نتوقف. لكننا لا نتوقف. وأحيانًا يطلقون النار."

جلستا مرة أخرى. كانت هناك لحظة صمت، ثم سأل سميان جميلة: "هل أنتِ متزوجة؟"

"لا. مخطوبة. عقد والداي اتفاقَ الخطبة مع والدَيْ خطيبي حين كان في الثالثة عشرة وأنا في التاسعة. هكذا كانت تُعقد الخطبة في الجزائر قبل الثورة."

"والآن؟"

"الآن، لدينا الحق في اختيار أزواجنا وزوجاتنا، عن حبٍّ." ضحكت بمرح. "كنت محظوظة، وقعت في حب خطيبي. سنتزوج بعد الحرب."

"أين هو الآن؟"

"في السجن."

تدخَّلَت لطيفة، وقد أدارت عينيها الجادتين إلى سميان: "كل الشباب في السجن أو في قوات المقاتلين."

"وأنتِ، يا لطيفة؟ هل أُعطيتِ أنت أيضًا خطيبًا حين كنتِ طفلة؟"

"نعم. لقد قُتِل منذ عامين." فكَّرَت للحظة، ثم صحَّحَت: "كل الشباب في السجن، أو مع المقاتلين، أو ماتوا."

تصلَّب وجه أحمد. "مليون من الموتى. من سكان تعدادهم تسعة ملايين. هل يمكنك أن تتخيَّل ذلك؟ أكثر ممَّا فقد الفرنسيون أو الأمريكيون في الحرب العالمية الثانية."

هزَّت لطيفة رأسها ببطء. "والمصابون، والمفقودون. ومَن تعرَّضوا للتعذيب."

هزَّت جميلة كتفيها. "أوه، التعذيب. عمليًّا تعرض الجميع للتعذيب. لا يستحق الأمر الحديث عنه حتى."

"الأمر يستحق الحديث عنه،" قالت لطيفة، وهي ترفع يدها، على نحو يكاد أن يكون آليًّا، لتغطية أسنانها الذهبية. "إضافة إلى الاغتصاب."

تحدَّث أحمد بصوت خفيض، متلطفًا، عارفًا أنه يمس موضوعًا حسَّاسًا: "أخبري سميان عن التعذيب."

"لا!" قالت لطيفة. لم تَعُد أي من المرأتين تبتسم الآن.

"لا بُدَّ أن يعرف ما يحدث في الجزائر، يا لطيفة. لا بُدَّ أن يعرف الجميع."

"لا. لا أريد أن أتحدث عن ذلك. لا أريد أن أفكر في ذلك."

ربَّت أحمد على ذراع لطيفة. التفت إلى سميان وقال: "لا بُدَّ أن تعرف. لا بُدَّ للجميع أن يعرفوا. قُبِض على لطيفة وهي تهرِّب أسلحة لجبهة التحرير. اغتصبت بالطبع. لكن الضباط الفرنسيين أرادوا معلومات عن جبهة التحرير؛ أرادوها أن تخون بقية أعضاء الجبهة، وعذبوها حين رفضت الرد على أسئلتهم."

كانت لطيفة شاحبة، تحملق بثبات في المائدة. قامت فجأة، أحنت رأسها بخجل، وجرت إلى خارج الغرفة. أحنت جميلة رأسها، وتورَّد وجهها، وتبعتها. شرح أحمد: "لا تريدان أن تكونا حاضِرتَيْن وأنا أخبرك." ثم أردف: "بدؤوا بحوض الاستحمام. وضعوها في حوض استحمام مملوء بماء صابون، ودفعوا رأسها تحت الماء حتى كادت تغرق، ورفعوها، وأفاقوها. كرروا هذا نحو عشر مرات. ثم عرَّضوها للماء الساخن والبارد، ملؤوا الحوض بماء بارد كالثلج، ثم ماء يلتهب سخونة، متنقلين بين ذلك عدة مرات.

ولم تتكلم رغم ذلك؛ لهذا في اليوم التالي جرَّدوها من ملابسها مرة أخرى، وأرقدوها على بطنها فوق أرضية حجرية باردة، وربطوا يديها خلف ظهرها. ثم رفعها مظلِّيَّان عن الأرض إلى مستوى خصرهما، أحدهما يمسك بها من قدميها والآخر من شَعرها. أخبروها أن تتكلم. رفضت. فأفلتها الرجل الذي يمسك بشعرها. ارتطم وجهها بالأرضية الحجرية، وتحطَّمَت أسنانها وأنفها، وانسحقت شفتاها. رفعها الرجل

مـن شـعرها مـرة أخـرى. 'تكلَّمـي،' قـال. بصقـت دمًـا عـلى وجهـه. تـرك رأسـها، وارتطـم وجههـا مـرة أخـرى.

وظلَّـت لا تتكلـم. أعطوهـا الوقـت كي تتعـافى، كي تفكـر في الألم، وكي يكـون بمقدورهـا أن تشـعر بـالألم مـرة أخـرى، ثـم جرَّدوهـا مـن ثيابهـا، وضربوهـا بالهـراوات، مُركِّزيـن عـلى ثدييهـا، ومرفقيهـا، وركبتيهـا. لكنهـم احتفظـوا بالأفضـل للنهايـة. أمسـك بهـا جنديـان مـن ذراعيهـا، وقبـض آخـران عـلى كاحليهـا، وجذبـا سـاقيها عـلى اتسـاعهما، وابتسـم مـلازم مـن جنـود المظـلات، وكـسر عنـق زجاجـة شـمبانيا، ووضـع الطـرف المسـنَّن عـلى عضوهـا." جفـل سـميان. "'تكلَّمـي،' قـال المـلازم. صرخـت لطيفـة، ولم تتحـدث. حـشر الزجاجـة مسـنَّنة الحـواف في عضوهـا، ولواهـا في الداخـل. صرخـت، وفقَـدَت الوعـي. حـين أفاقـت، هـدَّدوا أن يكـرروا الأمـر كلـه مـن جديـد. تكلَّمَـت."

كان سـميان يرتعـش، لا إراديًّـا، مـن الرعـب. تحـدث أحمـد بغضـب بـارد، وقـد ضاقـت عيناه. "أمـا عـن جميلـة، كان تعذيبهـا أقـلَّ حِـدَّة إلى حـدٍّ مـا. عُذِّبـت أمـام أبيهـا وخطيبهـا، بأقطـاب كهربائيـة. أجهـزة كهربائية موصولـة بالتيـار وتوضـع عـلى الثديـين والعضـو. ليسـت لطيفـة، يمكنني أن أؤكـد لـك. لم يسـتطع الأب، الـذي أغمـض عينيـه، أن ينظـر؛ أمـا الخطيـب، الرجـل الموجـود في السـجن الآن، فقـد زعـق بـأن يعذبـوه مكانهـا. التفـت الجـلَّاد إلى الخطيـب، وابتسـم: 'لا تقلـق، أيهـا البيكـو، سـيأتي دورك.'"

كان وجـه أحمـد شـاحبًا مـن الحنـق، وارتعشـت شـفتاه. حملق سـميان في أحمـد، والصـور غـير الإنسـانية في عقلـه. وضـع سـميان نفسـه مـكان المرأتـين. كان هـو نفسـه في حـوض الاسـتحمام، هـو نفسـه أمـام الأقطـاب الكهربائيـة. أغمـض عينيـه.

اختلسـت المرأتـان نظـرة عـلى الغرفـة، ثـم دخلتـا. كان وجـه لطيفـة رصينًـا مـا زال، لكـن جميلـة نفضـت عنهـا المـزاج السـيئ. لم تكـن لتـدع

شيئًا يفسد مزاجها المعتدل. كانت الغرفة ممتلئة بالدخان، فسعلت، وضحكت، وقالت: "الرجال! غليون وسيجار وسيجارة!"

لكن الآخرين، بما فيهم سميان، لم يستطيعوا أن يبتسموا. جلسوا يدخنون، ويحملقون في القهوة الباردة إلى أن قام سميان في النهاية لينصرف.

"سأنتظر دقيقة ثم أرافق البنتين إلى البيت، تسكنان في آخر الشارع،" قال أحمد.

"طيب." صافح سميان لطيفة وجميلة. "أتمنى أن نتقابل مرة أخرى،" قال بحرارة.

"نعم. سيرتِّب أحمد ذلك."

عند الباب، التفت سميان إلى أحمد، "لا أعرف ماذا أقول. أشكرك على الدرس."

ابتسم له أحمد. "لا تتداعَ، mon frère [يا شقيقي]."

"لا."

"بالمناسبة، لن تراني في الشارع أثناء الليل بعد الأسبوع القادم. لقد قرَّرَت الحكومة للتَّوِّ حظرًا للتجول على الجزائريين. علينا ألَّا نكون في الشوارع بحلول تمام الثامنة. وعلى مقاهينا جميعها أن تغلق في الساعة نفسها."

"هذا غير ممكن!"

"ألا تقرأ الجرائد؟"

"لم ... لم أر ذلك."

مكتبة
t.me/soramnqraa

"إنه صحيح. علينا ألَّا نزحم الشوارع، وألَّا نفسد رائحة الهواء على الفرنسيين المحترمين. الأمر على ما يرام بالنسبة لي، بشقتي. لكن فكِّر في الرجال الذين يعيشون أربعة في حجرة في العشوائيات!"

نظر سميان إلى نهاية الممر. خرج عدة جزائريين من غرفة، وساروا إلى نهاية الممر، وطرقوا بابًا آخر.

"لا تقلق،" قال أحمد. "لن نتلقَّى الأمر مستسلمين. سيكون لنا ردُّ فِعل."

"كيف؟"

"سنتحدَّاهم."

"ستقابلكم الشرطة بالهراوات."

"سيفعلون ما هو أسوأ من ذلك. لكن علينا أن نردَّ." بدا أكبر سنًّا بكثير، وأكثر نضجًا من سميان.

"طاب مساؤك، يا سميان."

"طاب مساؤك، يا أحمد. سأتصل بك، أو أمرُّ بمسكنك."

(VI)

1

في 1 أكتوبر 1961، دعت جبهة التحرير الوطني الجزائرية كل الجزائريين المقيمين في باريس إلى الخروج للشوارع في المساء، وعقد مظاهرة سلمية ضد حظر التجول الذي فرضته عليهم الحكومة الفرنسية. كانت إرشادات جبهة التحرير هي أن يشترك كل من هو متاح من الرجال، والنساء، وحتى الأطفال؛ وأن عليهم أن يسيروا بطريقة منظمة، في مجموعاتٍ، على رأسها مناضلو جبهة التحرير؛ وألَّا يحمل أحدٌ سلاحًا، لا عصا حتى، أو مطواة جيب.

كان يومًا باردًا، ورطبًا. عمَّمت حكمدارية شرطة باريس بيانًا تحذِّر فيه من أن التجمُّعات في الشوارع ممنوعة، وأن الشرطة ستفضُّ أي مظاهرات يتم تنظيمها. لكن الكل كان يعرف أن الجزائريين سيتجاهلون هذا التحذير: عرف الجميع أنهم سيتظاهرون على أي حال؛ عرفوا أنه ستحدث اشتباكات، وشغب، وأنه بنهاية اليوم سيكون عدد من الناس قد ماتوا. كانت وجوه الجزائريين، الذين يمرُّ بهم المرء

أثناء النهار، متجهِّمةً. كان يمكن رؤية الخوف أحيانًا، لكن التصميم دائمًا. على وجوه الفرنسيين والأجانب كان شيء آخر: درجات متباينة من الذنب والتوجُّس.

مرَّ سميان بشقة أحمد في ذلك الأصيل، لكن صديقه لم يكن في البيت. كان قد رجَّح ذلك. من الواضح أن أحمد، مع جبهة التحرير بأكملها في باريس، كان يساهم في تنظيم مسيرة المساء. في التورنون، في المواناكو، في الدانتون، في جميع المقاهي حيث يتقابل أفراد المستعمرة الأجنبية، كانت المظاهرات هي محور الحديث أثناء اليوم. وقد نوى أغلب الأجانب المتحدثين بالإنجليزية أن يعودوا إلى مساكنهم مبكرًا، ويبقوا في الداخل.

"تعرف كيف هم، رجال الشرطة الفرنسية،" قال بيب. "حين يبدؤون في التلويح بتلك الهراوات، لا يرون فرقًا بين متظاهر ومتفرج."

"سوف ألقي نظرة على أي حال،" قال سميان.

مبكرًا في ذلك المساء، أتى أكثر من ثلاثين ألف جزائري من مساكنهم في أحياء الصفيح والضواحي المتداعية، من غرفهم في الفنادق المكتظَّة والمقاهي الحزينة، سيرًا على الأقدام، وبمترو الأنفاق، والقطار، والباص. وتجمَّعوا في مراكز باريس. أصحاب المتاجر والبائعات الذاهبات إلى السينمات في البولْڤارات الكُبرى؛ والمهندمون من رجال الأعمال، والمهنيين، والسُّيَّاح الذين يرشفون القهوة في المقاهي المطلة على جادة الأوبرا؛ والعشاق حسنو التغذية الذين يتنزهون على امتداد السين ... حدَّقوا جميعًا في دهشة وحنق بينما قطعان البيكو، التي تتقيَّؤها مَعازِلُهم، تستولي على شوارع العاصمة.

تجمَّعت حشود الجزائريين، في مجموعات مختلفة، في مراكز رئيسية: البولْڤارات الكُبرى، جادة الأوبرا، شارع باك، بولْڤار سان ميشيل، الأرصفة على امتداد السين. سار رجالٌ في ملابس رثَّة - أفضل

ملابسهم - بجوار نساء رافقهن في الغالب أطفالهن، أو حملن رُضَّعًا بين أيديهن. هتف الرجال والصبية بالشعارات الوطنية: "تحيا جبهة التحرير"، "تحيا الجزائر الحرة"، "الجزائر للجزائريين." رفعت النساء والفتيات الجزائريات أصواتهن بالعويل المخيف الذي سمعه سميان من لطيفة وجميلة.

أُجبرت حركة المرور على التوقُّف التام. كافحت قوات الشرطة التي هرعت إلى أماكن الأحداث كي تشقَّ طريقها عبر قطعان السيارات التي تعالت أبواقها. فرَّ المتفرجون إلى داخل المقاهي أو أفنية المباني، ووُضِعت بوابات حديدية أمام واجهات المتاجر، وأُغلِقت ستائر خشبية على نوافذ الشقق. مَن كانوا يبغضون الجزائريين، أو يكرهونهم، وهم الأغلبية، لعنوهم؛ مَن تعاطفوا، صلُّوا من أجل الجزائريين. دوَّت الأبواق على مبعدة: الشرطة في طريقها.

حدثت المواجهات على نحو متزامن في الأجزاء المختلفة من المدينة حيث تركَّز الجزائريون. تجمَّعت قوات الشرطة، بهراوات بيضاء طويلة، من الشوارع الجانبية، وهجمت. نظريًّا، كان الهدف من هجمات الشرطة الفرنسية هو تقسيم المظاهرات إلى جيوب صغيرة، وتفريق المتظاهرين؛ لكن كان من الواضح، تلك الليلة، أن الشرطة تسعى لسفك الدماء. بينما قامت "مجموعات مقاتلة" بالهجوم، وقفت خلفها صفوف أخرى من الشرطة، في كل شارع، سادَّةً طرق الهروب، ومسلَّحَة بالهراوات والرشاشات. قسَّمت الهجمات الجزائريين إلى جيوب صغيرة؛ ثم حاصر كل جيب رجال شرطة ضربوا الرجال، والنساء، والأطفال بالهراوات على نحو منهجي. رأى سميان عجائز يُضربون بالهراوات بعد وقعوهم على الأرض، أحيانًا من خمس أو ست رجال شرطة في آنٍ واحد، ورأى أجسادًا تُضرب بعد أن يكون الرجال قد ماتوا. في مشاهد سادية فظيعة، رأى سميان نساءً حوامل يضربن بالهراوات على البطن، وأطفالًا يُنتزعون من أمهاتهم، ويُلقون

أرضًا. على امتداد السين، رفع رجال الشرطة جزائريين فاقدين الوعي عن الأرض، وألقوا بهم في النهر.

2

في تلك الأثناء، نامت معظم المدينة أو مضت في طريقها خالي البال. رقص رجال ونساء ضاحكون التويست أو التشا تشا تشا على أضواء الشموع في ملهى بْريڤيه في سان جِرمان دي بريه، رقصوا في ملهى إبّي، رقصوا في رِچينّ، رقصوا في قاعات الرقص وفي الكباريهات. المخضرمون، وبعضهم عاش أثناء كابوس الاحتلال الألماني في زمن الحرب، أو معسكرات الاعتقال حتى، لعبوا الورق أو الدومينو أو النرد في المقاهي القديمة. أُكرم السُّيَّاح بمفاتن "باريس أثناء الليل" المصنوعة خصيصًا لهم؛ أرسل رجال أعمال في منتصف العمر زهورًا إلى عاريات فولي بِرْجير، أو كونْسير مايُول، وواصلت ماري شانتال البحث عن زوج ثري محتمل، أو عن وكيل فنانين محتمل، في لو نواچ.

شرب كلايد في المونماكو كي ينسى أمر چينكس، وشربت چينكس في السلكت كي تنسى أمر نفسها. بادل داج فتاة وزارة الخارجية الحبَّ. تجشَّأ بيب بعد وجبة ضخمة ومزح كي يبعد شعورًا بالذنب. استلقى بينسون مخمورًا وشاعرًا بالمرارة في الفِراش مع عشيقته. واستلقى أحمد ميتًا، رأسه سحقتها هراوات الشرطة، على تقاطُع شارع باك وبولْڤار سان جِرمان.

كان جسده واحدًا من أجساد عديدة، ميتة وجريحة ممدَّدة في الشارع. منطويًا على نفسه مثل طفل على جنبه، الوجه معقود في تقطيبة، اليدان ما زالتا مرفوعتين كحماية فوق رأسه، بدا أكثر نضارة حتى ممَّا كان في حياته. لم تعرف الشرطة أنه مات، وألقت بجثته، مع

الآخرين، في شاحنة. جثث ما يزيد على مئتي جزائري، بينهم أحمد، سوف تُستخرج من السين في اليوم التالي، ولأيام بعدها.

3

على رصيف بالقرب من بُون نُف، مال سميان على رفرف سيارة راكنة. لم يكن يعرف ما يفعل أصدقاؤه، ولا ما حدث لأحمد، ولا ما كان يحدث في بقية المدينة. كان الهواء هنا، مثلما في بقية المدينة، ممتلئًا بصرخات النساء والأطفال. جرى الناس بجنون، في خطوط متقطعة وفي دوائر، لكن لم يكن هناك مهرب. فجأة، رأى سميان شيئًا أكثر وحشية من أي شيء رآه في حياته من قبل. على بعد ياردات منه، كان رجل شرطة يهوي بهراواته على امرأة تحمل طفلًا. وقعت المرأة على ركبتيها، وانحنت إلى الأمام كي تحمي الطفل، واستمرت هراوة الشرطة في الارتفاع والنزول، والارتفاع والنزول. حدَّق سميان، مدركًا أنه كان يبكي، شاعرًا بتلك الضربات على جسده هو. ثم فجأة رأى وجه الشرطي.

رآه بوضوح كأنه على بُعد بوصات فقط منه - الوجه الذي كان يعرفه حق المعرفة، الوجه في أمريكا الذي حاول أن يفرَّ منه - لقد كان كريس، ومايك، وجههما. كان وجه الشرطي مشوَّهًا، وملتويًا بمتعة التدمير، وقد ضاقت عيناه؛ نقطتا إثارة حمراوان فوق بشرته الشاحبة شحوب الموت.

تفجَّر الوجه أمام سميان؛ وشعر بخنجر صارخ من الألم في محجر عينه المفقودة. لم يفكر سميان، بل تقدَّم إلى الأمام، مترنحًا، وهو يوشك أن يفقد الوعي من الألم في محجره، وشقَّ طريقه بين السيارات الراكنة، وهوى بقبضته على ذلك الوجه المكروه، بكل قوته. ارتطم

العظم بالعظم: رأى الأنف ينسحق، والدم يتدفق؛ ثم شعر بألم مبرح داخل رأسه، وأظلمت الدنيا.

أفاق ليجد نفسه يختنق تحت كتلة ساحقة، ساخنة، بوجع رهيب في رأسه وفي محجر عينه. بدأ يعي حركة، وأدرك تدريجيًّا أنه في عربة، شاحنة شرطة. حين دفع ذراعيه إلى الأمام، محاولًا أن يفتح مسارًا للهواء، أدرك أنه كان محشورًا في كومة أجساد، بعضها يتشنَّج، وبعضها ساكن. كان الهواء لزجًا بعفونة العرق والأنفاس، وبدا أن الجميع يسعلون.

توقَّفَت الشاحنة، وجُرَّت الأجساد خارجها: أجساد رجال ونساء، بعضها ميت، لكن معظمها مصاب، وعلى قيد الحياة. حين لامست قدما سميان الأرض، وجد نفسه في خلاء خارج استاد رياضي ضخم. كانت الشرطة تسحب رجالًا من شاحنات أخرى كثيرة، بينما وقفت صفوف قوات مكافحة الشغب، من وحدة الأمن الجمهوري، على أطراف الأرض الخلاء، وبالقرب من الشاحنات، مسلحين بالرشاشات. انتفض رأس سميان؛ حين لمسه، نزل دم متجلط في يده. عدَّل من وضع العصابة التي كادت تسقط عن رأسه، ثم دُفِع بخشونة داخل الصف الطويل من الجزائريين الذي يُساقون إلى داخل الاستاد. "تحرَّكوا، تحرَّكوا!" هتف رجال الشرطة بين اللعنات والإهانات. تقدَّم سميان متعثرًا في المدخل، وشهق مما رآه بالداخل: جلس آلاف الجزائريين، أو استلقوا، على أرضية الاستاد الضخم، أغلبهم ينزف من جروح في الرأس. لم يَرَ أحدًا آخر يبدو غير عربي. دُفِع سميان، والقادمين الجدد الآخرين، إلى الأرض حيث جلسوا أو تمدَّدوا على ظهورهم مع الآخرين. لم يول معظم الجزائريين أي اهتمام خاص لسميان، لكن اثنان أو ثلاثة ألقوا نظرة عليه، وابتسموا بوهن، بدون استغراب، "Salud, frère" قال رجل. frère: شقيق. ابتسم سميان. "Salud, mon frère".

كان الاستاد رطبًا، وباردًا، والهواء كريهًا. استلقت النساء والأطفال بين الأجساد التي تتزايد باستمرار، وتردَّدَت أصداء صيحاتهن من السقف المقبَّب، العالي. مَن لم يكن مصابًا من الرجال جلس متربِّعًا، يحملق أمامه مباشرة. ومئات من رجال الشرطة في كل مكان، يصوبون بنادقهم، بوعيد. امتزج أنين المصابين بالهمهمة العامة للأصوات. علا ضجيج ميكرفونات، ثم دوَّى صوت أجوف، وهدأ الجزائريون كي يستمعوا. قال الصوت إن الجزائريين سيبقون في الاستاد إلى أن يتوفر مكان لهم في السجون، أو المستشفيات، أو المعسكرات في فرنسا؛ وأضاف أن المحرِّضين من بينهم سيعادون إلى "محلات نشأتهم" - إلى معسكرات الاعتقال في المناطق الجزائرية حيث وُلِدوا.

رقد سميان على ظهره، وأغمض عينيه بقوة على الألم. ماذا سيحدث له؟ لم يهتم. للمرة الأولى منذ مدة طويلة، يشعر بدرجة معقولة من التصالح مع ضميره. هل كان هجومه على رجل الشرطة عملًا شجاعًا مقصودًا، أم نتاجَ غضب لحظي وهذيان؟ لم يكن ذلك مهمًّا: المهم أنه سدَّد ضربة إلى الوجه.

هدأ الألم في عينيه إلى حدٍّ ما، وقبل أن يغفو، فكَّر: وجه الشرطي الفرنسي، وجه كريس، وجه مايك، وجه البحار، وجه الجلاد النازي في بوخنفالد وداخاو، وجه الغوغاء الهستيرية في ليتل روك، وجه المتعصب الأفريكاني، والجزار البرتغالي في أنجولا، ونعم، الوجوه السوداء لقتلة لومومبا - هي جميعًا الوجه نفسه. حيثما يوجد هذا الوجه، يَكُن عدوُّه؛ ومن يَخَف ذلك الوجه، أو يُعانِ منه، أو يحاربه، فهو شقيقه.

4

استيقظ سميان في بواكير الصباح، متصلبًا، ومتوجِّعًا، وشاعرًا بالبرد، ورأسه ينتفض. لوَّح له عجوز جزائري، ذو لحية، وردَّ سميان تحيته. كان أغلب الجزائريين مستيقظين بالفعل، ويتحدثون بالعربية فيما بينهم. مرَّ بينهم شرطيون تتدلى البنادق من أكتافهم، يوزعون سائلًا أسود أقرب إلى الماء وقطع خبز جاف.

دوَّت مكبرات الصوت: "قفوا." قسَّموا الرجال في مجموعات صغيرة وضعوها في أجزاء معيَّنة من أرض الاستاد، وبدؤوا في استدعائهم، فُرادى، إلى غرف، أو إلى مكاتب صُفَّت على امتداد الحوائط. كان سميان في مجموعة ضمَّت نحو مئتي رجل وامرأة أُجلسوا في أحد الأركان. ابتسم رجلٌ بجوار سميان، وتحدث معه بالعربية. قال سميان بالفرنسية: "لا أتحدث العربية."

"هل أنت إفريقي؟"

"لا. أمريكي."

زمَّ الرجل شفتيه، وقوَّس حاجبيه من الدهشة. للحظة، بدا متشكِّكًا. ثم قال: "جيد."

جلسوا لساعات على الأرضية الباردة الرطبة، مُغيِّرين كثيرًا من أوضاعهم كي يريحوا عضلاتهم الموجوعة. من وقت إلى آخر، رفعت النساء أصواتهن بعويلهن الحاد مرة أخرى. فكَّر سميان فيما قاله له أحمد، كيف أنه لم يشعر بالسعادة مثلما حدث حين وجد نفسه مع وحدة من المجاهدين تقاتل المظلِّيين. الآن، فهم سميان ما قصده أحمد.

نحو الواحدة، جاءهم رجال شرطة بقدورٍ بها بطاطس مهروسة، فاترة وصلبة، مخلوطة بلحم مفروم، وكان ذلك غداءهم. لم تكن

هنـاك أطبـاق، أو شـوَك، وأُعطـي كل رجـل حصتـه في يديـه المضمومتـين. أكلـوا جميعًـا كالجيـاع.

تنقَّـل رجـل في ملابـس مدنيـة بـين السـجناء، متفحِّصًـا الوجـوه. توقَّـف، وتجهَّـم حـين رأى سـميان. ذهـب إليـه.

"هل أنت عربي؟" سأل.

هزَّ سميان رأسه. نظر الجزائريون إليه.

"ماذا أنت؟ إفريقي؟"

تَردَّد سميان للحظة، ثم قال: "أمريكي".

التفـت الرجـل، وهـو ما يـزال متجهِّـمًا، وسـار مبتعـدًا. نظـر الجزائريون إلى سـميان، وابتسـموا. لم يَقُـل أحـدٌ شـيئًا. بعـد نحـو نصـف سـاعة، عـاد المـدنيُّ، وقـال لسـميان: "تعـال معـي."

صنـع سـميان علامـة النـصر بأصابعـه للجزائريـين في مجموعتـه، وتبـع الرجـل عـبر الاسـتاد إلى بـاب مكتـب صغـير. "انتظـر هنـا دقيقـة." مـن خـلال البـاب، رأى سـميان رجـلًا قصـيرًا، متينًـا، في ملابـس مدنيـة هـو الآخـر، يجلـس وراء مكتـب، ويسـتجوب ثلاثـة جزائريـين، واقفـين. كان دم جـاف متناثـرًا في شـعر الجزائريـين. جلـس شرطـيٌ آخـر، إلى طاولـة أخـرى في الغرفـة، يطبـع ملاحظـات.

حـين غـادر الجزائريـون الغرفـة، قـال المـدنيُّ لسـميان: "هيـا، ادخُـل." نظـر الرجـل المتـين إلى سـميان، بتسـاؤل، وقـال: "آه، نعـم." وجَّهـه إلى مقعـد أمـام المكتـب.

"أوراقك."

ناوله سميان جواز سفره، وبطاقة الإقامة.

"أنت أمريكي. ماذا كنت تفعل في مظاهرة سياسية في فرنسا؟"

"لم أكن فيها، كنت أمُرُّ."

"لماذا قُبِض عليك؟"

"حاولت مساعدة امرأة معها طفل كان رجل شرطة يضربها بهراوة. ضُربتُ على الرأس من الخلف، وصحوت في عربة شرطة في طريقها إلى هنا."

تفحَّص الرجل سميان. وجهه الدائري لم يكن مزعجًا. "يمكن أن تُطرد من فرنسا، كما تعرف. أنت هنا كضيف، ليس لديك أي حق في التدخُّل في شؤوننا السياسية."

لم يقُل سميان شيئًا. نظر الرجل في أوراقه مرة أخرى، ملاحظًا اسم سميان وتفاصيلَ أخرى. رفع نظره إلى سميان.

"عِدني أنك لن تتدخل في أي مظاهرة أخرى."

"آمل ألَّا يكون هناك داعٍ لمظاهرات أخرى مثل هذه."

تورَّد وجه الرجل. مُدركًا أن سميان تجنَّب إعطاء الوعد، قال:

"انظُر، أعرف بعض الشيء عن مشاكلكم. كنتُ أقرأ في الصحف عن المشاكل في المدارس. هل تفهم؟ نحب الزنوج هنا، لا نمارس العنصرية في فرنسا، هنا ليس مثل الولايات المتحدة. يمكننا أن نفهم لماذا تفضِّل العيش هنا. لن يروق لنا إن اضطررنا إلى طردك."

انتظر، وحين لم يردَّ سميان، تنهَّد، وناوله أوراقه. "طيب، يمكنك أن تغادر."

دُهِش سميان. "أغادر؟"

"هذا صحيح، يمكنك أن تمضي. لستَ جزائريًّا. لكن لتبتعدْ عن المشاكل التي لا تعنيك. نادِ الحارس في الخارج."

نادى سميان على الحارس. أدهشه أنه أفلت بهذه السهولة، وشعر بالذنب بينما يقوده الحارس عبر أرضية الاستاد أمام عيون الجزائريين. عند المَخرَج، قال الحارس: "أنت محظوظ. أراك في المرة القادمة."

"نعم، المرة القادمة،" قال سميان.

كان رجال شرطة مكافحة الشغب يقفون، مرتدين خوذات من الصلب، يدخنون أمام الباب، والرشاشات تتدلى تحت أذرعهم. نظروا إلى سميان بفضول. وضع يده على رأسه المنتفض، وسار نحو محطة مترو الأنفاق.

5

حان الوقت لمغادرة باريس. لقد ألحَّت عليه الحاجة إلى اتخاذ هذا القرار المؤلم منذ الشغب، قبل يومين. يسير الآن عبر التويلْري في يوم مُشمِس، ومنعش. نظر إلى الحدائق، والتماثيل، وبِركة الماء، والأطفال، والأزواج الشباب، والرجال والنساء العجائز، مُخبرًا نفسه أنه ربما يرى كل هذا للمرة الأخيرة.

في اليوم السابق، أخبره لُو بموت أحمد. تذكَّر سميان الهراوات التي حملها السادِيون، اللا رجال. لم يتمكَّن من قول شيء، وحملق فقط خارج نافذة مقهى التورنون. فكر في أحمد كما كان حين تحدثا للمرة الأولى في ميدان كونترسْكارْب - صبيانيًّا، وخجولًا، ومتحمسًا، وحساسًا. "إننا متشابهانِ جدًّا، يا سميان،" كان أحمد قد قال. "لو تغيَّرَت الظروف ..."

إلى أين يذهب؟ طرح السؤال على نفسه رغم أنه كان يعرف الجواب الحتمي - رغم أن الاشمئزاز اجتاحه كلَّما فكَّر في ذلك. العودة

إلى الولايات - ليس لأن ذلك يعجبه، ليس لأن نفوره من تلك البلاد ومن شعبها تغيَّر، ليس لأنه شعر بغضب أو مرارة أو إحباط أقل لمجرد التفكير في العيش هناك مرة أخرى؛ بل لأن لولو بيل وأمثالها كانوا هناك، جزائريُّو أمريكا كانوا هناك، يحاربون معركة أصعب من أي مقاتلين على أي جبل محروق. يحاربون الوجه الحجري.

يسير في الشانزليزيه الآن، مستوعبًا الحشود، والمقاهي، والأصوات. بينما يقترب من ملهى الإليزيه، توقَّف فجأة، وهو يرى ماريا تخرج من سيارة أمريكية كبيرة، يساعدها رجل وسيم، أنيق الملبس.

توقَّف بلا حراك، وقد وهنت ساقاه، آملًا ألَّا تراه؛ لأنه لم يكن يثق بنفسه. لكنَّ عينيها تسمَّرتا عليه. وقفا بلا حراك، ينظران إلى أحدهما الآخر؛ ثم قالت شيئًا لرفيقها، وأسرعت إلى سميان، مُلقِيةً ذراعيها حول رقبته.

"سميان! كيف حالك؟"

"بخير، يا ماريا. وأنتِ؟"

"بخير. أنا بكل خير." تفقَّدت عيناها وجهه. "هل أُحزنك حين أقول ذلك؟"

"لا."

"سأذهب إلى أمريكا، يا سميان. إلى هوليوود. ذلك الرجل هناك بجوار السيارة مخرج أمريكي. لديَّ دور جيد."

"ذلك رائع يا ماريا."

استعذب المفارقة. كان المخرج يراقبهما بفضول. سيكون على ماريا أن تتعلَّم، في أمريكا، ألَّا تعانق رجالًا سودًا في الشوارع.

شعر بالارتباك، وهو يرى نفاد صبر المخرج.

"وداعًا يا ماريا. وحظًا سعيدًا."

"وداعًا يا سميان. سأعود إلى باريس في زيارات. يمكننا أن نخرج معًا، مثل الأيام القديمة، أليس كذلك؟ ستظل مقيمًا في المكان نفسه؟"

"أظنُّ هذا."

"ألا تعتقد أنك ربما تعود إلى أمريكا ذات يوم؟ في زيارة على الأقل؟"

"ربما."

"سأكتب. ربما ذات يوم، حين أكون مشهورة وغنية ولديَّ كل الأشياء التي أردتها دائمًا - ربما حينها، يا سميان ..."

"ربما حينها. وداعًا يا ماريا."

جرت كي تلحق بالمخرج، وساقاها الطويلتان تلوحان في الحذاء عالي الكعب. عند الباب، التفتت، وابتسمت، ولوَّحت قبل الاختفاء داخل ملهى الإليزيه.

سار سميان إلى مكتب الفِرنش لاين، حيث حجز تذكرة باخرة لرحلة عودته إلى الولايات المتحدة.

6

هنري، الذي كان عضوًا في جبهة التحرير لكنه كان وطنيًّا فرنسيًّا رغم ذلك، أراد من سميان أن يبقى في فرنسا. "ما إن تنتهي حرب الجزائر، سيكون كل شيء في فرنسا على ما يرام مرة أخرى."

هزَّ سميان رأسه. "سيمرُّ وقت طويل قبل أن تصير الأمور هنا على ما يرام مرة أخرى. لم تبدأ فرنسا حتى في المعاناة من الأشياء التي حدثت أثناء هذه الحرب."

كان لُو سيذهب إلى إيطاليا، ثم يعود إلى الولايات المتحدة. "من الأفضل أن تعيد التفكير في الأمر،" أخبر سميان. "لقد ابتعدت لمدة طويلة، وربما تكون قد نسيت كيف الحال هناك."

"لم أنسَ."

تبسَّم لُو. "طيب. سأقابلك هناك، وسوف نساعد في تحويل الولايات إلى مكان لا يريد أحدٌ أن يفرَّ منه."

مزح بيب، لكن سميان شعر بعدم ارتياح، وربما بغضب مكبوت، وراء كلماته.

"ستصير بطلًا إذًا. مازوخي هذا ما أدعوك. مُدَّعٍ أيضًا. ما الشيء الجيد الذي ستفعله هناك؟ ستغير الأحوال؟ ستصير قائدًا أو شيئًا من هذا القبيل؟"

"عليَّ أن أقوم بالرحلة، يا بيب. عليَّ أن أكتشف. تعرف ما أتحدث عنه."

"أعرف أنك تبدِّد نقودك، وجزءًا من حياتك. مقابل لا شيء. مكانك ليس هناك. المعركة يخوضها الناس الموجودون هناك."

لم يَقُل سميان شيئًا. كان متأكدًا أن بيب يعرف شعوره. كان يعرف أيضًا شعور بيب.

هزَّ بيب كتفيه الهائلتين، وهو يحدِّق فيه، بما يقارب الاتهام، بعينيه الصغيرتين، اللتين لم تعودا مرحتين.

"طيب، يا رجل. إنها نزوة سخيفة لن تدوم طويلًا. اكتب يا رجل، وأخبرني كل شيء عن هؤلاء الكراكرز، والليبراليين الزائفين، والعصابيين، والمكارثيين."

"سأكتب."

"وحين تصير مدمنًا للكحول أو للمخدرات كي تحاول أن تنسى الأمر، أو تضطر إلى التمدُّد على أريكة طبيب نفسي كي يُغسل دماغك وتصير قادرًا على التكيف، أو تفقد أعصابك ولا تستطيع أن تتحمَّل المزيد، أو إن أوشكت على أن تنتهي في السجن، أو ما هو أسوأ لأنَّكَ حاولت أن تقتل واحدًا منهم - وتشعر مرة أخرى برغبة يائسة في الحصول على راحة البال والأعصاب، وأردت بعض الدجاج المشوي الشهي، ونبيذًا أحمر طيبًا - اتَّصِل بي حينها، وطِرْ عائدًا في أسرع طائرة تجدها. وستكون هناك دائمًا غرفة إضافية في بيتي من أجلك، في حال كنت مفلسًا."

حاول سميان أن يرفع كأسه بلا مبالاة. لكنه شعر بقلبه يقع، وللحظة وهن عزمه. ضحك رغم ذلك، وغمز لصديقه. "يمكنك أن تتأكد أني سأكون مفلسًا."

7

عَشيَّةَ إبحاره، تفاجأ سميان بهدوئه. حدَّق، وهو يَحلِق، في وجهه بالمرآة، وصدمه إدراك كم تقدَّم في العمر. دخل إلى غرفة المعيشة، حاملًا الشفرة في يده. بحث في الخزانة، وأخرج لوحة الوجه، وفردها. لم يَعُد يحتاج الصورة؛ لقد تغلغل الواقع. مزَّق القماش، ورمى القطع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نبذة عن المؤلف

وليم جاردنر سميث (1927 - 1974)

روائي وصحفي أفريقي أمريكي. وُلِد في أحد الأحياء العُمَّاليَّة السوداء في مدينة فيلادلفيا، وبدأ عمله بالصحافة في السادسة عشرة. صدرت روايته الأولى "آخر الغزاة" عام 1948. غادر الولايات المتحدة عام 1951، هروبًا من العنصرية والمكارثية، واستقرَّ في باريس، حيث عمل في وكالة الأنباء الفرنسية. صدرت "الوجه الحجري"، روايته الرابعة والأخيرة، عام 1963. انتقل إلى أكرا عام 1964، بعد دعوته إلى المشاركة في إطلاق أولى محطات التليفزيون في غانا، واضطرَّ لمغادرتها والعودة إلى فرنسا بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكومة كوامي نكروما. تُوفِّي سميث بمرض السرطان في إحدى ضواحي باريس.

نبذة عن المترجم

وائل عشري

كاتب ومترجم. حصل على دكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة نيو يورك عام 2009، ويقيم حاليًا في القاهرة. صدرت له مجموعتان قصصيتان. تشمل ترجماته: "فرناندو بيسوا: رسائل ونصوص" (2017)، رواية چين بولز "سيدتان جادتان" (2018)، "NO-ISBN: عن النشر الذاتي" (كيف تـ 2020). كما صدر له عن المحروسة: "رسائل السنوات الأخيرة" و"الورود حقيقية" لوجيه غالي (2019).

telegram @soramnqraa

الوجه الحجري

"كلَّما ابتعد الباص شمالًا؛ كلَّما زادت رَتابة المباني، والشوارع، والناس. متاجر رخيصة تبيع الملابس، والأثاث، وأدوات المطبخ: 'شروط مُيسَّرة، الدفع على عشرة شهور!' تزداد عتمة المقاهي، تصير الشوارع أضيقَ وأكثر صخبًا، ويشغل الأرصفة المزيد والمزيد من الأطفال. وقف رجالٌ عاطلون عن العمل، بلا شيء يفعلونه، ولا مكان يذهبون إليه، في مجموعات متجهِّمة، لا جدوى منها، على نواصي الشوارع. دوَّت الموسيقى العربية من المقاهي المظلمة، أو من النوافذ المفتوحة لفنادق كئيبة. ثم فجأة، صارت الشرطة في كل مكان، تراقب الشوارع، العيون تتنقَّل بوقاحة من وجه إلى وجه، الرشَّاشات تتدلَّى من أكتافهم.وأحذية ضيقة مدبَّبة".

.لنحو ثلاثة عقود، وفي ظل تعتيم رسمي، كانت "الوجه الحجري" هي الشهادة المنشورة الوحيدة على مذبحة باريس التي ارتكبتها الشرطة الفرنسية ضد متظاهرين جزائريين في ١٧ أكتوبر ١٩٦١.

تصميم الغلاف:

ISBN 978-977-313-936-0

9 789773 139360

المحروسة